الناقوس الزجاجي

سيلفيا بلاث

(رواية)



ترجمة:
توفيق سخان

سيلڤيا پلاث

الناقوس الزجاجي

ترجمة: توفيق سخان

مراجعة:
تحسين الخطيب

الطبعة الأولى 1432هـ 2011م

PS3566.L27 B412 2011
Plath, Sylvia, 1932-1963
[Bell jar]
الناقوس الزجاجي : [رواية] / سيلفيا بلاث ؛ ترجمة توفيق سخان ؛ مراجعة تحسين الخطيب.-ط. 1.- أبوظبي : هيئة أبوظبي للثقافة والتراث ،كلمة، 2011.
ص356 ؛ 14×21 سم.
ترجمة كتاب : The Bell jar
تدمك: 978-9948-01-825-4
1 . القصص الأمريكية. أ. سخان، توفيق. ب. خطيب، تحسين. ج.العنوان.

الناقوس الزجاجي
يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنجليزي:
Sylvia Plath
The Bell Jar

كلمة
KALIMA
www.kalima.ae
ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 468 6314 2 971+ فاكس: 462 6314 2 971+

أبوظبي للثقافة والتراث
ABU DHABI CULTURE & HERITAGE
www.adach.ae
ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 300 6215 2 971+ فاكس: 059 6336 2 971+

الناقوس الزجاجي

إلى إليزابيث وديڤد[1]

1- إشارة إلى إليزابيث سيغموند، جارة پلاث في وِست كَنترِي، وإلى وديڤِد كَمپتِن، زوج إليزابيث الثّاني. (المراجع).

تصدير
لِفرَانسِس مَكلَاو

لا تحسبنّ روائع أدبيّة، كَـ*الناقوس الزجاجي*، تحظى بالتقدير آنَ وصولها إلى مكتب الناشر فوراً. بَيدَ أنّ تاريخ النشر حافلٌ بحكاياتٍ حول روايات كلاسيكيّةٍ وجدت طريقها إلى النشر بشقّ الأنفس؛ [روائع تمتدُّ] من *الغابة الليلية*[1] حتى *حلف الأغبياء*[2]، وما *الناقوس الزجاجي* إلاّ واحدة من تلك الأعمال. ويصعب القول إن كانت الرواية ستحظى بالنشر في هذا البلد، لو بقيت سيلڤيا پلاث على قيد الحياة (سوف تكون، في السابع والعشرين من تشرين الأول لسنة 1997، مواطنة تحتفل بعيد ميلادها الخامس والستين). لكنّ المؤكد أنّها لم تكن لتُنشر إلاّ بعد وفاة أمها، الأمر الذي كان سيبقيها بعيدةً عن شواطئنا حتى أوائل التسعينيات. ستكون پلاث قد غدت، في غضون ذلك، روائيّةً بارزةً تنظر إلى عملها الأول من منظور مختلف تماماً.

1- الغابة الليليّة Nightwood: روايةٌ للأميركيّة جُونَا بَارنز (1892–1982) نشرتها دار فايبر آند فايبر اللندنية سنةَ 1936. وكان تِي. إِس. إليوت قد قدم للرواية التي كانت واحدةً من أُولى الروايات التي تكتبها روائيّة مرموقة تتناول موضوعة المثليّة الجنسيّة. (المراجع).

2- حلف الأغبياء A Confederacy of Dunces: رواية في أدب التصعلُك كتبها الأميركيّ جون كينيدي تُوول (1937–1969)، والتي نشرت في العام 1980، بعد 11 سنة على انتحاره. (المراجع).

لكنّ المؤكد أنّ پلاث قد قضت نحبها، على نحو مأساويّ، في سنّ الثلاثين، وتحتفظ الأحداث التاريخيّة التي تلتِ الكتاب بكل ما يمت بصلة إلى هذه الحقيقة. ولم تكن لتصل مخطوطة كتابها، بادئ الأمر، إلى مكاتب دار هَارپَر آند رُوو، في أواخر 1960، دون رعاية منحة يوجين إف. سَاكستِن، وهي منحة ارتبطت بالدار التي قدمت الدعم الماليّ لإنجاز العمل. تطلبت المنحة أن ترسل پلاث المخطوط النّهائيّ إلى لجنة سَاكستِن. قامت محرّرتان لدى هارپر (تكبران پلاث سنّاً ولهما اهتمام خاصّ بالشعر) بقراءة الرواية أملاً في العثور على صوت جديد في العالم الأدبيّ— لكنّهما وجدتا الرواية مخيّبة للآمال، صبيانيّة وشديدة العصبيّة والتوتُر. فرفضتا الكتاب، نتيجة لذلك، رغم أنّه لم يُقدّم إليهما على نحو رسميّ. في الواقع، كانت پلاث قد ألحت— على نحو ما— ألاّ تنشر الرّواية في أميركا خشيةَ أن تكون مفاتيحها مؤلمة بالنسبة إلى عائلتها وأصدقائها.

في الواقع، كانت پلاث قد وجدت ناشراً أميركيّاً لأعمالها. كانت [دار ألفريد إيه.[3] كنَپف Knopf قد اشترت حقوق كتاب قصائدها الأول، ***التمثال الضخم*** The Colossus (1962)، وهو حدث فجر الدفق النثريّ الأول لما سيغدو، لاحقاً، ***الناقوس الزجاجي***. ولطالما فكرت پلاث في كتابة رواية— كان طموحها بالنّشر في «المجلاّت الشعبيّة Slicks [4]»، خاصّة ذَا ليدِز هُوم جُورنَال، تستحوذ عليها كلما أمعنت التفكير في قصائدها. مخاطبةً إيّاها بِـ

3- جميع العبارات التي بين معقّوفتين «[ ]» من وضع المراجع.

4 – Slicks : تعبير يطلق على المجلاّت التي تطبع على ورق صقيل مقوى، وتحتوي على صور وحكايات، ولا يبدى اهتماماً بموضوعاتها سوى الذين يبتاعونها. (المراجع).

«عزيزتنا السيدة هيوز»، رفضت لجنة ساكستن مخطوطها الشعريّ، ذلك [المخطوط] الذي سوف يصبح، فيما بعدُ، [كتابَ] *التمثال الضخم*، لذا شعرت پلاث بالزّهو حين حظي مشروع *الناقوس الزجاجي* بالقبول لاحقاً.

كما كان لِپلاث ناشر إنجليزيّ: كانت دار وليام هاينمان قد نشرت *التمثال الضخم* في خريف 1960، ووافقت على نشر *الناقوس الزجاجي* تحت الاسم المستعار: ڤيكتوريا لوكاس (رغم أنّ الجميع، في عالم لندن الأدبيّ، كان يعلم أنّ پلاث هي المؤلفة)، وذلك في كانون الثاني من سنة 1963– وقبل بضعة أسابيع من وفاة پلاث. كانت المراجعات النّقديّة التي تناولت العمل فاترة، فكان وقع ذلك على پلاث شديداً. غير أنّها كانت قد شرعت في كتابة رواية أخرى في الرّبيع السابق. ووفقاً لرواية أمها، أضرمت پلاث النّار في رواية أخرى كانت قد انتهت من كتابتها، ذاتَ ثورة غضب استبدت بها. ورغم أنّها لم تكن ضالعة في فنّ القَصّ، مثلما كانت في كتابة الشعر، إلاّ أنّها عقدت العزم على أن تكتب «الروايةَ إثر الروايةِ» ما إن تنتهي من كتاب قصائدها، *إريل* Ariel.

وما إن صدرت رواية الناقوس الزجاجي، في لندن، حتى تعرضت حياة پلاث إلى هزّة عنيفة؛ كان زواجها من الشاعر تيد هيوز قد انتهى، كما لازمها هلع بشأن الحاجة إلى المال، وكانت قد انتقلت مع ولديها الصغيرين إلى شقّة خالية من الأثاث، ذات شتاء بريطانيّ شديد البرودة لم يسبق له مثيل، منذ مئات السنين. ونتيجة لذلك، أصيب ثلاثتهم بالزكام. لم يكن ثمة هاتف في المنزل، وكانت المساعدة الخاصّة برعاية الأطفال منعدمة. كانت پلاث تدرك جيّداً مدى تفرّد القصائد التي كانت تكتبها— أخبرها إيه. ألڤاريز، الناقد البارز في تلك الأيّام، أنّها تستحقّ جائزة پوليتزر. ولكنّ ذلك لم يحل بينها

وبين تجربة *الناقوس الزجاجي* المروعة، [تجربة] الانحدار المفاجئ إلى كآبة عميقة مهّدت لأولى محاولتها في الانتحار، في [ذلك] الصّيف الذي تصفه الرّواية. كان يؤثث المشهد— هذه المرّة— عدد من العناصر ذاتها: الرّحيل المفاجئ لحضور الشخصيّة الذكوريّة المركزيّة في حياتها، الرّفض النّقديّ (لم تُقبَل پلاث لحضور دروس فرانك أوكونر في الكتابة الإبداعيّة، بجامعة هارڤارد، في الصيف الذي تدور فيه أحداث *الناقوس الزجاجي*) والعزلة في بيئة جديد، والإعياء الشديد.

كان انتحار بلاث، في الحادي عشر من شباط 1963، سبباً في ذيوع صيتها العاجل في إنجلترا، حيث كانت قد حظيت، في السابق، بأكثر من ظهور عرضيّ على قناة البي بي سي، وبدأت تحظى بالشهرة بفضل نشراتها. غير أنّها لم تكن معروفة في موطنها الأصليّ، ولم تكن ثمة علامة على أنّها سوف تغدو واحدة من الشعراء البارزين المقروئين على نطاق واسع، وبطلة نسويّة feminist خاطبت روايتها المنشورة الوحيدة مشاعر أكثر من جيل واحد، على حد سواء.

وحين وصلتُ دارَ هارپر، لأول مرّة، في صيف 1964، لم تكن ثمة وظيفة محددة لي فعليّاً— كنتُ أقرأُ الأعمال المتقدمة لمسابقة جائزة ساكستِن في الرواية، آخر تمظهرات المنحة، وقد تم التعاقد معي، كما أوضح ذلك رئيسي الجديد، على أساس أنّه «إن كنتُ على قدر الكفاءة التي يعتقدونها، فسوف أجدُ شيئاً ما أقوم به». نظرت من حولي؛ كانت محرّرة الشعر (والتي كانت إحدى اللواتي قرأن *الناقوس الزجاجي* ولم ترق لها) على وشك التقاعد. قمت بشيء من البحث، فوجدت أنّ شعور عدم الرضا والتذمُر يكاد يغشى كل شاعر في أميركا إزاء ناشر أعماله. بدا ذلك لي فرصةً جيّدة لاستمالة بعض نجوم

الشعر إلى قائمتنا، فكان أنِ اقترحت الاستفادة من خدمات أحد الذين يفتشون عن الأصوات الجديدة في عالم الشعر— وكان مرشحي هو دونالد هُوول. أرسلتُ مذكرة إلى النّاشر كَاس كَانفِيلد الذي اعتبرها، بدوره، فكرة جيّدة.

وعندما سافر دونالد إلى لندن، لاحقاً في ذلك العام، كان [كتاب] *إريل* قد صدر للتو، فشعر بالزّهو والانتشاء؛ اقتنى نسخة منه، وأبرق يلح علينا أن ننشره. كانت دار كنَيف، بطبيعة الحال، مهتمة هي أيضاً، لكنّها أبدت اعتراضاً ما. لم يسبق لأيّ من شعرائها— وكانت لديها قائمة رائعة— أن تقاضى أكثر من 250 جنيهاً كدفعة مقدمة لقاء حقوق ملكيّة كتاب قصائد، وكان من غير الإنصاف، بالنسبة إليهم، أن تشذ پلاث عن تلك القاعدة. وفي غضون ذلك، ألمح دونالد إلى تيد هيوز، زوج پلاث والقيّم على أعمالها، وكيف أنّ إصدار *إريل* عن دار هارپر سيكون منطقيّاً، ذاك أنّها نشرت بعض أعمال هيوز نفسه، وبذلك أخذت الأمور تتجه لصالحنا.

كنت على معرفة [ببعض قصائد] پلاث؛ كان اسمها الغريب يرنّ في رأسي مذ سمعته، لأول مرّة، من إيه. ألڤاريز، الذي كان يدرّس في جامعة برانديس حين كنت طالبةً جامعيّة في مرحلة التخرّج. لكنّ هذه القصائد أثرت فيّ، تأثيراً عميقاً، مثلما لم تفعل أيّ من قصائدها التي نشرتها في مجلة نيو يوركر، أو تلك التي ضمها كتاب *التمثال الضخم*. ورغم المعارضة التي كانت داخل الدار من بعض الجهات التي شعرت أنّ القصائد في غاية الحِسيّة، إلاّ أنّه قد سُمح لي، ولروجر كلاين، المحرّر الشاب، أن نشتري الكتاب، في نهاية المطاف، لقاء 750 دولاراً— والذي هو مبلغ زهيد، مثلما أشار رئيس التحرير إيڤان توماس، لكي يحظى جيل الشباب بقدوة لهم.

وما إن نشر *إريبل*، حتى كان ذلك حدثاً مثيراً، فأفردت مجلة تَايم لمراجعته صفحتين كاملتين، مما خلق حالة من الإثارة الشديدة. أخذت النّساء يلتحقن بجماعاتِ إذكاء الوعي، وكانت پلاث، في الغالب، بؤرة النقاش. بعد موتها، أكد تيد هيوز (الذي ورث حقوق ملكيّة أعمالها المنشورة وغير المنشورة) لأمها أنّ *الناقوس الزجاجي* لن تنشر في أميركا خلال حياتها. غير أنّ الطلب المتزايد على المزيد من أعمال پلاث أدى إلى تهريب نسخ من الرواية قادمة من إنجلترا؛ كان ثمة، على الأقل، مكتبتان في نيو يورك تبيعان الكتاب بحماسة مفرطة.

وثمة أمر غريب آخر بشأن تاريخ نشر *الناقوس الزجاجي*، أمر يتعلق بحقوق النشر. ولأنّها كانت قد نشرت، أصلاً، في الخارج من طرف مواطنة أميركيّة، ولم تنشر في أميركا خلال ستة أشهر من تاريخ نشرها في الخارج، كما لم تُسجَل حقوق الملكيّة الفكريّة في الولايات المتحدة، فإنّها تندرج تحت قانون (ألغي منذ ذلك الحين) يطلق عليه اسم Ad Interim[5]، والذي ينصّ على أنّ الرّواية لم تعد خاضعة لحماية الملكيّة الفكريّة في أميركا. كان هذا الأمر سرّاً مكنوناً، غير أنّني تلقيّت، ذات يوم في 1970، مكالمةً هاتفيّة من يُوريس يُورِيفْتش، وهو صديق قديم يعمل لدى دار نشر أخرى، يحذرني فيها أنّ جون سايمن، من دار راندوم هاوس، على علم بقضيّة حقوق الملكيّة ويخطط لنشر الكتاب. كان وقع الخبر عليّ صاعقاً؛ هاتفت سايمن، شارحةً له أنّ السبب الوحيد الذي حال من دون نشر الكتاب نابع من احترام مشاعر السيّدة پلاث، وأنّنا توصّلنا إلى اتفاق لنشر الكتاب إن هي غيّرت رأيها أو في حال وفاتها، وأنّه من غير الأخلاقيّ أن يقوم هو بسرقة الكتاب. غير أنّني ذهلت تماماً حين

5 – لفظة يونانيّة تعني، حرفيّاً: الوقت الواقع بين فترتين زمنيّتين محددتين. (المراجع).

وافق، قائلاً إنّه سوف يحجم عن نشره.

بات واضحاً ضرورة قيامنا بنشر الرواية فوراً. هاتفت تيد هيوز، وشقيقته أولوِن التي كانت الوكيلة الأدبيّة للعائلة، وتجشمنا عناء إخبار السيّدة پلاث بالأمر. لاحقاً، قدمت السيّدة پلاث روايتها عما حدث، وذلك في ***رسائل إلى الأهل في الوطن*** (175)، وهو عبارة عن منتخبات من رسائل سيلڤيا إليها.

غير أنّ المشروع واجه معارضة داخليّة مرّة أخرى، من جانب القارئة الأصليّة ***للناقوس الزجاجي***، والتي لم تتزحزح، قيد أُنملة، عن موقفها الرافض، حتى بعد قراءة الرواية للمرة الثانية. ورغم النجاح الذي حقّقه ***إريبل***، فإنّ الدار كانت قلقة بشأن نشر عمل، بعد وفاة صاحبته، لا يتماشى مع معايير النّشر السائدة. توجهت إلى فرانك سِيُوسيَا، وهو مدير مبيعات بارز بدار هاربر، يمتاز بنظرة ثاقبة، ويستطيع التعرف على الكتب العظيمة آن قراءتها. سألته إن كان بإمكانه قراءة الرواية خلال الليل، وموافاتي بانطباعاته في اليوم التالي. وهكذا فعل؛ أحبّ فرانك الكتاب، متوقّعاً أن يحقّق مبيعات استثنائيّة. كان ذلك هو ما أنقذ الكتاب ودفع بدار هاربر إلى نشره، فبيعت منه قرابة ثلاثة ملايين نسخة ورقيّة الغلاف منذ 1972.

ولم تعمل فترة الانتظار التي امتدت ثماني سنوات – والتي فصلت بين الصدور الأصليّ للكتاب، في إنجلترا، وظهوره في أميركا – سوى على مضاعفة جمهور قُرّائه. كان اسم پلاث، بغضون 1971، اسماً مألوفاً. تشكلت جماعات معجبين بها Plath groupies، وكانت الحركة النسويّة في أوجها، ناهيك عن صدور كتب لجيرمين غرِير وروبن مورغان. كان أدب الاعتراف رائجاً. وكان ثمة افتنان جديد بـ [موضوعة] الموت؛ ظهرت إليزابيت كُوبلَر–

رُوس في المشهد فجأة، وبدا أنّ رواية إيريك سيغال المثيرة للشجن، ***قصّة حُبّ***، تحتفظ بمكان دائم لها ضمن قائمة الكتب الأكثر مبيعاً. كانت الكآبة والأمراض الذهنيّة موضوعات تشغل بال النّاس أيضاً؛ كانوا يقرؤون كتب آر. دي. لِيينغ. أما إيه. ألڤاريز، النّاقد الذي كان معجباً بپلاث، فقد ألف كتاباً في غاية الرّومانتيكيّة حول الانتحار، جاعلاً من پلاث حالة نموذجيّة. كما ظهر مقتطف من الطبعة البريطانيّة في [مجلة] ذِي أَمِركَن ريڤيو، إبّان إصدارها، فصارت الرواية حديث الساعة.

احتلت [رواية] ***الناقوس الزجاجي*** مكانها، على الفور، ضمن قائمة الكتب الأكثر مبيعاً، ورغم بعض المراجعات النقديّة المتذمرة، إلاّ أنّها رسخت نفسها كرواية تحوُل rite-of-passage [6] نسويّ، وتوأم [رواية] ***الحارس في حقل الشوفان***— وهي مقارنة لاحظها، لأول مرّة، أحد النّقّاد البريطانيّين الذين تناولوا الرواية بالمراجعة إبّان صدورها. في الواقع، نشرت ***الناقوس الزجاجي*** في الذكرى العشرين لرائعة ستَالِنغَر، وكانت سيلڤيا پلاث تكبر هُولدِن كُولفِيلد، البطل المُتخيَّل[7]، بسنتين اثنتين.

بالنسبة إلى مُولِي أُونِييل، وهي عاملة إنقاذٍ لها من العمر سبعة عشر

6- حدث طَقْسيّ ritual event يَسِمُ ارتقاء شخص ما من حالة إلى أخرى. ويمرّ هذا الحدث الطقسيّ في ثلاث مراحل: الانفصال separation، والتحوُل transition، وإعادة الاندماج re-corporation. في المرحلة الأولى، ينسحب المرء من حالته التي هُوَ عليها، مُهيئاً نفسه للانتقال إلى مكان آخر، أو إلى حالةٍ أخرى. وثمة انفصال عن عَين الذات السابقة في هذه المرحلة، والتي تتجسد بطقوس أو أفعال رمزيّة. وفي المرحلة الثالثة، بعد أن يكون المرء قد أنهى الطقْس واتخذ هويّته الجديدة، يعود إلى الاندماج في المجتمع من جديد بحالته الجديدة. (المراجع).

7- بطل الحارس في حقل الشوفان. (المراجع).

عاماً، والتي سوف تغدو- فيما بعدُ- روائيّةً وكاتبة متخصّصة في شؤون الطبخ لدى [صحيفة] نيو يورك تايمز، فإنّ قراءة ***الناقوس الزجاجي***، في ذلك الصيف، كان شيئاً لا يخلو من الدهشة. ما أدهشها، علاوةً على ذلك، هو احتماليّة الجنون الذي يجتاح، مثل إعصار، حياةَ امرأة ذكيّة مثاليّة من حيث لا تدري— «أيَمكُن ذلك؟ لا أكاد أصدق». أما بالنسبة إلى جانِت مالكولم، الكاتبة في [مجلة] نيو يوركر، والتي أصبحت مفتونة بالكيفيّة التي نعرف بها كل ما نعرف عن پلاث، فإنّ ***الناقوس الزجاجي*** استحضارٌ مُرهف لماهيّة الجنون كما هي فعلاً.

وعلى الرغم من عدم تشخيص مرضها فعليّاً، فقد لاحظ عدة باحثين متخصّصين وصف پلاث الدقيق للإدراك الحِسيّ الفُصاميّ schizophrenic: يصبح الرّواق نفقاً خَطِراً، وتكون للشخص الذي يدنو قامة ضخمة تهدد بابتلاع النّاظر كلما اقتربا من بعضهما بعضاً؛ كما تلوح الأشياء، من بعيد، على نحو غير واضح، وتستحيل الحروف الأبجديّة على الصّفحة طلاسم يصعب فك مغالقها، ويبدو كل شيء، في الواقع، خطِراً وغير حقيقيّ. ورغم التدخُلات interventions [الدوائيّة] التي حدثت في الربع الأخير من القرن [العشرين]؛ من [عقار] لبِريَم Librium إلى البرُوزَاك، فإنّ وصف پلاث الحيّ، والعقلانيّ تماماً، والقويّ إلى حد كبير، لذلك العالم يظل وصفاً حقيقيّاً، ولا يمكن لأيّ كاتب لاحق أن يتجاوزه. الآنَ، وقد بات مقبولاً، على الصّعيد الاجتماعيّ، الحديث بشأن تلك الأشياء، فمن السهل نسيان أنّ قراءة ***الناقوس الزجاجي*** قد قدمت إلينا فهماً للتجربة التي جعلت من ذلك الانفتاح أمراً ممكناً.

ولكن، ماذا بشأن راهنيّة الرواية بالنسبة إلى القرّاء الشباب اليوم؟ ففي

الوقت الذي تبدو فيه حساسيّات هولدن كولفيلد، بالنّسبة إلى العديد من القرّاء، لا تمت بصلة إلى الحدود الحادة لعالم اليوم، فهل لا تزال رواية النّاقوس الزّجاجيّ تحظى بدلالة ما؟ على أيّة حال، فإنّ الرّواية كانت سابقة [لمرحلة] العقاقير المخدرة، وأقراص الدواء، والدراسات النسويّة. ففي ظل نزعة التشبُّث بالحياة التي سادت عقد التسعينيّات، بدا الانتحار خيار المنهزمين. غير أنّ معدل انتحار المراهقين قد تضاعف، أربع مرّات، منذ الحرب العالميّة الثانية، وإن لم يعُد الانتحار بمثل الرومانيكيّة التي كان عليها حين نُشرت *الناقوس الزجاجي*، في هذا البلد، لأول مرّة، فإنّ الإحصائيّات تشير، من دون ريبٍ، إلى وتيرته المتصاعدة. لقد غدت الكآبة وباءً يجتاح أميركا، على نحو ما، في تلك الأثناء.

وحين سألتُ مجموعة بحثيّة غير رسميّة، تتكون من شابّات ذكيّات، في العشرينيّات من أعمارهنّ، رأيَهنّ في الكتاب، كان رأيّهن مُجمِعاً: لقد أحببنه. ورغم أنّ بعضهنّ وجدنه يوقع في النفْس الكآبةَ، فإنّ أُخرياتٍ وجدنه غير ذلك، وعلى نحو مثير للدهشة. فالموضوعات— مثلما أشرن— لم تتغيّر أبداً؛ بلى، لقد تغيّرت المبادئ الاجتماعيّة لحفلات الشاي والمواعدة والأعراف المقبولة، غير أنّها لا تبدو غريبة، نظراً لأنّها تشكل مادة الأفلام القديمة. أما الأسئلة الكبرى، من قبيل: كيف ترتبين حياتك، وكيف السبيل إلى تحقيق ما تصبين إليه، وكيف تتعاملين مع الرجال والجنس، وكيف تكونين وفيّة لذاتك، وكيف تدركين معنى ذلك— فإنّها أشياء لما تبارح مكانها بعد.

إما بالنسبة إلى القُرّاء المعاصرين الذين يعدون حقبة الخمسينيّات مجرّد حقبة رائعة، فإنّه من الصعب تصور إلى أيّ حد كانت پلاث جرئية فعلاً. فبين براثن الخضوع لأعراف الكنيسة الإنجليزيّة والتقاليد المحافظة الصارمة، إبّان

حقبة ما بعد الحرب العالميّة الثانية، كان مجرّد تلذذ المرء بجسده أمراً محفوفاً بالمخاطر، يصعب تصديقه. وكان ثمة أمرٌ آخر توجب على پلاث أن تتولى زمامه: ولأنّها كانت فقيرة، فإنّ كل شيء يعتمد على المحافظة على منحتها والفوز بالجوائز. فلو كانت أقل من متميّزة، لفقدت كل شيء في لحظة واحدة. إما بالنسبة إلى كل من يتفكر في علميّة قبول الطلبة في الجامعات اليوم، فإنّ القلق الذي كان يساور پلاث يبدو أمراً مألوفاً جداً.

وربّما لأنها ماتت في سنّ مبكرة، فقد عدها أغلب النّقاد كاتبةً معاصرة. أتذكر ناقدة نسويّة بارزة– والتي تاقت إلى أن تكون كاتبة سيرتها– وهي تتحدث حول السنة الأخيرة الصعبة من زواج پلاث: « لا أستطيع فهم ما جرى– لَمَ لَم ترحل؟» كما لو أنّ ذلك سيكون خياراً واضحاً بالنسبة إلى شابّة أميركيّة عالقة في الريف البريطانيّ رفقة طفلين صغيرين، ومن دون معيل، في أوائل الستينيات.

وقد يكون صحيحاً أن يشعر القرّاء أنّها كاتبة معاصرة أيضاً، ذاك أنّ لصوتها تلك الحِدة، وذلك التوثُب. فأغلب ما كتبته پلاث في حياتها القصيرة (وقد كتبت الكثير على نحو استثنائيّ– أتلفت ثلاث آلات كاتبة، وجمعت في كتابتها بين الشعر والمسرح والمسرحيّات الإذاعيّة والرواية) يمتلك تلك الخاصيّة: بداهة رسالةٍ فُتحَت للتو. وإنّه لأمر مفجع أنّ نفكر بما كانت ستكتبه، بما كان سيحمله صوتها المذهل من نضج وحكمة.

وثمة أشياء نستطيع رؤيتها من هذه المسافة، أشياء لم نقدر على رؤيتها من قبل. فعندما نشرت الرواية لأول مرّة، كان موتها لا يزال مأساة حيّة، تاركةً عائلتها نهب ألم عظيم لن يعمل أيّ إصدار جديد للرواية إلاّ على جعله أكثر

حدة. وقد عد بعض القرّاء الأعمالَ التي تُنشر بعد وفاة أصحابها رسائلَ من العالم الآخر، ومفاتيح لفك غموض ما قد وقع فعلاً. لم يلمح غلاف الطبعة الأولى– بلونه الأحمر الجافّ الكئيب– إلى المرح الصاخب الذي بين ثناياه. في الواقع، إنّه كتاب شيّق: تمنحنا السنوات الخمس والعشرون الفاصلة سبباً وجيهاً لأنّ نبتهج بالروح المرحة المدهشة التي لپلاث، وهي ميزة اعتبرتها، هي نفسها، أنّها قادرة على جعلها روائيّة.

وأمام الحضور الخالد للعمل، تتوارى أسطورة شخصيّة قويّة كتلك التي لپلاث، والتي هي، بالطبع، مثلما يتوجب عليها أن تكون. فبعد الدراسة المهمة التي أنجزتها جانِت مالكولم حول أسطورة پلاث، والتي نشرتها في [مجلة] نيو يوركر سنة 1994، لاحظ الفنان پات ستاير— والذي هو واحد من عدة قُرّاء عقّبوا عليها— أنّ «الشعر يسمو فوق كل شيء». كما أنّ للرواية أجنحة، فهي تأخذ قرّاءها إلى حيث ينشدون، ولا تبدي أيّة إشارة على فقدان القدرة على الطيران.

نيو يورك، 1996

الناقوس الزجاجي

(1)

كان صيفاً غريباً وقائظاً، ذلك الصيف الذي أعدموا فيه آل روزنبيرغ[8] صعقاً بالكهرباء. لم أعرف ما الذي كنت أفعله في نيو يورك. أشعر كالبلهاء إزاء حوادث الإعدام. ففكرة الموت صعقاً بالكهرباء تثير في نفسي الغثيان، وذلك هو كل ما يمكن للمرء مطالعته في الصحف — عناوين رئيسة جاحظة تحدق فيّ عند كل زاوية شارع، وفي مدخل كل مترو تفوح منه رائحة الفول السودانيّ العفنة. لم تكن لي علاقة بالحادث، غير أنّي لم أكفّ عن التساؤل حول احتراق المرء حيّاً حتى آخر أعصابه.

ظننتُ أنّ ذلك، لا ريب، هو أسوأ شيء في الوجود.

كانت نيويورك كريهة بما يكفي. فبحلول التاسعة صباحاً، تتلاشى العذوبة المترعة برطوبة الريف، والتي تكون قد تسللت على نحو ما خلال الليل، مثل نهاية حلم سعيد. أما الشوارع الملتهبة، والتي تراءت رماديّة كسراب في قاع وديانها، فقد تمايلت في الشمس. أزّت أسقف السيارات ثم التمعت، تطاير الغبار الرماديّ الجافّ إلى عينيّ وتسرّبت ذرّاته إلى حلقي.

واصلت الاستماع إلى أخبار آل روزنبيرغ عبر المذياع، وفي المكتب، حتى باتت لا تبرح مخيّلتي. كان ذلك شبيهاً بالمرّة الأولى التي شاهدت فيها جثة ما. لأسابيع لاحقة، كان رأس الجثة، أو ما تبقّى منه، يطفو خلف طبق البيض

8 — في صيف 1953، تم إعدام آل روزنبيرغ صعقاً بالكهرباء، وذلك بعد إدانتهم بتهمة تسريب سرّ القنبلة الذريّة إلى ما كان يعرف بالاتحاد السوفيتيّ. ظل هذا الحادث مثار الكثير من الجدل، وقد اعتبره الكثيرون مؤشراً على حالة القمع التي سادت الحقبة المكارثيّة. (المترجم).

ولحم الخنزير المقدد، عند الإفطار، وخلف وجه بَدي ويلارد Buddy Willard، الذي كان مسؤولاً عن مشاهدتي إيّاها في المقام الأول، ثم شعرت كما لو أنّي أحمل رأس تلك الجثة معي، هنا وهناك، مربوطاً بخيط، مثل بالون أسود مجدوع الأنف تنبعث منه رائحة الخل.

(أدركت أنني على غير ما يرام، في ذلك الصيف؛ لأنّ أخبار آل روزنبيرغ كانت تستحوذ عليّ، وكيف أنّني كنت غبيّة حين اشتريت كل تلك الثياب غير المريحة والباهظة الثمن، والتي تترنّح الآن مثل أسماك في خزانتي، وكيف أنّ كل النجاحات الصغيرة، التي حصدتها بسعادة بالغة في الجامعة، قد استحالت عدماً، خارج الرخام الصقيل والواجهات الزجاجية على طول جادة ماديسن).

كان حريّاً بي أن أكون في غمرة أزهى فترات حياتي.

وكان من المفترض أن أكون موضع حسد الآلاف من فتيات الجامعة الأخريات، ممن هُنّ على شاكلتي، في كافّة أنحاء أميركا، واللواتي لم يرغبن سوى في التبختر، بخطى رشيقة، في تلك الأحذية الجلديّة الفاخرة (قياس 7) والتي اشتريتها، خلال ساعة الغداء، من متجر بْلُوومِنغديِيل، رفقة حزام جلديّ أسود فاخر ومحفظة جلديّة سوداء فاخرة تناسبه. وحين ظهرت صورتي في المجلة التي كنّا نشتغل عليها– ونحن نحتسي شراب المارتيني، رافلات في صداريّات فضيّة مقلدة، تتخللها خيوط معدنيّة، ملتصقة بغلالة هائلة من الحرير الشفّاف، في إحدى القاعات التي تتلألأ الأضواء كالنجوم في سقفها، رفقة عدة شبّان مجهولي الهويّة، من ذوي القوام الأميركيّ المثاليّ، والذين تم استخدامهم لأجل المناسبة – ظنّ الجميع أنّني أعيش إثارة حقيقيّة.

قد يقول قائل: «انظروا إلى ما قد يحدث في هذا البلد. فتاة تعيش في بلدة نائية لتسع عشرة سنة، فقيرة لدرجة أنّها لا تقدر على شراء مجلة، ثم تحصل على منحة جامعيّة، وتفوز بجائزة هنا، وبأخرى هناك، وينتهي بها المطاف وهي تقود نيو يورك كما لو أنّها سيّارتها الخصوصيّة».

غير أنّني لم أقُد شيئاً، ولا حتى نفسي. كنتُ أتخبّط في طريقي من الفندق إلى العمل إلى الحفلات، ومن الحفلات إلى الفندق، ثم إلى العمل مرّة أخرى، مثل باص كهربائيّ فقد القدرة على الحركة الطبيعيّة. لا بُد وأنّي شعرت بالإثارة كأغلب الفتيات الأخريات، غير أنّي كنت عاجزة عن الاستجابة إلى ذلك. (كنت خاوية، ساكنةً، دونما حراك، مثلما يتوجب على عين الإعصار[9] أن تشعر به، وهي تتقدم، ببطء، وسط الجلبة التي تطوقها).

كنّا اثنتي عشرة فتاة في الفندق

كنّا قد فزنا بمسابقة نظمتها مجلة للموضة، بكتابة مقالات وقصص وقصائد ومنشورات دعائيّة. حظينا، نتيجة لذلك، بوظائف في نيو يورك لمدة شهر، علاوة على المصاريف، وحوافز مجانيّة كثيرة: تذاكر لحضور حفلات الباليه وعروض الأزياء، وتصفيف شعرنا في صالون شهير، كما حظينا بفرص لقاء شخصيّات ناجحة في المجال الذي نتوق إليه، وبنصائح حول ما الذي يتوجب علينا فعله ببشراتنا.

ما زلت أحتفظ بمجموعة أدوات الزّينة التي منحوني إيّاها، والتي تناسب فتاة بعينين سمراوين وشعر بنيّ: علبة مستطيلة من الماسكرا السوداء مع فرشاة صغيرة جداً، جَفْنَة مستديرة من مسحوق أزرق لتجميل رموش العينين،

9- وهي شبيهة بالثقب، تمتاز بسكينة تامة أو ريح خفيفة. (المراجع).

جفنة كبيرة بما يكفي ليلامسها المرء بأطراف أصابعه، وثلاثة من أحمر الشفاه تتدرّج ألوانها من الأحمر إلى الورديّ، والتي تجد مكانها في ذات الصندوق الصغير المذهب الذي تنتصب على أحد جوانبه مرآة صغيرة. كما أحتفظ بعلبة بلاستيكيّة بيضاء لنظارات الشمس، ذات صدف ملون ونثار معدنيّ لماع وقنديل بحر بلاستيكيّ أخضر خِيطَ عليها.

أدركت أننا كنّا نواظب على تكديس هذه الهدايا، لأنّها كانت بمثابة ترويج جيّد للشركات التي تنتجها، بيد أنّني لا أستطيع أن أكون ساخرة. لقد جنيت الإثارة والمتعة من كل تلك الهدايا المجانيّة وهي تُغدَق علينا. خبّأتها، بعدئذ، لمدة طويلة، لكنّني أخرجتها، لاحقاً، حين صرت على ما يرام ثانيةً، وما زلت أحتفظ بها في أرجاء البيت. أستعمل أحمر الشفاه بين حين وآخر، وفي الأسبوع الفائت فصلت القنديل البحريّ البلاستيكيّ عن علبة النظارات الشمسيّة ليعبث بها الطفل كيفما يشاء.

هكذا كنّا اثنتي عشرة فتاة في الفندق، في الجناح نفسه، وفي الطابق ذاته، في غرف فرديّة، الواحدة تلو الأخرى، مما ذكرني بمهجع نومي في الجامعة. لم يكن فندقاً تماماً— أقصد فندقاً يخالط فيه الرجال النساءَ، هنا وهناك، في ذات الطابق.

كان هذا الفندق— فندق الأمازون— حكراً على النساء فقط، واللواتي كُنّ في مثل سنّي، وقد حرص آباؤهنّ الأثرياء على أن يُقمن في أماكن لا يصل الرّجال إليها ليضللوهنّ؛ كنّ يقصدن مدارس راقية لتعليم السكرتاريا، على شاكلة كَاتِي غِبْس[10]، حيث توجب عليهنّ اعتمار قبّعات وارتداء جوارب

10- إشارة إلى مدرسة كاثرين غِبْس Gibbs في نيو يورك. (المراجع).

وقفّازات في طريقهنّ إلى قاعة الدرس، أو كنّ قد تخرّجن للتو من أماكن، شبيهة بكاتي غِبْس، وأصبحن سكرتيرات لمدراء تنفيذيّين، أو لدى أعوانهم، مما أتاح لهنّ فرصة التسكع في نيو يورك في انتظار الزّواج من هذا الموظف أو ذاك.

بدت الفتيات نهب حالة من الضجر القاتل. شاهدتهنّ واقفات في فتحات أسقف السيارات، يتثاءبن ويضعن الأصباغ على أظافرهنّ، محاولات الإبقاء على سحناتهنّ البرونزيّة، فبدين في غاية الملل. تحدثت إلى إحداهنّ، والتي كانت قد ضاقت ذرعاً باليخوت وبالتحليق في الطائرات وبالتزلج على الثلج في سويسرا إبّان أعياد الميلاد، والتي ضاقت ذرعاً بالرّجال في البرازيل أيضاً.

يجعلني هذا النّوع من الفتيات أشعر بالغثيان. أشعر بغيرة عمياء فأعجز عن الكلام. تسع عشرة سنة، ولم أبارح نيو إنغلاند إلاّ في هذه الرحلة إلى نيو يورك. لقد كانت فرصتي الكبيرة الأولى، ولكن ها أنا ذي، جالسة في مكاني، تاركة لها أن تنساب من بين أصابعي مثل ماء غزير.

أعتقد أنّ دُورِين Doreen كانت أحد الأشياء التي تقلقني.

لم أصادف فتاة مثل دورين من قبْل. قدمت دورين من كليّة للبنات خاصّة بالمجتمع الراقي في الجنوب، وكان لها شعر أبيض لامع ينتصب خارج زغب قطنيّ مُهذَب حول رأسها، وعينان زرقاوان كبلورتين عقيقتين، قاسيتين وصقيلتين لا تتبددان، وفم دائم التلفّظ بألفاظ السخرية والتهكُم. لا أقصد تلك السخرية الفاحشة، بل السخرية المسليّة المُلغّزة، كما لو كان كل الذين من حولها أغبياء تماماً، وتستطيع أن تجعلهم موضع سخريتها إن رغبت في ذلك.

وقع اختيار دورين عليّ فوراً. جعلتني أشعر أنّني كنت أكثر ذكاء من الأخريات، وقد كانت مسليّة على نحو رائع. اعتادت الجلوس بجانبي على طاولة المحاضرات، وحين كان يتحدث المشاهير الذين كانوا يقومون بزياراتنا، كانت تهمس لي بملاحظات ذكيّة ساخرة.

كانت الكليّة التي تخرّجت منها مدركة لألوان الموضة، مثلما أخبرتني، بحيث كان للفتيات أغطية محافظ يدويّة صُنِعت من ذات القماش الذي لفساتينهنّ، حتى يحظين بمحافظ يدويّة مناسبة في كل مرّة يبدلنّ فيها ملابسهنّ. كان لمثل تلك التفاصيل تأثيرها عليّ. لقد ألمحت إلى حياة من الانحطاط decadence الرائع، والمفصّل على نحو مدروس، والذي جذبني إليه مثل مغنطيس.

كان الشيء الوحيد الذي وبّختني عليه دورين بشدة هو قلقي الدائم تجاه الانتهاء من فروضي الدراسيّة في الموعد المقرّر.

«لِمَ تقلقين بشأن ذلك؟» تمددت دورين، بتكاسل، على سريري، في ثوب نوم حريريّ خوخيّ اللون، وهي تقلم أظافرها الطويلة المصفرّة جرّاء التدخين بمبرد أظافر، فيما كنت أضرب على الآلة الكاتبة مسودة حوار أجريته مع روائيّ حقّقت رواياته مبيعاً كبيراً.

كان ثمة أمر آخر– فبينما كانت بقيّة الفتيات يرتدين ثياب نوم قطنيّة منشاة وَمَباذِل مُضرَّبة، أو، ربّما، أردية من نسيج وَبَرِيّ تُطوَى مثل سُتَر شاطئيّة، كانت دورين ترتدي منامات بلون بشرتها تلتصق بجسمها بقوة كهربائيّة ما. كانت تعبق برائحة مخضلة بالعرق ذكرتني بأوراق السرخس الحلوة التي تتخذ شكل شرائح لحم رقيقة، والتي تنتزعها ثم تسحقها بين أصابعك بحثاً عن عبير

المسك الثاوي بين حناياها.

«تعلمين أنّ جاي سِي Jay Cee لا تكترث إن نشرت تلك القصّة غداً أو يوم الاثنين». أشعلت دورين سيجارة وتركت الدخان يتماوج على مهله من منخريها حتى حجب عينيها. ثم واصلت حديثها بفتور: «قبيحة جاي سِي، كالخطيئة». «أراهن أنّ زوجها يطفئ كل الأضواء قبل أن يقترب منها، وإلاّ تقيّأ ما في جوفه».

كانت جاي سِي رئيستي، وكنت أحبّها كثيراً، رغم ما قالته دورين. لم تكُن من اللواتي يظهرن في مجلاّت الموضة برموش مصطنعة وحليّ تصيب المرء بالدوار. كانت جاي سِي ذكيّة، لذا فإنّ مظهرها القبيح لم يهمني في شيء. كانت تتقن القراءة بلغتين، وتعرف كل الكتاب المهمين في حقل الموضة.

حاولت أن أتخيّل جاي سِي دون بزّة عملها الرسميّة وقبّعتها التي تلازمها طيلة فترة الغداء، وهي في السرير مع زوجها، ولكن من دون جدوى. كنت على الدوام أعاني الأمرّين في محاولة تخيّل الناس في السرير مع بعضهم.

أرادت جاي سِي أن تعلمني شيئاً ما، وقد كان هذا ديدن العجائز اللواتي عرفتهن، غير أنّني أدركت فجأة أن لا شيء يمكنني تعلمه. وضعت الغطاء على الآلة الكاتبة، ثم أطبقتها برنين مسموع.

تبسمت دورين ابتسامة عريضة. «فتاة ذكيّة».

كان ثمة طرق على الباب.

سألت غير مكترثة بالنّهوض من مكاني: «من بالباب؟».

«إنّها أنا، بِتسِي Betsy. هل ستذهبين إلى الحفلة؟».

ودون أن أتجشم عناء الذهاب إلى الباب، قلت: «أظنّ ذلك».

كانوا قد أحضروا بِتِسي من كَانزَاس، بتسريحة شعرها التي على شكل ذيل فرس شهباء متوفّزة، وابتسامة مُشرقة[11]. أتذكر حين دعونا، معاً، إلى مكتب منتج تلفزيونيّ ذي ذقن مُزرقّ وبدلة مقلمة- للنّظر فيما إذا كنّا نتمتع بمظهر يعول عليه لانتاج برنامج ما- شرعت بِتِسي في الحديث عن أكواز الذرة الذكريّة والأنثويّة في كانزاس. أصبحت بِتِسي مهتاجة بشأن أكواز الذرة اللعينة حتى لمحنا الدموع في عينيّ المنتج، غير أنّ ذلك الأداء لم يكن مقنعاً ليوظفه المنتج في برنامجه، مثلما أوضح معتذراً.

ثم، بعد ذلك، أقنعت المحرّرة، المتخصّصة في شؤون الجمال، بِتِسي بقصّ شعرها، فجعلتها تبدو مثل اللواتي يظهرن على أغلفة المجلاّت. ما زلت أرى وجهها، بين الفينة والأخرى، مبتسماً في أحد الإعلانات التجارية: «زوجة في دار أزياء بِي. كيُو ترتدي ثوباً من صنع بي. إتش. رَاغِي».

كانت بِتِسي تسألني على الدوام أن أشاركها والفتيات الأخريات إنجاز بعض الأمور، كما لو كانت تحاول إنقاذي بطريقة ما. لم تسأل دورين أبداً. كانت دورين، حين نكون لوحدنا، تطلق على بِتِسي لقب راعية البقر المتفائلة.

«أتودين مرافقتنا في التاكسي؟»، قالت بِتِسي عبر الباب الموارب.

هزّت دورين رأسها.

«لا بأس، بِتِسي»، قلتُ. «سأذهب مع دورين».

«حسناً». أستطيع سماع وقع أقدام بِتِسي، وهي تحث الخطى في الممرّ.

11- تستخدم پلاث، هنا، العبارة التالية: Sweetheart-of-Sigma-Chi smile، في إشارة إلى الأغنيّة الشعبيّة التي ألفها بايرون دي. ستوكس سنة 1911؛ والتي تقول في أحد مقاطعها: «يظل الحُبّ الذي في عينيها، والدفء الذي في ابتسامتها، رغم مرور السنين». (المراجع).

«سنذهب حتى نسأم تلك الحفلات»، أخبرتني دورين، وهي تطفئ سيجارتها في قاعدة مصباح القراءة الذي بجانب سريري، «ثم نذهب إلى البلدة. تذكرني هذه الحفلات التي يقيمونها هنا بحفلات الرّقص القديمة في قاعات الرياضة بالمدرسة. لِمَ يدعون، دائماً، طلبة جامعة يِيل؟ إنّهم شديدو الغباء!».

التحق بَدِي ويلارد بجامعة يِيل، غير أنّ الأمر قد خطر، للتو، ببالي: كان غباؤه مكمن الخلل في شخصيّته. أوه، لقد تمكن، رغم ذلك، من الحصول على علامات جيّدة، ومن إقامة علاقة مع نادلة شنيعة، تعمل في مقهى كِيب Cape، تدعى غلاديس، لكنّه عاجز عن الحدس. لدورِين القدرة على الحدس. كان كل شيء تفوهت به مثل صوت خفيّ ينطق من بين أضلعي.

كنّا قد علقنا في زحمة السير، في تلك الساعة التي يرتاد فيها النّاس المسرح. علقت سيّارة الأجرة التي نستقلها خلف السيّارة التي تقل بِتسِي، وأمام سيّارة تقل أربع فتيات أُخَر، ولا شيء تحرّك.

بدت دورين رائعة. كانت ترتدي فستاناً أبيض مخرّماً، بلا أكمام، ويلفّ خصرها مشد أنيق قوس جسمها من المنتصف، ثم نفخه مرّة أخرى– على نحو مثير– في الأعلى وفي الأسفل، وكان لبشرتها لمعان برونزيّ تحت البودرة الباهتة. فاحت رائحة دورِين نفّاذة كمتجر كامل من العطور.

ارتديتُ ثوبا أسود ضيّقاً من قماش الشانتون كلفني أربعين دولاراً. كان ذلك الثوب جزءاً من الأشياء التي أنفقت عليها بعض مال المنحة، حين استبد بي هوس الشراء، لما تناهى إلى مسامعي أنّني كنت إحدى المحظوظات الذاهبات إلى نيو يورك. كان ثوباً في غاية الغرابة، فلم أقدر على ارتداء أيّة

صدرية تحته، غير أنّني لم أهتم لذلك، فقد كنت نحيلة كصبيّ، وبالكاد تتماوج تقاسيم جسدي، كما راق لي شعور أن أكون شبه عارية في ليالي الصيف القائظة.

ورغم ذلك، بهت لون بشرتي البرونزيّة في المدينة. بدوت صفراء كفتاة صينيّة. عادة ما أكون عصبيّة بشأن ثوبي ولون بشرتي الغريب، غير أنّ تواجدي رفقة دورين جعلني أنسى مخاوفي. شعرت أنّي حكيمة، أسخر من كل شيء.

وحين شرع الرجل الذي يرتدي قميصاً قطنيّاً مُقلماً، وبنطالاً أسود من قماش التشينو، وحذاءَ رعاة بقر جلديّاً، بالاتجاه نحونا من تحت الظُلة المخططة للحانة، حيث كان يرقب سيارة الأجرة التي تقلنا، لم تعد تخامرني أيّة أوهام. كنت على يقين أنّه آتٍ من أجل دورين. شقّ طريقه بين السيارات المتوقّفة، ومال، على نحو جذابٍ، على حافّة نافذتنا المفتوحة.

«هل لي أن أسأل، ما الذي تفعله فتاتان لطيفتان، مثلكما، بمفردهما في سيّارة أجرة، في ليلة لطيفة كهذه الليلة؟».

كانت له ابتسامة بيضاء عريضة كتلك التي تظهر في إعلان يروج لمعجون أسنان.

«نحن في الطريق إلى إحدى الحفلات»، قلتُ دونما تفكير، طالما أنّ دورين قد استحالت بكماء فجأة، مثل عمود، تعبث، ضجرةً، بغطاء محفظتها الأبيض المخرّم.

«يبدو الأمر مضجراً»، قال الرجل. «لمَ لا تنضمان إليّ لاحتساء بضع كؤوس في تلك الحانة هناك؟ ثمة بعض الأصدقَاء ينتظرونني، هناك، أيضاً».

أومأ برأسه تجاه عدة رجال يرتدون ملابس غير رسميّة، يتلكؤون حول الظُلة. كانوا يتبعونه بنظراتهم، وحين التفتُ إليهم، ضجوا بالضحك.

كان حريّاً بي الانتباه إلى ما يضمره ذلك الضحك. كان ضحكاً وضيعاً نصف مكبوت، لكنّ حركة السير أظهرت علامات على التحرّك من جديد، فأدركتُ إن بقيت مسمرة في مكاني، فإنّني سأندم– خلال ثانيتين– على إضاعة فرصة رؤية وجه آخر من نيو يورك، إضافة إلى ما أعده القائمون على المجلة، بعناية فائقة، من أجلنا.

«ما رأيك، يا دوريين؟»، قلتُ لها.

«ما رأيك، يا دوريين»، قال الرجلُ، مبتسماً ابتسامته العريضة تلك. لا أستطيع التذكر، إلى هذا اليوم، كيف بدت ملامحه حين لا يكون مبتسماً. لا بُد أنّه كان متبسماً طيلة الوقت. لا بُد أنّ ذلك كان طبيعيّاً، بالنسبة إليه، أن يتبسم على ذلك النّحو.

«حسناً، لا بأس»، قالت لي دوريين. فتحتُ الباب، ثم خطونا إلى خارج سيّارة الأجرة التي كانت تتحرّك على مهلها ثانية، وشرعنا نحث الخطى صوب الحانة.

كان ثمة زعيق فرامل رهيب أعقبه صوت اصطدام غير واضح.

«أنتما، هناك!»

كان سائق سيّارة الأجرة يمد عنقه خارج نافذته، وقد احمرّ وجهه من الغضب. «ما تظنّان أنّكما فاعلتان؟».

كان قد أوقف السيّارة، على نحو مفاجئ، حتى اصطدمت بها سيّارة الأجرة التي خلفها، محدثة دويّاً، فرأينا الفتيات الأربع داخلها وهنّ يلوحن

جاهدات على النهوض من أرضيّتها.

ضحك الرجل، وتركنا عند ناصية الشارع، ثم عاد أدراجه وناول السائق ورقة نقديّة، في غمرة نفير سيّارات هائل وبعض الصّراخ، ثم شاهدنا– حينئذ– الفتيات العاملات في المجلة يتحرّكن في صفّ، سيّارة أجرة تلو أُخرى، مثل حفلة زفاف تقتصر على إشبينات العرائس.

«هيّا، يا فْرَانكِي Farnkie»، قال الرجل إلى أحد أصدقائه في المجموعة، ثم غادر المجموعةَ شخص وضيع قصير القامة، ودخل الحانة معنا.

كان على شاكلة الأشخاص الذين لا يمكنني احتمالهم. فأنا بطول خمسة أقدام وعشرة إنشات[12]، وحين أكون رفقة رجال قصيري القامة فإنّني أنحني قليلاً وأرخي وَرِكيّ، واحداً إلى الأعلى والآخر إلى أسفل، حتى أبدو أقصر، شاعرةً أنّي خرقاء وفي غاية الكآبة كشخص في استعراض ثانويّ. تملكني، للحظة، أملٌ جامح أنّنا سوف نُصّنف، أزواجاً، وفق طول القامة، حيث سأنضم إلى الرجل الذي تحدث إلينا أول مرّة، والذي كان بطول ستة أقدام، لكنّه التحق بدورين ولم يرمقني بنظرة ثانية. حاولت التظاهر بعدم رؤية فرانكي وهو يلتصق بمرفقي، فجلست قرب دورين على الطاولة.

كانت الحانة معتمة جداً، فلم أتمكن من تمييز أيّ شيء إلاّ دورين، بشقّ الأنفس. كانت بيضاء تماماً، بشعرها الأبيض وفستانها الأبيض حتى بدت مثل فضة. لا بُد أنها عكست أضواء النّيون التي في سقف الحانة. شعرتُ أنّي أذوب في الظلام مثل صورة سلبيّة لشخص لم أره، قط، في حياتي.

«حسناً، ماذا سنشرب؟»، سأل الرجل بابتسامة عريضة.

12– حوالي 177.8 سنتيمتر. (المراجع).

«أعتقد أنّني سأحتسي شراباً تقليديّاً»، قالت دورين لي.

لطالما أربكني طلب المشروبات. لم أعرف الفارق بين الويسكي والجِنّ، ولم أفلح في الحصول على شيء أحببت مذاقه أبداً. كان بَدي ويلارد وشبّان الكليّة الآخرون الذين عرفتهم معدمين، فلم يقدروا على شراء مشروبات كحوليّة قويّة، أو كانوا يزدرون الشرب بالمرّة. من المدهش ألاّ يدخن شبّان الكليّة أو يعاقروا الخمر. بدا الأمر كأنّني أعرفهم جميعاً. كان أقصى ما استطاع بَدي القيام به هو شراء زجاجة من نبيذ دوبونيه، ولم يقم بذلك إلاّ ليبرهن أنّه يعشق الأشياء الجميلة رغم دراسته في كليّة الطب.

«سآخذ كأساً من الڤودكا»، قلتُ.

نظر إليّ الرجل عن كثب. «ممزوجة بشيء؟»

«صِرفةً، ليس إلاّ»، قلت له. «فعادة ما أحتسيها صِرفةً».

ظننت أنّني سوف أجعل من نفسي عرضة للسخرية إن قلت سأحتسيها بالثلج أو الصودا أو الجِنّ أو أيّ شيء آخر. كنت قد لمحت إعلاناً يروج للڤودكا مرّة، مجرّد كأس مملوءة ڤودكا، تتطاول وسط ثلج كدسته الريح في ضوء أزرق— بدت الڤودكا صافية وصرفة مثل الماء، فاعتقدت أنّ احتساءها صرفة سيكون أمراً لا بأس به. كان حلمي أن أطلب، ذات يوم، كأس شراب، واكتشف مذاقها الرائع.

قدم النادل، حينئذٍ، فطلب الرجل كؤوس شراب لنا نحن الأربعة. بدا، في لباسه الريفي، على سجيته، في تلك الحانة المدينيّة، حتى يخاله المرء شخصاً مشهوراً.

لم تنبس دورين ببنت شفة، كانت تعبث بلبادتها الفلينيّة، ثم أشعلت

في نهاية المطاف سيجارة، غير أنّ الرجل بدا غير مكترث تماماً. واصل التحديق فيها، مثلما يحدق النّاس في مَقُو[13] أبيض ضخم في حديقة الحيوان، منتظرين أن ينطق كالبشر.

وصلت كؤوس الشراب، فبدت كأسي صافية وصرفة، كما في إعلان الڤودكا.

«ما طبيعة عملك؟»، سألت الرجل، لكسر الصمت الذي لفّني من كل حدب وصوب، ثقيلاً مثل عشب دَغَل. «أقصد، ماذا تفعل هنا في نيو يورك؟».

بأناةٍ، وبما بدا جهداً عظيماً، أشاح الرجل بناظريه عن كتفيّ دورين. «أنا مقدم فقرات موسيقيّة»، قال. «لا بُد أنّك قد سمعت بي من قبل. اسمي لِنِي شبَرد Lenny Shepherd».

«أعرفك، قالت دورين فجأة».

«أنا سعيد بشأن ذلك، عزيزتي»، قال الرجل، ثم انفجر ضاحكاً. «ستكون الأمور على خير ما يرام. فأنا مشهور جداً».

ثم رمق لِنِي شبَرد فْرَانكِي طويلاً.

«من أين أنت؟»، سأله فرانكي بعصبيّة، وقد قام من مكانه. «ما اسمك؟».

«هذه اسمها دورين». دَس لِنِي يده خلف ذراع دورين العاري، ثم ضمها بشدة.

13- المَقُو Macaw: ببغاء أميركيّ يمتاز بذيل طويل ضخم ومنقار معقوف وألوان زاهية وصوت أجش. (المراجع).

لقد أدهشتني دورين حين بدت كأنّها لم تلحظ ما كان يقوم به. جلست هناك، معتمةً، في ثوبها الأبيض، مثل زنجيّة صبغت بشرتها بلون أشقر، وهي تحتسي شرابها بأناقة.

«اسمي إِلِي هِغِنبَتِم Elly Higginbottom»، قلتُ. «قدمت من شيكاغو». بعد ذلك، شعرتُ بالأمان. لم أكن راغبة في أن يرتبط بي— أو باسمي الحقيقيّ— أيّ شيء قلته، أو فعلته، في تلك الليلة، وإنّي قادمة من بوسطن.

«حسناً، إِلِي، ما رأيك لو رقصنا قليلاً؟»

جعلتني فكرة مراقصة ذلك القزم، الذي ينتعل حذاء برتقاليّاً من الشمواه وقميصاً قصيراً وسترة رياضيّة زرقاء متهدلة، أن أضحك. فلا شيء أزرديه أكثر من رجل بثياب زرقاء. أو بثياب سوداء، أو رماديّة، أو حتى بنيّة. الأزرق يجعلني أضحك، ليس إلاّ.

«لست في مزاج جيّد»، قلتُ بفتور، ثم أدرت ظهري له، مقرّبة كرسيّ من دورين وَلِنِي.

خُيِّل إلينا أنّ لِنِي ودورين يعرفان بعضهما منذ سنين. كانت دورين تغرف قطع الفاكهة، التي في قاع كأسها، بملعقة فضيّة رقيقة، وكان لِنِي ينخر، كلما رفعت الملعقة إلى فمها، ويطبق فكيه على نحو مفاجئ، متظاهراً أنّه كلب أو شيء من ذلك القبيل، محاولاً انتزاع الفاكهة من الملعقة. قهقهت دورين وواصلت غرف الفاكهة.

بدأت أشعر أنّ الفودكا هي شرابي الأثير. لم يكن مذاقها كأيّ شيء آخر، لكنّها سرعان ما سالت إلى جوف معدتي كالسيف الذي يبتلعه السحرة،

فجعلتني أشعر بالقوة وأنّني أشبه الآلهة.

«من الأفضل أن أذهب الآن»، قال فرانكي، وهو ينتصب واقفاً.

لم أستطع رؤيته بوضوح، كان المكان معتماً. كانت تلك هي المرّة الأولى التي أسمع فيها صوته العالي المضحك. لم نعره اهتماماً.

« يا لِني، أنت مدين لي بشيء ما. أتذكر؟ أنت مدين لي بشيء ما، أليس كذلك، يا لِني؟».

لقد كان أمراً غريباً أن يذكر فرانكي لِني أنّه مدين له بشيء ما أمامنا، ونحن غريبتان تماماً، غير أنّ فرانكي تسمر في مكانه معيداً الجملة، مرّات ومرّات، حتى مد لِني يده في جيبه وأخرج رزمة كبيرة من الأوراق النقديّة الخضراء، ثم سحب واحدة منها وناولها إلى فرانكي. أظنّها ورقة من فئة العشرة دولارات.

«صَه، انصرف في الحال».

اعتقدتُ، للحظة، أنّ لِني كان يوجه حديثه إليّ أيضاً، لكنّني سمعت، آنئذٍ، صوت دورين يقول: «لن أذهب ما لم تأت إِلي». كان عليّ أن أجاريها في الكلام وهي تتفوه باسمي المزيّف.

«أوه، ستأتي إِلي، أليس كذلك، يا إِلي؟»، قال لِني، وهو يغمزني بعينه.

«بالطبع سأذهب»، قلتُ. تلاشى فرانكي في العتمة، فأمسكتُ بدورين. أردت أن أرى بقدر استطاعتي. كنت أحبّ مشاهدة الآخرين في حالات حرجة. فلو كان ثمة حادث سير، أو قتال في الشارع، أو ثمة جنين حُفظ في جرّةِ سائلٍ حمضيّ في أحد المختبرات، فإنّني أتوقّف وأمعن النظر حتى لا يبرح المنظر مخيلتي أبداً.

لا شك أنّني قد تعلمت، بهذه الطريقة، أشياء لم أكُن لأتعلمها أبداً، حتى حين تدهشني تلك الأشياء أو تجعلني أصاب بالغثيان، فإنّني لا أفصح عن مشاعري، بل أتظاهر أنّ تلك هي الطريقة التي أعرف بها الأشياء دوماً.

(2)

ما كان بوسعي، لأيّ سبب كان، أن أُفوت فرصة مشاهدة مكان إقامة لِني.

بدا المكان من الداخل أشبه بمزرعة، مع فارق أنّه يقوم وسط شقّة في نيو يورك. قام لِني– مثلما أخبرني– بتهديم بعض القواطع ليمنح المكان فضاء أرحب، ثم غطى الجدران بألواح من خشب الصنوبر، كما أعد مشرباً من الخشب ذاته على شكل حذوة حصان. أظنّ الأرضيّة كانت من خشب الصنوبر أيضاً.

تناثرت على الأرضيّة جلود دببة بيضاء، وكان الأثاث الوحيد يتكون من أرائك واطئة تغطيها سجاجيد هنديّة. وعوضاً عن الصور، علق على الجدران قرون وعول وجواميس ورأس أرنب محنّطاً. أشار لِني، بإبهامه، إلى الخَطْم الرماديّ الصغير الوادع، وإلى أذنيّ الأرنب الأميركيّ المتيبّستين.

«لقد صدمته بالسيارة في لاس ڤيغاس». ثم ابتعد عبر الغرفة، كان لوقع جزمة رعاة البقر التي ينتعلها أصداء طلقات مسدس. «صوتيّات Acoustics»، قال، ثم صار يتناهي في الصّغر حتى اختفى عبر باب في المسافة.

فجأةً، راحت الموسيقى تصدح من كل الجهات. ثم توقفت، فترامى صوت لِني وهو يقول: «هذا لِني شِبَرد، مقدم برنامج موسيقى منتصف الليل، وباقة من روائع أغنيات البوب. لم تحتل المرتبة العاشرة، في سباق الأغاني، لهذا الأسبوع، سوى تلك الصبيّة ذات الشعر الأشقر، والتي سمعتم عنها الكثير في

الآونة الأخيرة . . . إنّها Sunflower [عبادة الشمس] التي لا مثيل لها!»

ولدتُ في كانزاس، وترعرعت في كانزاس،
وحين أتزوج، سأقيم عُرسي في كانزاس . . .

«يا للروعة!»، قالت دورين. «ألا يبدو شخصاً مُسلياً؟».
«لا شك في ذلك»، قلتُ.
«اسمعي، إلِي، أسدي لي معروفاً». بدا الأمر كما لو أنّها تظنّني إلِي حقّاً.
«بالتأكيد»، قلتُ.
«إبق على مقربة منّي، هلاّ تفعلين؟» لا أعتقد أنّني سأصمد أمام إغراءاته إن قام بشيء مضحك. هل رأيت تلك العضلات؟ قهقهت دورين.
خرج لِني فجأة من الغرفة الخلفيّة. «لديّ، هناك، معدات تسجيل بعشرين ألف دولار. ثم مشى الهوينى إلى المشرب، وأعد ثلاث كؤوس وإناءَ ثلجٍ فضيّاً وإبريقاً كبيراً، وراح يمزج المشروبات من زجاجات عديدة مختلفة.

. . . إلى فتاة وفية وعدت أن تنتظر –
إنّها عبادة شمس ولاية عباد الشمس

«رائع، أليس كذلك؟». التحق بنا لِني، وهو يحمل الكؤوس الثلاث. كانت عليها قطرات كبيرة كما لو أنّها من العرق، خشخشت مكعّبات الثلج

حين وزّعها علينا. ثم خفتت الموسيقى حتى توقفت، فتناهى صوت لِنِي وهو يعلن الأغنية التالية.

«لا شيء كإنصات المرء إلى حديث نفسه». حدق لِنِي فيّ، «لقد رحل فرانكي، يتوجب عليك أن تجدي شخصاً آخر، سأهاتف أحد الأصدقاء».

«لا بأس»، قلتُ. «لا حاجة لذلك». لم أشأ إخباره، مباشرة، أن يحضر شخصاً أطول من فرانكي.

ظهرت مشاعر الارتياح على لِنِي. «كما تشائين، لا أريد لصديقة دورين أن تتأذى». ثم لاحت على محيّاه ابتسامة بيضاء عريضة تجاه دورين. «هَل لِي، يا حلوتي؟». مد يده إلى دوريـن، ودون أن يتفوها بشيء راحا يتمايلان، وهما لا يبارحان كأسيهما.

جلست، واضعة ساقاً على أخرى، فوق أحد الأسرّة، محاولة أن أبدو رزينة وهادئة مثل رجال الأعمال الذين شاهدتهم، ذات مرّة، وهم يرقبون راقصة جزائريّة. وما إن أسندت ظهري إلى الحائط أسفل الأرنب المحنّط، حتى أخذ السرير بالتمدد في الغرفة، فجلست على جلد دبّ على الأرض، وأستندت، عوضاً عن ذلك، إلى السرير.

كانت كأسي نديّةً وباعثةً على الكآبة. وكلما ارتشفتها، صار مذاقها أقرب إلى مذاق ماء عذب يطفو فوق ماء مالح. كان قد ارتسم، في منتصف الكأس، وَهَقٌ قرنفليّ منقّطٌ بالأصفر. أخذت جرعة حتى أسفل الوهق، ثم انتظرت قليلاً، وحين هممت بجرعة أخرى، كان الشراب لا يزال في مستوى الوهق مرّة أخرى.

فجأة، دوى صوت لِنِي الشبحيّ، «آه، لَمَ تركتُ وايومنغ؟».

لم يكفّ الاثنان عن الرقص خلال فترات الاستراحة. شعرتُ كما لو أنّني أتضاءل إلى نقطة صغيرة سوداء على البُسُط الحمراء والبيضاء وألواح الصنوبر تلك. شعرتُ كما لو أنّني مجرّد ثقب في الأرض.

وثمة ما يشوش الحواس، حين يشاهد المرء شخصين يزدادان ولعاً وهياماً ببعضهما، خاصّة حينما تكون الشخصَ الوحيد الزائد في الغرفة.

يبدو الأمر مثل مشاهدة باريس من العربة الأخيرة لقطار سريع منطَلِق في الاتّجاه المعاكس— حيث تزداد المدينة صغراً، في كل لحظة، فينتابك شعور أنّك الذي يتناهي في الصغر حقّاً، فتغدو وحيداً تماماً، مندفعاً بعيداً عن كل تلك الأضواء، وتلك الإثارة، بسرعة مليون ميل في الساعة.

غالباً ما كان لِني ودورين يحتكان ببعضهما ويتبادلان القبل، ثم يتمايلان إلى الخلف لارتشاف جرعة كبيرة، ثم يلتصقان ببعضهما ثانية. خطر ببالي أن أتمدد على جلد الدبّ وأخلد للنوم حتى تشعر دورين بوجوب عودتها إلى الفندق.

ثم أطلق لِني صرخة مرعبةً. انتصبت جالسة في مكاني. كانت دورين تعض شحمة أُذن لِني اليسرى.

«اتركيني، أيّتها العاهرة!».

انحنى لِني، فطفقت دورين تشبُّ إلى كتفه، ثم طارت كأسها من يدها، في حركة قوسيّة طويلة واسعة، ثم ارتطمت بألواح الصنوبر برنين مضحك.

كان لِني لا يزال يصرخ، ويدور بسرعة، حتى بِت لا أرى وجه دورين. لاحظتُ، بالطريقة المعتادة التي تلاحظ فيها لون عينيّ شخص ما، أنّ

نهديّ دوريين قد اندفعا خارج فستانها، وكانا يتمايلان بخفّة مثل بطيختين بنيّتين كاملتين، وهي تدور على كتف لِني وبطنها إلى الأسفل، صارخة ومطوحة ساقيها في الهواء، ثم أخذا يضحكان ويخفّفان من حركتهما. كان لِني يحاول عض ورك دوريين من خلال تنورتها، حين مرقتُ من الباب قبل أن تستفحل الأمور، فتمكنتُ من هبوط السلالم، مستندة إلى الحاجز الحديديّ بكلتا يديّ، منزلقة عليه طيلة الطريق.

لم أدرك أن ثمة مكيّف هواء، في مكان إقامة لِني، حتى ترنّحت خارجة إلى الرصيف. صفعتني حرارة الأرصفة القويّة، التي امتصتها طيلة النهار، في وجهي مثل إساءة أخيرة. لم أستطع تحديد مكاني في العالم.

سرعان ما خطرت ببالي فكرة أن أستقل سيّارة أجرة إلى مكان الحفلة، لكنّني عدلت عن ذلك خشية أن يكون الرقص قد شارف على الانتهاء، ولم أشأ الانتهاء في قاعة رقص فارغة يتناثر في جنباتها نثار الورق الملون وأعقاب السجائر ومناديل كؤوس الشراب المُجعّدة.

مشيت بحذر إلى أقرب ناصية، ماسةً جدران البنايات، التي على يساري، بطرف إصبعي كي أحافظ على توازني. نظرت إلى لافتة الشارع. ثم أخرجت خريطة شوارع نيو يورك من محفظتي. كنت على بعد ثلاث وأربعين وحدة سكنيّة عن الفندق.

لم يكن المشي مصدر قلق بالنّسبة إليّ أبداً. انطلقت في الاتجاه الصحيح، أعد الوحدات السكنيّة بصوت خافت، وحين دخلت ردهة الفندق، كان تأثير الشراب قد زال، وكانت قدماي قد تورّمتا قليلاً. كان ذلك خطئي، لأنّني لم أرتد جوربي.

كانت الردهة خالية إلاّ من موظف الاستقبال الليليّ، الذي كان يغفو في حجيرته المضاءة، بين سلاسل المفاتيح والهواتف الصامتة.

تسللت بهدوء إلى المصعد ذي الخدمة الذاتيّة، وضغطت على زرّ الطابق الذي أنزل فيه. أطبق باب المصعد مثل أوكورديون صامت. ثم راحت أُذناي تتخذان شكلاً مضحكاً، لاحظتُ امرأة صينيّة ضخمة، مشوشة الرؤيا، تحدق فيّ بغباء. لم تكُن تلك المرأةُ إلاّي، من دون ريب. كنت مرتعبة لرؤية كيف بدا وَجهي مُجعّداً، وكيف بدوت خائرة القِوى تماماً.

لم يكُن أحدٌ في الممر سواي. دلفت إلى غرفتي. كانت مليئة بالدخان. اعتقدت، لأول وهلة، أنّ الدخان قد تَمَدى من الهواء الرقيق كنوع من القصاص، لكنّني تذكرت، حينئذ، أنّه كان دخان سيجارة دوريين، فضغطت على الزرّ الذي فتح منفذ التهوية. كانوا قد ثبّتوا النّوافذ بقوة حتى لا يستطيع المرء فتحها والانحناء خارجها، وهذا ما جعلني أتميّز غيظاً لسبب ما.

كنت أستطيع، حين أقف في الجهة اليسرى من النافذة، واضعة وجنتي على الإطار الخشبيّ، رؤيةَ قاع المدينة، حيث يتساوق مقرّ الأمم المتحدة في العتمة، كقرص عسلٍ مَرّيخيّ، غريب، أخضر. كنت أستطيع رؤية الأضواء الحمراء والبيضاء وهي تومض على طول الطريق، وأضواء الجسور التي لا أعرف أسماءها أيضاً.

أصابني الصمت بالكآبة. لم يكن صمتَ الصمتِ. كان صمتي أنا.

أدركت تماماً أنّ السيارات كانت تحدث ضجيجاً، وأنّ النّاس الذين بداخلها، والذين خلف نوافذ البنايات المضاءة، يحدثون ضجيجاً، وأنّ النهر كان يحدث ضجيجاً أيضاً ، لكنّي لم أسمع شيئاً. كانت المدينة معلقة بنافذتي،

منبسطة كمُلصق إعلانيّ، تلمعُ وتومضُ، ولعلها لم تكُن هناك أصلاً، رغم الأشياء الجيّدة التي أنعمت بها عليّ.

كان بإمكان الهاتف، الذي ببياض الخزف الصيني، القابع جانب السرير، أن يربطني بأشياء كثيرة— لكنّه ربض، هناك، أخرسَ، كرأس الموت. حاولت التفكير بالأشخاص الذين منحتهم رقم هاتفي، كي أستطيع إعداد قائمة بكل المكالمات التي قد أستقبلها، لكنّني لم أفكر إلاّ بوالدة بَدِي ويلارد التي منحتها الرقم لتسلمه بدورها إلى مترجم فوريّ تعرفه، يعمل في الأمم المتحدة.

فرّت من فمي ابتسامة صغيرة جافّة.

بوسعي تخيُّل أيّ نوع من الرجال هو هذا المترجم الفوريّ الذي ستقدمني إليه السيدة ويلارد، وهي التي طالما رغبت في أن تراني زوجة لِبَدِي الذي كان يعالج من داء السل في مكان ما بالضاحية العليا من ولاية نيو يورك. ناهيك عن أنّها كانت قد وضعت الترتيبات الضروريّة لأعمل نادلة في المصحة، في ذلك الصيف، كي لا يظل بَدِي وحيداً. لم تستطع السيدة ويلارد— ولا حتى بَدِي— إدراك لِمَ آثرتُ الذهاب إلى نيويورك.

بدت المرآة التي فوق منضدة الكتابة فضيّة تماماً وتشوه ملامحي قليلاً. بدا الوجه الذي فيها كانعكاس صورة في كرة زئبقيّة لطبيب أسنان. فكرت في الزحف بين ملاءات السرير، محاولة النّوم، غير أنّ ذلك لم يَرُق لي، وبدا كمثل حشو رسالة متسخة، مكتوبة بخط رديء، في مظروف جديد ونظيف. قرّرت أن آخذ حماماً ساخناً.

لا بُد أن ثمة أشياء لا يمكن لحمام ساخن أن يعالجها، لكنّني لا أعرف الكثير منها. فكلما شعرت بالحزن لمفارقة الحياة، أو حين أتوتر إذ يجافيني النوم، أو حين أعشق شخصاً ما ولا أتمكن من رؤيته لإسبوع بطوله، تجتاحني مشاعر الكآبة، ثم أقرّر أخذ حمام ساخن.

أتأمل في حوض الاستحمام. يجب أن يكون الماء ساخناً جداً حتى لا تستطيع احتمال وضع قدمك فيه. ثم تحني هامتك، شيئاً فشيئاً، حتى يصل الماء إلى عنقك.

أذكر السقف الذي يعلو حوض الاستحمام الذي كنت أتمدد فيه. أذكر بنية السقف والشقوق والألوان وبقع الرطوبة وأماكن الضوء الثابتة. وأذكر أحواض الاستحمام أيضاً: أحواض الاستحمام العتيقة ذات القوائم على شاكلة أرجل آلغرِفن[14]، والأحواض الحديثة التي على شاكلة توابيت، والأحواض المرمريّة الورديّة المزخرفة التي تُطل على برك داخليّة تغطيها الزنابق، وأذكر أشكال الحنفيّات وأحجامها، ومختلف أنواع مماسك الصابون.

لا أشعر بوجودي إلاّ عندما أكون في حوض ماءٍ ساخن.

تمددت في ذلك الحوض، في الطابق السابع عشر لهذا الفندق المخصص للنساء فقط، عالياً فوق صخب نيو يورك وموسيقى جازها، قرابة الساعة، فشعرت أنّي طاهرة من جديد. لا أومن بالتعميد، أو بماء نهر الأردن، أو بأيّ شيء من ذلك، لكنّني أشعر تجاه الحمام الساخن بذات الطريقة التي يشعر بها المتديّنون تجاه الماء المقدس.

قلتُ لنفسي: «إنّ دورين تتلاشى، وَلِني شيبرد يتلاشى، وفرانكي

14- الغرِفن Griffin: حيوان خرافيّ برأس نسر وجسم أسد. (المراجع).

يتلاشى، ونيو يورك تتلاشى، إنّهم يتلاشون جميعاً، وليس لأيّهم أهميّة تُذكَر. أنا لا أعرفهم، لم تسبق لي معرفتهم، وإنّني في غاية الطهارة. كل ذلك الشراب وتلك القبلات اللزجة التي رأيتها، وتلك القذارة التي حطت على جلدي، في طريق العودة، تستحيل شيئاً طاهراً».

بقدر ما أتمدد في الماء الساخن، بقدر ما أشعر بطهرانيّة أكثر، وحينما أغادر حوض الاستحمام وألفّ نفسي بمناشف الفندق البيضاء النّاعمة، أشعر بالطهارة والجمال كطفل وُلد للتو.

لا أذكر الوقتَ الذي استغرقته في النّوم، حين تنبهّت إلى صوت الطرق على الباب. لم أعر الأمر انتباهاً في البداية، لأنّ الطارق لم يتوقّف عن القول: «إِلي، إِلي، إِلي»، دعيني أدخل»، ولم أكن أعرف أيّ شخص يحمل ذلك الاسم. ثم علا صوتُ نوعٍ آخر من الطرق فوق ذلك الطرق الرتيب، طرق حاد، وصوت أكثر حدة قال: «آنسة غريينود، صديقتك في حاجة إليك»، فأدركت، حينئذ، أنّها دورين.

تأرجحت على قدميّ، ثم وازنت نفسي رغم الدوار الذي انتابني للحظة، وسط الغرفة المعتمة. شعرت بالغضب من دورين لأنّها أيقظتني. كانت فرصتي في الخروج من تلك الليلة الحزينة تُختزَل في نوم عميق، وكان أن أيقظتني وضيّعت عليّ تلك الفرصة. فكرت إن تظاهرت بالنوم فإنّ الطرق سيتلاشى، ويتركني أنعم بالطمأنينة، لكنّني انتظرت، ولم يتوقّف.

«إِلي، إِلي، إِلي»، تمتم الصّوت الأول، فيما واصل الصوت الثاني الهسهسةَ: «آنسة غريينوود، آنسة غريينود، آنسة غريينود»، كما لو أنّني أعاني من فصام الشخصيّة، أو شيء من هذا القبيل.

فتحت الباب، واسترقت نظرة عبر الرواق النيّر. خالجني شعور أنّ الوقت لم يكن ليلاً ولا حتى نهاراً، بل برزخاً ثالثاً، متوهجاً كالنار، قد انسل فجأة بينهما، ولن ينتهي أبداً.

تهالكت دورين على عِضادة الباب. وحين خرجت، وقعت بين ذراعيّ. لم أتمكن من رؤية وجهها لأنّ رأسها كان يتدلى على صدرها، وكان شعرها الأشقر الكثيف قد تساقط من منابته السوداء مثل هُدُبِ راقصي الهُولا.

أدركت أنّ المرأة القصيرة، المقرفصة، ذات الشاربين، في بزّتها السوداء، هي الخادمة الليليّة التي تكوي ثيابنا الصباحيّة وفساتين الحفلات في مهجع مزدحم في الطابق الذي ننزل فيه. عجزت عن إدراك كيف استطاعت أن تتعرّف على دورين، ولمَ رغبت في مساعدتها على إيقاظي من نومي بدلاً من أن تقودها، بهدوء، إلى غرفتها.

وحينما شاهدتِ المرأةُ دورين، وأنا أحملها بين ذراعيّ، ولا يقطع صمتها سوى صوت فُواقها، مشت بخطى واسعة عبر الرّواق إلى مهجعها حيث توجد ماكينة خياطة قديمة من نوع سِنغَر وطاولة الكَيّ البيضاء. رغبتُ في الركض خلفها وإخبارها أن لا علاقة لي بما حل بدورين، ذلك أنّها قد بدت عابسة، وجديّة، وأخلاقيّة، مثل مهاجرة أوروبيّة تقليديّة، ذكرتني بجدتي النمساويّة.

«دعيني أتمدد على الأرض، دعيني أتمدد على الأرض»، كانت دورين تغمغم. «دعيني أتمدد على الأرض، دعيني أتمدد على الأرض».

شعرتُ إن حملت دورين عبر العتبة إلى غرفتي وساعدتها في الوصول إلى سريري، فإنّني لن أتخلص منها، ثانيةً، إلى الأبد.

كان جسمها دافئاً وناعماً مثل كومة من الوسائد، وهي تستند إلى ذراعي، حيث مالت بكل ثقلها، تجرّ قدميها، بكعبيّ فردتيّ حذائها المدببين الطويلين، على نحو أخرق. كانت ثقيلة جدا، فلم أقدر أن أزحزحها على طول الرواق الطويل.

خلصت إلى أنّ الشيء الوحيد الذي يمكنني فعله هو تركها ملقاة على السجادة، وأن أغلق باب غرفتي بالمفتاح، وأذهب إلى السرير. وحين تستيقظ دورين، فلن تتذكر ما حدث، ظانّة أنّه قد أغمي عليها أمام باب غرفتي، فيما كنتُ نائمة، ثم ستنهض من تلقاء نفسها، عائدة إلى غرفتها، بكل تعقُّل وحكمة.

شرعت في إنزال دورين بلطف على سجادة الرواق الخضراء، لكنّها أصدرت أنيناً خافتاً، وانزلقت من بين ذراعيّ. فتدفّق من فمها قيء بنيّ، منتشراً في شكل بُريكة واسعة عند قدميّ.

فجأة، صارت دورين أكثر ثقلاً. تدلى رأسها إلى الأمام في البريكة، فابتلت خصلات شعرها الأشقر كجذور شجرة في مياة مستنقع، ثم أدركت أنّها كانت نائمة. تراجعتُ إلى الخلف، شاعرة بالنّوم وهو يثقل جفوني.

اتخذت قراراً بشأن دورين تلك الليلة. قرّرت أن أشاهدها، وأنصت لما كانت تقوله، لكنّني قرّرت ألاّ أرتبط بها نهائيّاً. كانت المشاعر التي تجتاحني عميقاً تدل على أنّني سأكون مخلصة لِبتسِي وصديقاتها البريئات. لقد كانت بِتسِي هي التي تشبهني إلى حد بعيد.

تسحبت، بهدوءٍ، إلى غرفتي، وأغلقت الباب. لكنّني حين فكرت في الأمر ثانية، لم أغلق البابَ بالمفتاح. لم أجد في نفسي الشجاعة الكافية للقيام

بذلك.

وحين استيقظت في حَرّ صباح اليوم التالي، ذلك الحَرّ المُضجِر الذي لا شمس فيه، ارتديت ملابسي ورششت وجهي بماء بارد، ثم وضعت شيئاً من أحمر الشفاه، وفتحت الباب على مهل. توقعت أن أرى جسد دورين ممدداً، هناك، في بركة القيء مثل بيّنة دامغة مُروعة على طبيعتي البغيضة.

لم يكن ثمة أحد في الرّواق. كانت السجادة قد انبسطت من طرف الرواق حتى آخره، نظيفة وخضراء تماماً، إلاّ من بقعة عشوائيّة قاتمة أمام باب غرفتي، كما لو أنّ شخصاً ما سكب، بمحض الصدفة، كوباً من الماء هناك، ثم جفّف الماء ثانية.

(3)

تراصّت، على مائدة الطعام الخاصّة بـ [مجلة] يوم السيدات، أنصاف من فاكهة الأڤوكادو التي يتراوح لونها ما بين الأصفر والأخضر، وقد حشيت بالمايونيز ولحم السلطعون، رفقة أطباق نادرة من لحم البقر المشويّ والدجاج البارد. وكان ثمة طبق زجاجيّ يُملأ، بين الحين والآخر، بالكاڤيار الأسود. لم يكن لديّ وقت لتناول طعام الإفطار في مطعم الفندق، في ذلك الصباح، باستثناء احتساء فنجان من القهوة الرديئة؛ قهوةٍ ذات طعم مُرّ اقشعرّ له أنفي، رغم أنّني كنت أتضور جوعاً.

لم يسبق لي، قبل مجيئي إلى نيويورك، أن تناولت طعامي في مطعم مناسب. فأنا لا أعتبر مطعم هاورد جونسِن، حيث أتناول البطاطس المقليّة وساندويتشات الجبن والمشروبات المثلجة، رفقة أشخاص كَبَدي ويلارد، مطعماً لائقاً. لست متأكدة من أسباب ذلك، إلاّ أنّني أحبّ الطعام أكثر من أيّ شيء آخر. وبصرف النظر عن مقدار الطعام الذي أتناوله، فإنّ وزني لا يزداد أبداً. باستثناء تلك الفترة التي حافظت فيها على وزني طيلة عشر سنين.

كانت أطباقي المفضلة مليئة بالزبدة والجبن والقشدة الحامضة. كنا نتناول، في نيويورك، عدة وجبات مجانيّة برفقة الأشخاص الذين يعملون في المجلة وعدد من الشخصيات الشهيرة التي كانت تقوم بزيارتنا، حتى صارت لديّ عادة تفحص قوائم الطعام المكتوبة بخط اليد، حيث يكون ثمن طبق صغير ثانويّ من البازلاء خمسين أو ستين سنتاً، حتى يقع اختياري على

الأطباق الأغنى، والأغلى ثمناً، ثم أطلب العديد منها.

دائماً ما كُنّا نذهب إلى تلك الأماكن التي يكون فيها الحساب مدفوعاً سلفاً، لذا لم يخامرني أيّ إحساس بالذنب قط. قرّرت تناول طعامي بسرعة، حتى لا أنتظر الأشخاص الآخرين، إذ عادة ما تقتصر طلباتهم على السلطة وعصير العنب لرغبتهم في إنقاص أوزانهم. كان، تقريباً، كل من ألتقيت به في نيويورك يحاول إنقاص وزنه.

«أود أن أرحب بأجمل مجموعة من سيدات شابات حظينا باستقبالهن اليوم»، أعلن عريف الحفل البدين الأصلع، وهو يتنفس بصعوبة في المايكروفون المغروس في طيّة سترته. ثم تابع: «إنّ هذه المأدبة مجرد مثال بسيط على الحفاوة التي يرغب طهاتنا تقديمها إليكنّ، عبر تلك الأطباق التجريبيّة التي أعدوها خصيصاً ليوم السيدات هذا، تقديراً لزيارتكنّ».

علا صوت تصفيق السيدات الناعم، ثم جلس الجميع حول المائدة الهائلة، المكسوة بثوب كتانيّ متهدل.

كنّا إحدى عشرة فتاة من المجلة، إضافة إلى أغلب المحرّرين المشرفين، وجميع أفراد الطاقم الذي أعد لنا الطعام، بهذه المناسبة، وقد ارتدين ثياباً فضفاضة ناصعة البياض، واعتمرن قبّعات مخرّمة فوق شعورهنّ، ووضعن مكياجاً، بلا عيوب، يتماشى مع لون بزّاتهن التي بلون حلوى الخوخ.

لم نكن سوى إحدى عشرة فتاة، ذاك أنّ دورين تغيّبت عن الحفل. كانوا– لسبب أجهله– قد أفردوا لها مكاناً إلى جانبي، غير أنّ الكرسيّ ظل شاغراً. تناولت البطاقة الموضوعة قبالتها، واحتفظت بها؛ كانت عبارة عن مرآة جيب ارتسم اسم دورين في أعلاها بحروف طباعيّة مخرّمة، وعقد من

أزهار الربيع المُجلَدة حول الحافّة، ليؤطر الموضع الفضيّ الذي وضعت فيه صورة وجه دورين.

كانت دورين تقضي اليوم برفقة لِني شيبرد. باتت تقضي معظم أوقاتها فراغها مع لِني شيبرد.

قبل ساعة من موعد غداء يوم السيدات— وهي مجلة صخمة مكرّسة للنساء، تنشر إعلانات ملونة تتناول مختلف الأطعمة، على صفحتين مزدوجتين يتغيّر مكانهما، في كل شهر— ذهبنا في جولة بين أرجاء المطابخ الزجاجيّة اللانهائيّة، فلاحظنا مدى صعوبة تصوير حلوى التفاح، بما يتواءم مع الموضة، تحت الأضواء الساطعة، بسبب ذوبان البوظة المتواصل، مما توجب دعمها من الخلف بأعواد الأسنان، وتغييرها كلما بدت رخوة جداً.

كان منظر الطعام المكدس في تلك المطابخ يصيبني بالدوار. ليس لأنّه لم يكن لدينا ما يكفي من الطعام في المنزل، ولكن، فقط، لأنّ جدتي كانت تحرص، دائماً، على طهي وجبات مقتصدة من شرائح اللحم، ووجبات مقتصدة من أرغفة اللحم، دائبة على القول ما إن يرفع الواحد منا اللقمة إلى فمه: «آمل أن تستمتعوا بهذا الطعام، لقد كلفّني الرّطل الواحد خمسة وأربعين سنتاً»، مما يجعلني أشعر كأنّني أتناول قطع النقود، على نحو ما، بدل اللحم المشويّ أيّام الأحد.

وفيما كنّا نقف خلف مقاعدنا، مستمعين إلى كلمات الترحيب، أحنيتُ رأسي، وحددت— خلسة— موقع أطباق الكافيار. ثمة طبق يقبع، على نحو استراتيجيّ، بين مقعد دورين الشاغر وبيني.

خمنت أنّ الفتاة التي تجلس قبالتي لا تستطيع الوصول إليه نظراً

لصحن المرزبانيّة الضخم الذي يتوسط المائدة، ولأنّ بِتسِي، التي عن يميني، لن تشاركني الطبق حين أضعه جانباً عند مرفقي، قرب طبق الخبز والمربّى. ناهيك عن وجود طبق آخر من الكافيار عن يمين تلك الفتاة الجالسة قرب بِتسِي، والتي يمكنها– إن شاءت– أن تأكل منه.

كانت تربطني بجدي دعابة دائمة. كان كبير الندلاء بناد ريفيّ، قرب مسقط رأسي، وكانت جدتي تقود سيارتها، كل أحد، لتقله إلى البيت لقضاء إجازته، التي تصادف يوم الاثنين. كنّا نتناوب— أخي وأنا— على الذهاب معها، وكان جدي يقدم لها (ولمن تواجد منّا) العشاء، في كل ليلة أحد، كما لو كنّا من ضيوف النادي المنتظمين. كان يحبّ أن يعرّفني على ألوان الطعام الشهيّة الخاصة، وحينما بلغت التاسعة، صرت أتلذذ بتذوق حساء الڤِشِيسوَاز البارد والكافيار وعجينة الآنشوڤي.

كانت الدعابة تقول إنّ جدي سيتكفّل، خلال حفل زفافي، بإحضار كل الكافيار الذي يمكنني أكله. كان ذلك مجرّد دعابة لأنني لم أرغب في الزواج أبداً، وحتى لو كنت قد نويت ذلك، فإنّ جدي لن يتمكن من توفير كل الكافيار اللازم إلاّ إذا قام بسرقة مطبخ النادي الريفيّ، وحمله في حقيبة ما.

هكذا، وفي غمرة صلصلة أقداح الماء والأواني الفضيّة والأطباق الخزفيّة الفاخرة، وضعت شرائح دجاج في قاع الطبق. غطيت قطع الدجاج بطبقة سميكة من الكافيار كما لو أدهن قطعة خبز بزبدة الفول السوداني. ثم أخذت التقط قطع الدجاج بأصابعي، الواحدة تلو الأخرى، وأمددها كي لا يندلق الكافيار، ثم أكلتها.

اكتشفت— بعد طُول الخوف الذي استبد بي بشأن نوع الملاعق التي

يتوجب عليّ استعمالها– أنّ المرء إن أساء التصرف، بغطرسة، على المائدة، كما لو أنّه يدرك جيداً أنّ ذلك هو التصرف اللائق، فلن يفطن أحد إلى ما يقوم به، أو يعتقد أنّه يفتقر إلى اللياقة، أو أنّه قد نشأ نشأة غير سليمة. بل، على العكس، سيظنّون أن ذلك ينم عن روح الأصالة والذكاء.

لقد فطنتُ إلى هذه الحيلة يومَ ذهبت، رفقة جاي سِي، لتناول طعام الغداء مع شاعر مشهور. كان الشاعر يرتدي بنطالاً رمادياً وقميصاً صوفيّاً، مفتوحاً عند العنق، تتخلله خطوط يتدرج لونها بين الأحمر والأزرق، في مطعم تطغى عليه الرسميّات، وتزخر جنباته بالنوافير والثريات. كان الرجال الآخرون يرتدون بزّات سوداء وقمصاناً ناصعة البياض.

كان الشاعر يتناول السلطة بأصابعه، ورقة خُضرة إثر أخرى، فيما يتحدث إليّ عن التناقض بين الطبيعة والفن. لم أستطع رفع ناظريّ عن الأصابع البيضاء القصيرة الشاحبة، وهي تتنقل، جيئة وذهاباً، بين صحن السلطة وفم الشاعر، بورقة خس تقطر إثر ورقة أخرى. لم يقهقه أحد من الذين كانوا يجلسون بالجوار، أو يهمس بتعليقات جارحة. جعل الشاعر من تناول السلطة بأصابعه الشيءَ الطبيعيّ والمنطقيّ الوحيد الذي يمكنه القيام به.

لم يجلس أحد من أعضاء هيئة تحرير مجلتنا، أو من طاقم عمل يوم السيدات، إلى جانبي. كما كانت بِتسِي رقيقة وَودودة، فلم تُبد أيّ ميل تجاه الكافيار، مما زاد ثقتي بنفسي أكثر وأكثر. حينما أتيت على الصحن الأول المكون من الدجاج البارد والكافيار، عبأت صحناً آخر، ثم تناولت سلطة الأفوكادو ولحم السلطعون.

إنّ الأفوكادو فاكهتي المفضلة. كان جدي يحمل لي كل يوم أحد قطعة

مخبأة في جوف حقيبته اليدويّة، أسفل مجلته الهزليّة وستة قمصان متسخة. كان يعلمني كيفيّةَ تناول الأفوكادو بإذابة مربّى العنب والقشدة الفرنسيّة معاً في قدر صغير وحشو جوف الكمثرى بصلصة ذات لون كالعقيق الأحمر. كم أشتاق إلى تلك الصلصة. بدا طعم لحم السلطعون مستساغاً قياساً بتلك الصلصة.

«كيف كان معرض الفرو؟»، سألت بِتسِي، حين زال قلقي بشأن المنافسة على الكافيار، ساحبة آخر بيضات سوداء مملحة من الصّحن بواسطة ملعقة الحساء التي لعقتها حتى بدت نظيفة مشعّة.

«كان رائعاً»، ابتسمت بِتسِي. «عرضوا أمامنا كيفيّة صنع وشاح يصلح لجميع المناسبات انطلاقاً من أذيال المِنك وسلاسل ذهبيّة، تلك السلاسل التي يمكن للمرء أن يبتاع مثيلاً لها من محل وُولـوُورث مقابل دولار واحد وثمانية وتسعين سنتاً. كانت هيلدا قد توجهت مباشرة إلى متجر يبيع الفرو بالجملة واشترت مجموعة من أذيال المنك، بعد أن حصلت على تخفيض كبير في الأسعار، ومن ثَم توجهت إلى محل وولوورث، ثم عقدت الأشياء مع بعضها بعضاً وهي على متن الحافلة.

رفعت نظري إلى هيلدا التي كانت تجلس في الجهة الأخرى من بِتسِي. لا ريب أنّها كانت ترتدي وشاحاً يبدو باهظ الثمن مصنوعاً من أذناب الفرو التي تشدها سلسلة مذهّبة تتأرجح من جانب لآخر.

في الواقع، كانت هيلدا لغزاً محيّراً بالنسبة إليّ. كانت قامتها تصل إلى ستة أقدام، ذات عينين خضراوين كبيرتين مائلتين، وشفتين حمراوين غليظتين، وأسلوب تعبير سلافيّ عقيم. كانت تصنع القبعات. ثم التحقت بالمجموعة

لتشتغل تحت إشراف محررة الموضة، فتميزت عن الأخريات من ذوات الميول الأدبيّة كدوريين وبتسي وأنا، حيث كنّا نكتب مواضيع متخصصة، حتى ولو كانت تلك المواضيع تتعلق بالصحة والجمال. لا أعلم إن كانت هيلدا تعرف القراءة، لكنّها كانت تصنع قبّعات رائعة. كانت قد التحقت بمدرسة متخصصة بصناعة القبعات في نيو يورك، وكانت تعتمر كل يوم قبّعة جديدة وهي ذاهبة إلى العمل، قبّعة تصنعها بيديها من بقايا القش، أو الفرو، أو من نسيج شفّاف، بألوان غريبة دقيقة.

«هذا رائع»، قلتُ. «رائع». اشتقتُ إلى دوريين. لو كانت هنا، لهمست بتعليقات ساخرة رائعة حول قطعة الفرو الرائعة التي ترتديها هيلدا لكي تزيح عن صدري هذا الأسى الجاثم عليه.

شعرت بالحزن. كانت جاي سي قد واجهتني بحقيقة نفسي في ذلك الصباح، فأحسست أنّ كل تلك الشكوك المؤرّقة التي كانت تحوم حولي قد استحالت أمراً واقعاً، ولا يمكنني مداراتها لفترة أطول. فبعد تسع عشرة سنة من اللهاث وراء العلامات المدرسيّة الجيّدة والجوائز والمنح من هذا النوع أو ذاك، أتخلى عن كل شيء، يجتاحني الضجر، منسحبة من السباق.

« لِمَ لم تذهبي معنا إلى معرض الفرو؟»، سألت بِتسِي. تولد لديّ انطباع أنّها كانت تكرّر نفسها، وأنّها طرحت السؤال ذاته منذ قليل، لكنّني كنت مشغولة البال. «هل ذهبت مع دوريين؟»

«كلاّ»، قلتُ، «أردت الذهاب إلى معرض الفرو، غير أنّ جاي سِي هاتفتني، طالبة أن أحضر إلى المكتب». لم أكن صادقة بشأن الذهاب إلى معرض الفرو، غير أنّني حاولت إقناع نفسي أنّه كان كذلك، حتى أستطيع احتمال ما

فعلته جاي سِي.

أخبرت بِتسي كيف كنت ممدة في السرير، في ذلك الصباح، وأنا عازمة على الذهاب إلى معرض الفرو. لم أخبرها أنّ دوريين قدمت إلى غرفتي قبل ذلك، ثم قالت: «لِمَ تريدين الذهاب إلى ذلك المعرض الحقير. سأذهب مع لِنِي إلى كُونِي آيلاند، فلمَ لا تنضمين إلينا؟ يستطيع لِنِي الطلب من أحد الأشخاص اللطيفين أن يرافقك، سيبدو النهار في غاية الضجر، على أيّة حال، جرّاء حفل الغداء والفيلم الذي سيعرض في الظهيرة، لن يلاحظوا غيابنا.

كدت أن أستجيب لرغبتها. فقد بدا العرض رتيباً. كما أنّني لم أهتم بالفرو قط. ما عزمت على القيام به، في آخر المطاف، هو التمدد في السرير قدر ما أشاء، ومن ثم الذهاب إلى سنترال بارك، وقضاء اليوم برمته ممدة في العشب، في أطول عشب يمكن أن أجده في تلك الفيافي الموحشة ذات البرك الضحلة المملوءة بطاً.

لم أدر كم الساعة حينئذ، لكنّني سمعت الفتيات وهنّ يستعجلن وينادين على بعضهنّ في الرواق، ويتأهبن للذهاب إلى معرض الفرو. ثم رانت سكينة، وفيما أنا مستلقية على ظهري في السرير، أحدق في السقف الأبيض الفارغ، بدأ الصمت يكتسح الفضاء، أكثر فأكثر، حتى كادت طبلتا أذنيّ أن تنفجرا تحت وطأته. ثم رنّ الهاتف.

حدقت فيه لحظةً. تحركت السماعة قليلاً في مهدها الذي بلون العظم، فكان ذلك مؤشراً على أنّ الهاتف يرنّ فعلاً. فكرت أنّني ربّما أعطيت رقم هاتفي إلى شخص ما في إحدى الحفلات الراقصة ثم نسيت الأمر. رفعتُ السماعة وقلت بصوت أجش:

«مرحباً؟»

«أنا جاي سِي»، قالت بتحفّز قاس. «أتساءل إن خطر ببالك الذهاب إلى المكتب اليوم؟».

غرقت في الملاءات. لم أستطع إدراك لِمَ ظنّت جاي سِي أنّني قد أذهب إلى المكتب. كانت لدينا بطاقات منسوخة بجداول أعمالنا حتى نستطيع معرفة الأنشطة التي يتوجب علينا القيام بها، حيث كنّا نقضي صباحات وظهيرات عديدة بعيداً عن المكتب لحضور بعض الأنشطة في البلدة. ومما لا شك فيه أنّ بعض تلك الأنشطة كان اختياريّاً.

ترددتُ. ثم قلت بخنوع: «فكرت بالذهاب إلى معرض الفرو». في الواقع، لم أفكر بشيء من ذلك القبيل، لكنّني لم أعرف ماذا أقول.

«قلتُ لها أنّني فكرت بالذهاب إلى معرض الفرو»، قلتُ لِبتسي. «لكنّها طلبت منّي أن أذهب إلى المكتب، فقد رغبت في التحدث إليّ قليلاً، وأنّ هنالك بعض الأعمال التي يتوجب إنجازها».

«آه، آهْ!»، قالت بِتسي بتعاطف. لا بُد أنّها لمحت الدموع التي سقطت في طبق التّحلية المكون من المَرَنغ وبوظة البراندي، ذاك أنّها كانت قد مرّرت إليّ طبقها الذي لم تلمسه بعد، فرحت ألتهمه، شاردةَ الذهن، بعد أن فرغت من طبقي. شعرت بالحرج من دموعي، لكنّها كانت حقيقيّة على نحو يكفي. لقد أخبرتني جاي سِي بأشياء رهيبة.

وحين هممت بالدخول إلى المكتب حوالي الساعة التاسعة، وقفت جاي سِي ثم درات من حول مكتبها وأغلقت الباب. جلست في الكرسيّ الدوار الذي أمام طاولة آلتي الطابعة التي تواجهها، فيما جلست هي في

الكرسيّ الدوار الذي خلف مكتبها الذي يواجهني، بنافذته الطافحة بنباتات في أُصص، رفّاً إثر رفّ، طافرة خلف ظهرها مثل حديقة استوائيّة.

«ألا يعنيك عملك، يا إستِر Estert؟»

«أوه، بل يعنيني، يعنيني»، قلتُ. «إنّه يعنيني بشدة». شعرت كما لو أنّني أصرخُ الكلمات، كما لو أنّ ذلك يجعلها أكثر إقناعاً، لكنّني سيطرت على نفسي.

لطالما أخبرت نفسي أنّ الدراسة والقراءة والكتابة والعمل كمجنونة هو كل ما رغبت فيه، وبدا ذلك كأنّه أمرٌ واقع، أنجزت كل شيء على نحو جيّد فحصلت على علامات كاملة، وحين كنت على مشارف الالتحاق بالجامعة لم يكن ثمة من يوقفني.

كنت المراسلة الجامعيّة لصحيفة البلدة، [صحيفة] غَازِيت، ومحرّرة المجلة الأدبيّة وسكرتيرة المجلس الشرفي، وهو مجلس شعبيّ يتعامل مع الانتهاكات الاجتماعيّة والأكاديمية والعقوبات التي تُفرَض جرّاء ذلك. كنت أعرف شاعرة معروفة وأستاذة في هيئة التدريس، تؤازرني لأتخرّج من كبريات جامعات الشرق [الأميركيّ]، ووعود بالحصول على منحة كاملة. أتمرّن الآن لدى أفضل محررة في مجلة أزياء مُثقَّفة، وكنت مثل حصان كسول يجرّ عربة بدولابين.

«إنّني مهتمة بكل الأشياء»، هوت الكلمات من الفراغ العميق إلى مكتب جاي سِي، مثل قطع نقديّة خشبيّة كثيرة.

«يسرّني ذلك»، قالت جاي سِي على نحو نَزِق. «تستطيعين تعلُم الكثير حول المجلة خلال هذا الشهر إن شمرت عن ساعديك. لم تكترث الفتاة

التي كانت هنا قبلك بعروض الأزياء. انتقلت من هذا المكتب للعمل في مجلة تَايم مباشرة».

«يا إلهي!» قلتُ بذات النبرة الكئيبة. «كان ذلك سريعاً!».

«بالطبع، ما زال أمامك سنة حتى تلتحقي بالجامعة»، واصلت جاي سِي كلامها على نحو ودود. «ماذا ستفعلين بعد التخرّج؟».

كان الحصول على منحة للتخرُّج، أو منحة للدراسة في أوروبّا، هو الأمر الذي يشغل بالي دوماً. فكرت أن أصبح أستاذة جامعية واكتب دواوين قصائد وأكون محررة من طراز ما. كانت تلك المخططات على طرف لساني عادةً.

«لا أعرف تماماً»، سمعتُنِي أقولُ. شعرت بهزّة عميقة وأنا أسمع نفسي تقول ذلك، فقد كان الأمر حقيقيّاً حين تلفّظتُ بتلك الكلمات.

بدا الأمر حقيقيّاً– فأدركت ذلك– مثلما تتعرّف على شخص غريب كان يتسكع حول باب بيتك لسنين طويلة، ثم يأتي، فجأة، ويقدم نفسه على أنّه والدك الحقيقيّ وتكون له نفس ملامحك تماماً. هكذا تعرف أنّه والدك الحقيقيّ فعلاً، وأنّ الشخص الذي اعتقدت، طيلة حياتك، أنه والدك هو شخص دجال.

«لا أعرف تماماً».

«لن تحصلي على مرادك بهذه الطريقة». صمتت جاي سِي. «ما اللغات التي تتكلمينها؟»

«آه، أعتقد أنّي أعرف بعض الفرنسيّة، ولطالما رغبت في تعلم الألمانيّة».

لنحو خمس سنين وأنا أخبر الناس برغبتي في تعلم الألمانيّة.

كانت أمي تتكلم الألمانية وهي طفلة في أميركا، وبسبب ذلك رشقها أطفال المدرسة بالحجارة خلال الحرب العالمية الأولى. أما أبي، الذي مات وأنا في التاسعة، فقد قدم من قرية صغيرة، تورث الكآبة، تقع في قلب بروسيا الأسود. وكان أخي الأصغر قد التحق، في تلك الأثناء، بتجربة التعايش العالميّ في برلين، ويتكلم الألمانيّة مثل أهلها.

كان الشيء الذي لم أقله هو أنّني حين ألتقط قاموساً أو كتاباً ألمانيّاً، فإنّ تلك الحروف الكثيفة السوداء، والتي تبدو مثل أسلاك شائكة، تجعل عقلي ينغلق مثل بطلينوس

«لطالما فكرت بالعمل في حقل النشر». حاولت استرجاع الخيط الذي قد يقودني إلى مهارتي القديمة في فنّ البيع. « أعتقد أنّ الشيء الوحيد الذي يتوجب عليّ فعله هو التقدُم للالتحاق بإحدى دور النشر».

«يتوجب عليك قراءة الفرنسيّة والألمانيّة»، قالت جاي سِي من دون شفقة، «وربّما بعض اللغات الأخرى أيضاً، الإسبانيّة والإيطاليّة— ومن الأفضل تعلم الروسيّة أيضاً. تتدفق مئات الفتيات على نيويورك، في شهر حزيران، معتقدات أنّهن سوف يصبحن محررات. ينبغي عليك أن لا تكوني تافهة. من الأفضل أن تتعلمي بعض اللغات».

لم أجرؤ على إخبار جاي سِي أنّ جدول أعمالي مزدحم ولا مكان فيه لتعلم اللغات. كنت التحقت بأحد البرامج الشرفيّة التي تعلمك التفكير باستقلاليّة، وأتوقّع الالتحاق بمساق يبحث في أعمال تولستوي ودوستويفكسي، وحلقة دراسيّة حول الأساليب المتقدمة في كتابة الشعر، علاوة على أنّني سأكون منهمكة في كتابة حول بعض الثيمات الغامضة في

أعمال جيمس جويس. لم أختر المواضيع التي سأكتب عنها، لأنّني لم أقرأ Finnegans Wake[15] بعد، لكنّ أستاذي كان متحمساً لأطروحتي، فوعد أن يزودني ببعض ما يقودني إلى فهم الصور المتعلقة بالتوأم[16].

«سأرى ما يمكنني فعله»، أخبرت جاي سِي. «ربّما سألتحق بتلك الدروس المكثفة لتعلم مبادئ الألمانيّة». فكرت، في تلك الأثناء، بفعل ذلك. كانت لديّ طريقتي الخاصّة في اقناع العميدة بالسماح لي أن أقوم بأشياء غير نظاميّة. فلطالما اعتبرتني نوعاً من تجربة شيّقة.

في الكلية، توجب عليّ دراسة الفيزياء والكيمياء. كنت قد أنهيت

15- نتفق مع الدكتور طه محمود طه في إشارته إلى أنّ ترجمة Finnegans Wake إلى العربيّة يفقدها إيحاءاتها المختلفة. يقول: «لقد كلفه هذا العنوان جهداً كبيراً وأحاطه جويس، عند صدورها مسلسلة، بسريّة شديدة. وفي عنوان القصة نلاحظ أول ما نلاحظ، اختفاء علامة الإضافة أو الملكيّة وهي الشولة apostrophe التي تسبق حرف S وتعلوه في أول كلمة من العنوان. ولهذا لا نستطيع أن نترجم العنوان في كلمتين- مضاف ومضاف إليه- كما في مأتم أو يقظة فينيجان. لقد تعمد جويس حذف علامة الإضافة لكي يتضمن العنوان مأتم فينيجان (مفرد) وآل فينيجان (جمع) أو مأتم وبعث فينيجان وآل فينيجان في آن واحد عن طريق شطر كلمة Finnegans على النّحو التالي: Finn-again: وكان «فين Finn» أحد الأبطال الأسطوريين في الأدب الأيرلندي وعلى هذا يصبح عنوان القصّة «بعث البطل فين مرّة أخرى». و Finn-again: وتعني بالفرنسيّة والإنجليزيّة «النهاية» مرّة أخرى أو التاريخ يعيد نفسه وفي النهاية تكمن البداية. هذا بالإضافة إلى الإشارة إلى أغنية شعبيّة تحكي قصّة مأتم البنّاء فينيجان». (المُراجع— أنظر «موسوعة جيمس جويس للدكتور طه محمود طه، ص 2 من المقدمة).

16- إشارة إلى شِم Shem وَشُون Shaun، ابنيّ همفري إيروِكَر، بطل Finnegans Wake، وزوجته آنا. (المراجع).

مساقاً في علم النبات وأبليت فيه بلاء حسناً. أجبت على كل أسئلة الامتحانات بطريقة صحيحة طيلة سنة كاملة، فخطر ببالي أن أصبح عالمة نبات، وأن أدرس الأعشاب البريّة في أفريقيا أو في الغابات المطريّة بجنوب أميركا، فبإمكان المرء أن يحصل على منح كبيرة لدراسة الأشياء الغريبة الأطوار، مثل تلك التي في المناطق الغريبة، على نحو أكثر سهولة من الحصول على منح لدراسة الفنون في إيطاليا أو الإنجليزيّة في إنجلترا؛ فلا منافسة كبيرة تذكر.

كانت دراسة علم النبات رائعة، لأنّني أحببت قطع الأوراق ووضعها تحت المجهر. كانت الرسومات التخطيطية للعفن، والورقة التي بشكل القلب في دورة السرخس الجنسيّة، تبدو حقيقيّة بالنسبة إليّ.

وكان اليوم الذي ذهبت فيه إلى درس الفيزياء يوماً كأنّه الموت.

وقف رجل قصير أسود، يلثغ بصوت عالٍ، يدعى السيد مانزِي، أمام الصف، مرتدياً بزّة زرقاء ضيّقة، حاملاً كرة خشبيّة صغيرة. وضع الكرة على مُنزَلَق مُثلَم حاد، تاركاً إيّاها تنزلق إلى القاع. ثم أخذ يتحدث عن أنّ «أ» تساوي التسارُع و «ت» تساوي الزمن، ثم فجأة راح يخربش على الصبّورة أحرفاً وأرقاماً ومعادلات متماثلة، فكفّ عقلي عن التفكير.

أخذت كتاب الفيزياء إلى مهجع نومي. كان كتاباً ضخماً منسوخاً على ورق شفّاف– أربعمائة صفحة بلا صور أو رسوم، بل معادلات ورسومات تخطيطيّة– بين دفتيّ غلاف من كرتون مقوى بلون القرميد الأحمر. كان السيد مانزي قد ألف الكتاب ليشرح الفيزياء لبنات الكليّة، وإن نجح الأمر معنا فإنّه سيعمد إلى نشره.

حسناً، لقد درست تلك المعادلات، وذهبت إلى قاعة الدرس وشاهدت

الكرات وهي تنزلق على المنزلقات، وأنصت إلى الأجراس وهي تُقرَع في نهاية الفصل الذي أخفقت فيه معظم الفتيات، فيما حصلتُ على علامة كاملة. سمعتُ السيّد مانزي يقول لزمرة من اللواتي كُنّ يتذمرن من صعوبة الدروس، «كلاّ، لا يمكن أن تكون بتلك الصّعوبة، فقد حصلت إحداكنّ على علامة كاملة». «مَن؟»، أخبرنا، قُلن. لكنّه هزّ رأسه، ولم ينبس ببنت شفة، مكتفياً بتوجيه ابتسامة عذبة متواطئة نحوي.

كان ذلك ما جعلني أفكر في عدم الالتحاق بفصل الكيمياء التالي. قد أكون حصلت على علامة كاملة في الفيزياء، لكنّني كنت فزعة جداً. جعلتني الفيزياء أشمئزّ من الأرقام. فعوضاً عن أشكال أوراق النبات والرسومات التخطيطيّة المضخمة لثقوبها التي تتنفّس من خلالها، والكلمات الساحرة، مثل الكَارُوتِين وَاليَصفُور، التي ترتسم على الصبّورة، كانت تلك المعادلات البشعة، العصيّة على القراءة، والتي أحرفها تشبه العقارب، التي يخطها السيد مانزي بطبشورته الخاصة الحمراء.

أدركت أنّ الكيمياء ستكون أسوأ، حيث رأيت جدولاً بيانيّاً من تسعين عنصراً غريباً معلقاً في مختبر الكيمياء. كانت كل الكلمات الرائعة، كالذهب والفضة والكوبالت والألمنيوم، مختصَرةً بصيغ بشعة متبوعة بأرقام عشريّة. سأُجنّ إن حشوت دماغي بمزيد من ذلك الهراء. سأخفق فوراً. ولقد بذلت جهداً رهيباً لأحمل نفسي على احتمال نصف السنة الأولى.

وهكذا، ذهبت إلى العميدة حاملة معي خطة ذكيّة.

كانت خطتي تتلخص في حاجتي إلى الوقت لألتحق بحلقة دراسيّة حول شكسبير، لا سيّما وأنّني، رغم كل شيء، أدرس الإنجليزيّة اختصاصاً.

كانت تعرفُ، مثلي تماماً، أنّني سوف أحصل على علامة كاملة، مرّة أخرى، في الكيمياء، فما جدوى تجشم عناء الامتحانات؛ لماذا لا أذهب إلى قاعات الدرس، وأنظر، مدونة كل شيء، ثم أنسى أمر العلامات والتقدير؟. كانت مسألة شرف بين الناس الجديرين بالاحترام، وأنّ الجوهر يعني أكثر من المظهَر، وأنّ العلامات تبدو سخيفة على أيّة حال حين تحصل على علامة كاملة دوماً، أليست كذلك؟ وكانت حقيقةُ إلغاء الجامعة العلومَ المُقرّرة، للسنة الثانية، قد عزّزت من خطتي، فكان صفّي آخر صفّ يرزح تحت وطأة الأنظمة القديمة.

كان السيد مانزي قد وافق على خطتي تماماً. أظنّه شعر بالزّهو لاستمتاعي بدروسه، لدرجة أنّني أقبلت عليها من دون أيّة دوافع ماديّة، كالحصول على علامة كاملة، بل لجمال الكيمياء في حد ذاته. أظنُّني كنت بارعة حين اقترحت الالتحاق بدرس الكيمياء حتى بعد التحوُل إلى الحلقة الدراسيّة التي تتناول أعمال شكسبير. كان من غير اللائق أن أظهر لهم سأمي من الكيمياء.

بالطبع، لم أكُن لأنجح في هذا المخطط لو لم أحصل على علامة كاملة في المقام الأول؛ ولو عرفت العميدة كم كنتُ مرتعبة ومحبطة، وكيف فكرت بجدية بتلك العلاجات اليائسة، كالحصول على شهادة في الطب، رغم أنّني لا أطيق دراسة الكيمياء. تصيبني المعادلات بالدوار، وإنّني على يقين أنّها لن تستمع لي أبداً، سترغمني على الالتحاق بالدرس، رغم كل شيء.

وصادف أن وافقت هيئة التدريس على التماسي، أخبرتني العميدة لاحقاً أنّ طلبي أثار مشاعر عدة أساتذة، فاعتبروه خطوة حقيقيّة إلى النضج الفكريّ.

كنت أضحك حين أفكر فيما تبقّى من تلك السنة. ذهبت إلى درس

الكيمياء خمس مرّات في الأسبوع ولم أتخلف عن حصّة واحدة. وقف السيّد مانزي في مدرّج كبير متداعٍ، صانعاً ألسنة لهب زرقاء وأنواراً ساطعة حمراء وسحابات من مادة صفراء، بسكب محتويات أحد أنابيب الاختبارات في آخر. حِلتُ دون وصول صوته إلى أذنيّ، متظاهرة أنّه ليس سوى بعوضة في المسافة، فجلست في الخلف مستمتعة بالأضواء البرّاقة والنيران الملونة، وكتبت ورقة إثر ورقة من السونيتات والقصائد ثنائيّة التقفية.

كان السيّد مانزي يرمقني، بين حين وآخر، ويشاهدني وأنا أكتب، فيرسل نحوي ابتسامةَ تقدير، عذبة صغيرة. كان يظنُّني أدون كل تلك المعادلات— ليس لأجل الامتحان، مثل الأخريات، بل لأنّ طريقته في الشرح قد سحرتني حتى بِتُ لا أقوى عليها.

(4)

لا أعلم السبب الذي دفعني إلى التفكير بهروبي الموفق من دروس الكيمياء وأنا في مكتب جاي سِي.

كان السيد مانزي، أثناء حديث جَاي سِي، يتطاول منتصباً في الهواء خلف رأسها، كما لو استُحضِر للتو من جوف قبّعة، ماسكاً بين يديه كرته الخشبيّة الصغيرة ودورق التجارب الذي كان يُرسل في الهواء سحابةً رفيعة من دخان أصفر كالذي ينطلق قبيل احتفالات أعياد الفصح. كان ينشر في الهواء رائحة البيض العفن، فيما ينخرط، وباقي البنات، في ضحك مجلجل.

شعرتُ بالحزن تجاه السيد مانزي. انتابتني رغبة في الزحف إليه على يديّ والاعتذار له عن تظاهري بالصدق أمامه.

ناولتني جاي سِي رزمة من مخطوطاتِ قصص قصيرة، ثم راحت تتحدث إليّ بطيبة أكبر. قضيت ما تبقّى من الصباح في قراءة القصص، وطباعة ما راودني بشأنها على صفحات مذكرات المكتب الورديّ، ثم أرسلتها إلى مكتب المحررة الذي تتواجد فيه بِتسِي لتقرأها في اليوم التالي. كانت جاي سِي تقاطعني، بين حين وآخر، لتخبرني بأمور عمليّة، أو لتبث بعض الأخبار.

كانت جاي سِي تعتزم تناول طعام الغداء، في تلك الظهيرة، مع كاتبين مشهورين، رجل وسيدة. كان الرجل قد باع للتو ست قصصاً قصيرة لمجلة نيُو يُوركَر، وستاً أخرى لِجَاي سِي. أثار الأمر حفيظتي، فلم أُكن أعلم أنّ المجلاّت تشتري القصص في مجموعات من ست، وقد هالني مبلغ المال الذي ستدرّه

تلك القصص على صاحبها. أخبرتني جاي سِي أنّها ستتوخى الحذر خلال هذا الغداء، لأنّ السيدة تكتب قصصاً قصيرة أيضاً، ولكنّها لم تنشر أيّاً منها في النيّو يوركر، ولم تشتر منها جاي سِي سوى قصة واحدة خلال خمس سنين. كان يتوجب على جاي سِي أن تكيل المديح للرجل ذائع الصيت، وتكون كيّسةً كي لا تجرح مشاعر السيدة الأقلّ شهرة، في الوقت نفسه.

وحين رفرفت ملائكة ساعة الحائط الفرنسيّة، التي في مكتب جَاي سِي، بأجنحتها إلى الأعلى ثم إلى الأسفل، واضعة أبواقها المذهّبة الصغيرة بين شفاهها، صادحةً باثنتي عشرة نغمة، الواحدة تلو الأخرى، أخبرتني أنّني أنجزت ما يكفي من العمل في ذلك اليوم، وأستطيع الالتحاق بالجولة التي تنظمها مجلة يوم السيدات، وبحفلة الغداء التي تقيمها، ومشاهدة الفيلم الذي سيعرضونه، وأنّها تريد أن تراني مشرقة ومبكرة في الغد.

ثم تركت سترتها تنساب على بلوزتها الأرجوانيّة، واعتمرت قبّعة من الليلك المقلد، ووضعت قليلاً من البودرة على أنفها، ثم عدلت من وضعيّة نظارتيها السميكتين. كانت تبدو بشعة، ولكن في غاية الذكاء. ربتت، وهي تغادر المكتب، على كتفيّ بيدها الملفعة بقفّاز أرجوانيّ.

«لا تتركي المدينة الشريرة تنال منك».

جلستُ هادئةً، لبرهة، في الكرسيّ الدوار، أفكر في جاي سِي. حاولت تخيُّل نفسي أنّني بِي جِي Be Gee، المحررة الشهيرة، في مكتب تكتظ جنباته بمزهريّاتِ نباتات بلاستيكيّة وزنابق أفريقيّة تتوجب سقايتها كل صباح. تمنّيتُ أُماً مثل جاي سِي. حينئذ، سأعرف ما يتوجب عليّ فعله.

لم تكن أمي ذات فائدة ترتجى. كانت قد درّست لغة الاختزال

shorthand والطباعة لتعيلنا بعد وفاة أبي، وهي مهنة كانت تضمر لها مشاعر الكراهيّة، مثلما كرهت أبي لأنّه مات وتركها من دون مال، فهو لم يكن يثق بوكلاء التأمين على الحياة. كانت، دوماً، تلاحقني لأتعلم لغة الاختزال بعد التخرُّج حتى يكون لديّ مهارة عملية إضافة إلى الدرجة الجامعيّة. وكانت تقول: «حتى الرسُل كانوا يصنعون الخيام». «كان يتوجب عليهم العيش، مثلما يتوجب علينا أيضاً».

مرّرت أصابعي في صحن الماء الدافئ، الذي وضعته إحدى خادمات حفلة مجلة يوم السيّدات مكان طبق البوظة الفارغ. مسحت، بعناية، كل إصبع بمنديلي الكتانيّ الذي كان لا يزال نظيفاً على نحو ما. ثم طويت المنديل ووضعته بين شفتيّ وضغطت عليه. وحين وضعت المنديل على الطاولة، كان شكل شفةٍ، ورديّ مضطرب، يرتسمُ، في وسطه، كقلب صغير.

حينئذٍ، تماثل إلى ذهني التقدم الذي أحرزته.

كانت المرة الأولى التي رأيت فيها صحناً لغسل الأصابع في منزل السيدة التي كانت تشملني برعايتها. جرت العادة، في الكليّة التي كنت أرتادها— كما أخبرتني السيدة القصيرة ذات الوجه المنمش التي تعمل في مكتب المنح الدراسيّة— أن يرسل الطالب خطاباً إلى الشخص الذي يستفيد هو من منحته، إن كان على قيد الحياة، وأن يشكره على حسن صنيعه.

كنتُ أستفيد من منحة فيلومينا غوينيا Philomena Guinea، وهي روائيّة ثريّة درست في الكليّة التي أتواجد فيها أوائل القرن التاسع عشر. كانت روايتها الأولى قد تحولت إلى فيلم صامت لعبت فيه بتي ديفس Bette Davis دور البطولة، وإلى مسلسل إذاعي لا تزال تبث حلقاته، وقد صادف أن كانت

على قيد الحياة، وتقطن في منزل كبير قرب النادي الريفيّ حيث يعمل جدي.

هكذا، أرسلت خطاباً مطولاً إلى فيلومينا غوينيا مكتوباً بحبر أسود داكن على ورق رماديّ نُقِش عليه اسم الكليّة بالحبر الأحمر. أخبرتها كيف تبدو الأوراق في الخريف، حين أركب درّاجتي الهوائيّة صوب التلال، وكم يبدو رائعاً العيش في حرم الكليّة بدل التنقّل بالحافلات إلى كليّة المدينة، والاضطرار إلى العيش في المنزل، وكيف تنفتح كل أبواب المعرفة أمامي، وربّما أتمكن، ذات يوم، من تأليف كتب عظيمة.

كنت قرأت أحد كتب السيد غوينيا في مكتبة البلدة— لسبب ما، لم تكن مكتبة الكليّة تحتفظ بكتبها— كانت صفحاته تعج، من البداية وحتى النّهاية، بأسئلة طويلة محيّرة، من قبيل: «هل تدرك إيڤلين Evlyn أن غلاديس Gladys كانت على علاقة سابقة بروجر Roger؟ يتساءل هكتور Hector؟ و«كيف يمكن لدونالد Donald أن يتزوجها حين يعلم بأمر الطفل الذي يتوارى عن الأنظار مع السيدة رولموپ Rollmop بالضيعة الريفيّة المنعزلة؟ وجهت غرِزِلدا Griselda سؤالها إلى وسادتها الباردة المضاءة بنور القمر». أخبرتني فيلومينا غوينيا، لاحقاً، أنّها كانت في غاية البلاهة في الجامعة، وأنّها قد جنت— بفضل تلك الكتب— ملايين الدولارات.

أجابت السيدة غوينيا على رسالتي، ثم دعتني لتناول طعام الغداء في منزلها. هناك، وقعت عيناي على أول صحن لغسل الأصابع.

كان ثمة أزهار كرز تطفو في الصحن، فظننته حساء يابانيّاً يقدم بعد الغداء. هكذا، أتيت على الصحن دفعة واحدة، بما في ذلك الأزهار الصغيرة المنعشة. لم تتفوه السيدة غوينيا بأيّة كلمة أبداً، غير أنّي لم أعرف الحقيقة إلاّ بعد

وقت طويل، حين أخبرتني بذلك فتاة في سنتها الدراسيّة الأولى تعرّفت عليها في الكليّة.

عندما غادرنا الأجواء الداخليّة لمكاتب مجلة يوم السيّدات التي تغمرها أشعة الشمس، كانت الشوارع رماديّة ترسل سحباً من الدخان جرّاء المطر المنهمر. لم يكن المطر من النّوع الجميل الذي ينهمر برفق، بل من النّوع الذي لا شك أنّه يعم البرازيل. كان يتقاطر من السماء بحجم فناجين القهوة، يضرب نواصي الشوارع الملتهبة بهسيس يبعث إلى الأعلى سحباً من البخار تتلوى من الإسفلت الأسود المضيء.

تبددت آمالي بقضاء العشيّة لوحدي في سنترال بارك، حين دلفت إلى الغرفة الزجاجيّة للأبواب الدوارة الخاصّة بمجلة يوم السيدات. وجدتني ملقاة، عبر غلالة المطر الدافئ، داخلَ سيّارة أجرة هادرة معتمة، رفقةَ بِتسِي وهيلدا وَإملِي آن أوفنباخ Offenbach Emily Ann، وهي فتاة صغيرة أنيقة تعقد شعرها الأحمر على شكل كعكة فوق العنق، ولديها زوج وثلاثة أبناء في تِيينِك Teaneck، بنيو جيرزي.

كان الفيلم في غاية الرداءة، تلعب دور البطولة فيه فتاة شقراء جميلة تبدو كجون أليسن June Allyson، وثمة فتاة أخرى مثيرة، ذات شعر أسود فاحم، تبدو كإليزابيت تيلَر Elizabeth Taylor، وشخصان آخران كبيران بمناكب عريضة يحملان أسماء على شاكلة ريك Rick وَجِل Gil.

كان الفيلم رومانسيّاً بالألوان، يدور حول كرة القدم.

أكره الأفلام الملونة، حيث يبدو كل شخص وكأنّه مضطر لارتداء أزياء رهيبة في كل مشهد جديد والوقوف في الجوار كمنشر الغسيل، ناهيك عن

الأشجار الخضراء الكثيرة، أو الحنطة الشديدة الصّفرة، أو البحر الشديد الزرقة وهو يمتد لأميال وأميال في كل اتجاه.

تجري معظم أحداث الفيلم في مدرّجات كرة القدم، حيث تلوح الفتاتان، أو تشجعان اللاعبين، وهما ترتديان بزتين جميلتين تحملان في طيّتي سترتيهما أزهار أقحوان بحجم الكرنب، أو تدور المشاهد في قاعات الباليه، حيث تتدحرجان على الأرضيّة مع عشيقيهما، وهما ترتديان فستانان يبدوان كأنّهما من فيلم ذهب مع الريح، ثم تنسلان إلى حجرة التواليت كي تتهامسان بأشياء بذيئة.

كان من الواضح أن تنتهي الفتاة الجميلة برفقة بطل كرة القدم الوسيم، فيما ستجد الفتاة المثيرة نفسها وحيدة، لأنّ الرجل الذي يدعى جِل كان يرغب، منذ الوهلة الأولى، في عشيقة وليس زوجة، وكان يلملم أغراضه متجهاً إلى أوروبّا بمفرده.

خلال هذه الأثناء، أخذ يتسرّب إليّ شعور غريب. التفت حول طوابير الرؤوس الصغيرة السابحة في عالم آخر، والتي يلفّها ذات الشعاع الفضيّ الذي يغمر المقدمة، وذات الظل الأسود الذي في الخلف، فبدوا مجرد زمرة من الأغبياء.

شعرتُ بالقيء وهو يتهددني. لم أدر إن كان الفيلم المرعب الذي تسبّب بمغص معدتي الحاد، أم هو الكافيار الذي تناولته.

«سأذهب إلى الفندق»، همستُ إلى بِتسي عبر نصف العتمة.

كانت بتسي محدقة في الشاشة بتركيز جدي. «ألستِ على ما يرام؟»، همست وهي لا تكاد تحرّك شفتيها.

«كلاّ، قلتُ. أشعر كأنّ الجحيم يستعر في داخلي».

«وأنا أيضاً»، سأرافقك إلى الفندق».

انسحبنا من مقعدينا، معتذرتين طيلة مرورنا في الصف الذي كنّا نجلس فيه، فيما كان الأشخاص، الذين في القاعة، يصدرون أصواتاً تنم عن انزعاجهم. كانوا يغيّرون مواضع مظلاتهم وجزماتهم الشتويّة ليفسحوا لنا المجال. كنتُ أطأ ما استطعت من أقدام كي أحول انتباهي عن رغبتي الجامحة في التقيّؤ، والتي كانت تزداد عتواً وقهراً، فلم أستطع تمييز أيّ شيء غيرها.

كانت لا تزال بقايا المطر الفاتر تنهمر، كما لو عبر غربال، حين خطونا إلى الشارع.

بدت بِتسِي مرتعبة. تلاشى رونق العافية الذي كان يغمر وجنتيها، وكان وجهها الجافّ يطفو أمامي، أخضر يتفصّد عرقاً. وجدنا إحدى سيارات الأجرة ذات المربّعات الصفراء، والتي تكون دائماً في زاوية الشارع في انتظار المرء حين يكون محتاراً بين أن يستقل سيّارة أجرة أم لا. كنت قد تقيّأت قبل وصولنا إلى الفندق، فيما تقيّأت بِتسِي مرّتين.

كان سائق العربة ينعطف بقوة، فارتمينا في جهة المقعد الخلفيّ، ثم في الجهة الأخرى ثانيةً. وكلما شعرت إحدانا بالغثيان، تنحني بهدوء، كما لو أوقعت شيئاً ما وتحاول التقاطه، فيما كانت الأخرى تدندن متظاهرة بالنظر خارج النافذة.

بدا السائق، رغم ذلك، كأنّه على علم بكل ما يجري في سيارته.

كان يحتج، متجاوزاً إشارة المرور التي استحالت حمراء للتو.

«لا يمكنكما فعل ذلك في سيارتي. من الأفضل أن تخرجا، وتفعلا

ذلك في الشارع».

لم ننبس ببنت شفة، وأظنّه استنتج أنّنا على وشك الوصول إلى الفندق، لذا لم يرغمنا على مغادرة العربة إلى أن توقّف أمام المدخل الرئيس.

لم نجرؤ على انتظار أن يخبرنا بالأجرة. فحشرنا رزمة من الأوراق الفضية في يده. ألقينا منديلين ورقيّين لتغطية الفوضى التي خلفناها وراءنا، ثم ركضنا عبر الرواق إلى المصعد الفارغ مباشرة. لحسن الحظ، صادف وصولنا لحظة الهدوء التي تعم الفندق. تقيّأت بِتسي، مرّة أخرى، في المصعد، فأمسكتُ رأسها، ثم تقيّأت أنا، فأمسكت برأسي.

غالباً ما يشعر المرء بالتحسُن عقب تقيّء جيّد. تعانقنا وتواعدنا، ثم ذهبنا في اتجاهين مختلفين من الردهة حتى نتمدد في حجرتينا. لا شيء يوطد عرى صداقتك بشخص آخر أكثر من التقيّؤ في حضوره.

غير أنّني شعرتُ، حين أوصدتُ الباب ونزعت ملابسي، ساحبة نفسي إلى السرير، أنّ حالتي تشتد سوءاً. كان أملي الوحيد الذهابُ إلى الحمام. تمكنت، بجهد جهيد، ارتداء بُرنس الحمام الأبيض الذي تتخلله رسومات لأزهار القَنطَريُون العنبريّ، ثم تهاديت بخطى وئيدة.

كانت بِتسي هناك قبلي. أستطيع سماع نحيبها من وراء الباب. أسرعت، حول الزاوية، إلى الحمام، في الجناح الآخر. خِلتُني سأموت، فقد اتخذ الأمر أبعاداً لم تكن في الحسبان.

جلستُ على المرحاض، ثم أحنيتُ رأسي فوق حافّة حوض الغسيل، ظانّةً أنّني أفقد أحشائي والطعام الذي التهمته في تلك الليلة. كان الألم يتماوج في داخلي أمواجاً هائلة. كان الألم يتلاشى– بعد كل موجة– فيتركني منهكة،

كورقة مبتلة، تجتاح القشعريرة كل جسمي. ثم أشعر بتلك الأمواج، في داخلي، مرّة أخرى. كان قرميد غرفة التعذيب البيضاء المشعّة يرقد تحت قدميّ، ومن فوق رأسي، وفي كل الجهات الأربع، وهو يحاصرني، ويعتصرني حتى أصير قطعاً صغيرة.

لا أدري كم من الوقت قد مرّ، وأنا على هذه الحال. تركت الماء البارد، الذي في الحوض، ينساب قويّاً،من دون أن أضع السدادة في مكانها، حتى يعتقد من يأتي أنّني أغسل ثيابي. وحينما شعرت بالأمان، على نحو معقول، تمددت على أرضيّة الحمام، مستلقية في هدوء تام.

لم يعُد الوقت صيفاً. بِت أشعر كأنّ الشتاء يهزّ أضلُعي ويضرب أسناني بعنف. كانت المنشفة الكبيرة البيضاء، التي جرجرتها معي، ترقد تحت رأسي، خدرةً، كندفة ثلج ساقتها الرّيح.

ليس من اللائق أن يطرق شخص ما باب الحمام على ذلك النّحو. بإمكانه الانعطاف عند الزّاوية والبحث عن حمام آخر، مثلما فعلتُ أنا، ويتركني أنعم بالسكينة. غير أنّه قد واصل الطرق، متوسلاً أن أفتح الباب. بدا الصوت أليفاً، حينئذ. بدا كأنّه يشبه صوت إمِلي آن أوفنباخ على نحو ما.

«لحظة من فضلك!»، قلتُ. دوت كلماتي كثيفة، كدبس السكر.

لململت أشتاتي ونهضت ببطء. سحبت الماء للمرّة العاشرة، بعد أن نظفت الحوض مما علق به من شوائب، ثم مددت المنشفة حتى لا تتبدى بقع القيء بوضوح جليّ. فتحت الباب وخطوت إلى الردهة. سيبدو الأمر رهيباً إن نظرت إلى إمِلي آن، أو إلى أيّ شخص آخر، فركزت نظري على النافذة التي كانت تتماوج عند نهاية الرّدهة، ثم وضعت قدماً أمام الأخرى.

كان الشيء التالي الذي شاهدته هو حذاء شخص ما.

كان حذاء عتيقاً، سميكاً من جلد أسود مشقّق، بتخريمات مدورة، للتهوية، فوق أصابع القدمين، ولمعان باهت. كان الحذاء يشير إليّ. بدا كما لو أنّه وُضِع على أرضيّة خضراء صلبة تؤلم عظام وجنتيّ.

حافظت على رباطة جأشي، في انتظار دليل يقودني إلى ما يتوجب عليّ فعله. لمحتُ— إلى يسار الحذاء— كومة غامضة من القنطريون العنبريّ على أرض بيضاء، فشعرت برغبة في البكاء. كان ذلك ردن برنس الحمام الذي كنت أرتديه، وكانت يدي اليسرى شاحبة– كسمكة قَد– في نهايته.

«إنّها على ما يرام الآن».

جاء الصوت من منطقة باردة، عقلانيّة، قصيّة فوق رأسي. لم يخطر ببالي، للحظة، أنّ الصوت غريب، لكنّه كان كذلك. كان صوت رجل، ولم يكن مسموحاً بتواجد الرّجال في الفندق ليلاً أو نهاراً.

«كم من الأُخريات هناك؟» تواصل الصوت.

أصختُ السمع. بدت الأرضيّة صلبة على نحو رائع. كان عزائي الوحيد إدراك أنّني قد سقطت على الأرض، ولن أسقط من جديد.

«إحدى عشرة، على ما أظنّ»، أجاب صوت امرأة. أظنها صاحبة الحذاء الأسود. «أعتقد بوجود إحدى عشرة فتاة إلاّ واحدة، وبذلك يكون المجموع عشراً.

«حسناً، خذي هذه إلى السرير. سأتولى أمر الأُخريات».

قرع أذني اليمنى طنين أجوف، مسترسل، راح يتلاشى شيئاً فشيئاً. ثم انفتح بابٌ في الجهة القصيّة. كانت أصواتٌ وكان أنينٌ، ثم أوصد الباب مرّة

أخرى.

امتدت يدان تحت إبطي، فسمعت المرأة تقول: «هيّا، هيّا عزيزتي، نستطيع القيام بذلك». شعرت كأنّني ارتفعت جزئيّاً، ثم راحت الأبواب تتحرّل على مهلها، باباً تلو الآخر، حتى بلغنا باباً مشرعاً، فدلفنا إلى الداخل.

كانت الملاءة مطويّة على السرير، فساعدتني المرأة على التمدد وغطتني حتى الذقن. ترامت في المقعد الذي قرب السرير، وراحت تُهوي على نفسها بيدٍ ريّانة ورديّة. كانت تضع نظارة مذهّبة، وتعتمر قبّعة ممرّضة بيضاء.

«من أنتِ؟»، سألتُ بصوت خافت.

«أنا ممرّضةُ الفندق».

«ماذا أصابني؟»

«تعرّضتِ للتسمّم»، أجابت باقتضاب. «تسممتِ، تسمم الجميع. لم أشاهد أمراً، كهذا، من قبل. القيء في كل مكان. ماذا أكلتنّ، أيّتها السيّدات الشابّات؟».

«هل الجميع مرضى؟»، سألتُ، آملةً بشيء من ذلك.

«جميعكنّ»، أكدت بتلذذ. «مريضات كالكلاب، صارخات على أمهاتكن».

كانت الغرفة تطفو من حولي في غاية الرّقّة، كما لو كانت الكراسي والطاولات والجدران تحتفظ بثقلها، متعاطفة مع وهني المباغت.

«لقد حقنك الطبيب»، قالت الممرضة وهي تقف عند العتبة. «ستخلدين إلى النوم الآن».

ثم أخذ البابُ مكانها مثل صحفة فارغة، ثم أخذت مكانَ الباب

صحفة بيضاء أكبرُ، فانسقتُ نحوها، مبتسمة، كي أنام.

كان شخص يقف عند وسادتي حاملاً فنجاناً أبيض.

«اشربي هذا».

هززت رأسي. طقطقت الوسادة كما لو كانت حزمة من القش.

«اشربي هذا، ستشعرين بالتحسن».

تدانى فنجان خزفيّ سميك أبيض تحت أنفي. تأملت، في الضوء الشاحب الذي قد يكون الليلَ أو قد يكون الفجر، السائلَ الكهرمانيّ الشفيف. كانت قطع الزّبدة تطفو على السطح، ورائحة دجاج خفيفة تصعد حتى منخريّ.

تحرّكت عيناي بتردد نحو التنورة التي خلف الفنجان. «بِتسِي»، قلتُ.

«لستُ بِتسِي، إنّها أنا».

رفعتُ ناظريّ إلى الأعلى، فأبصرت رأس دورين مُظللاً على النافذة الشاحبة، وذؤابات شعرها الأشقر مضاءة كهالة من نور. كان وجهها في الظل، فلم أتبيّن ملامحها، لكنّني شعرت بحنان خبيرةٍ يتدفّق من أطراف أصابعها. لعلها بِتسِي، أو أمي، أو ممرّضة تعبق برائحة السرخس.

حنيتُ رأسي وارتشفتُ المرَق. كأنّ فمي من رمالٍ. ثم ارتشفته ثانيةً وثالثةً ورابعةً حتى فرُغ.

شعرتُ بالطهارة والقدسيّة، متأهّبة لحياة جديدة.

وضعت دورين الفنجان على حافّة النافذة، وغاصت في الكرسيّ الوثير. لاحظت أنّها لم تقم بحركة لأخذ سيجارة، ولأنّها كانت مدخنة شرهة فقد استغربت الأمر.

«حسناً، كدت أن تموتي»، قالت أخيراً.

«أظنّ أنّ للكاڤيار علاقة بذلك».

«ليس الكاڤيار! إنّه لحم السلطعون. فحصوه، فكان طافحاً بالپتومين Ptomaine».

تخيّلتُ مطابخ [مجلة] يوم السيدات، البيضاء السماويّة، وهي تمتد إلى ما لا نهاية. رأيتُ حبّات الأفوكادو محشوةً- حبّةً حبّةً- بلحم السلطعون والمايونيز، وقد صُورَت تحت الأضواء البرّاقة. رأيتُ كُلاّبات السلطعونات المرّقشة بالقرنفليّ وهي تظهر، على نحو مثير، من طبقة المايونيز التي تغطيها، وكوبَ الإجاص غير الحرّيف بإطاره الأخضر الغامق الذي يحتضن كل هذه الفوضى.

السُم.

«من قام بالفحص؟».

ظننت الطبيب أفرغ ما في معدة إحداهنّ، ثم قام بتحليل ما عثر عليه في مختبر الفندق.

«أولئك الأغبياء بمجلة يوم السيّدات. فما إن سقطتنّ على الأرض، مثل القناني الخشبيّة[17]، حتى هرع أحدهم إلى مكتب المجلة، ومن ثم توجه العاملون بالمكتب إلى حفلة يوم السيّدات، وقاموا بفحص كل ما تبقّى من مأدبة الغداء الكبيرة. ها!».

«ها!»، ترددت أصداء صوتي على نحو مكتوم. كانت عودة دورين

17- إشارة إلى لعبة القناني الخشبيّة ninepins، حيث يتم دحرجة الكرة لتصيب تسع قطع خشبيّة مصنوعة على شكل قناني. (المراجع).

أمراً جيّداً.

«لقد أرسلوا بعض الهدايا»، أضافت. «إنّها في كرتونة كبيرة في الرواق، هناك».

«كيف وصلت إلى هناك بهذه السرعة؟».

«إرساليّة خاصّة سريعة، ماذا تظنين؟ لن يطيقوا أن تخبروا النّاس أنّكنّ قد تعرضتنّ للتسمم في حفلة مجلة يوم السيّدات. تستطعن مقاضاتهم حتى آخر بنس يملكونه إن وجدتنّ محامياً بارعاً».

«ما الهدايا؟». إن كانت هدية جيّدة فلن أكترث بما حدث، لأنني شعرت بالصفاء جرّاء ذلك.

«لم يفتح العلبة أحدٌ بعد، كلها ممددة هناك. عليّ نقلُ الحساء إلى الجميع بعربة اليد، فأنا الوحيدة التي تقف على قدميها، لكنّني أحضرتُ حساءك أولاً».

«أُنظري ما الهديّة»، رجوتها. ثم تذكرت، فقلت: « لديّ هديّة لكِ أيضاً».

غادرت دورين الغرفة إلى الرواق. أستطيع سماع حفيفها من حولي للحظة، ثم صوت تمزيق الورق. أخيراً، رجعت إلى الغرفة حاملةً كتاباً سميكاً ذا غلاف صقيل طبعت عليه، في كل مكان، أسماء المؤلفين.

«أفضل ثلاثين قصّة قصيرة لهذا العام». أوقعتِ الكتاب في حجري. ثمة إحدى عشرة نسخة أخرى في الصندوق. أظنّهم فكروا في إهدائكنّ شيئاً للقراءة وأنتنّ طريحات الفراش». توقّفت لبرهة. «أين هديّتي؟».

جاست يدي حقيبة الجيب، وناولت دورين المرآة التي تحمل اسمها وأزهارَ الربيع عليها. تبادلنا النظرات، ثم انفجرنا بالضحك.

«تستطيعين تناول حسائي إن رغبت»، قالت. «لقد وضعوا اثنيّ عشر طبقاً من الحساء على الصينيّة سهواً. حشوت أنا وَلِنِي سندويتشات سُجُق فيما كنّا ننتظر المطر كي يتوقّف. لم استطع تناول لقمة أخرى.

«إليَّ بهِ»، قلتُ. «إنّني أتضور جوعاً».

(5)

في الساعة السابعة صباحاً، رنّ الهاتف.

عُمتُ إلى الأعلى من قاع نوم أسود. كانت جاي سِي قد أرسلت إليّ برقيّة علقتها في المرآة، تخبرني فيها ألاّ أتجشم عناء الذهاب إلى العمل، وأن أنعم بالراحة ليوم حتى أستعيد كامل عافيتي. كما أبدت أسفها تجاه ما سبّبه لحم السلطعون الفاسد، فلم أستطع تخيّل الشخص المتصل.

مددت يدي، وألصقت السماعة إلى الوسادة. كانت الجهة المخصّصة للكلام أسفل عظم رقبتي، فيما تمددت الجهة المخصّصة للسمع على كتفي.

«مرحباً؟».

«هل أنت الآنسة إستِر غرِينوود؟» قال صوت رجل ما. خُيّل إليّ أنّ في الصوت لَكنة أجنبيّة خفيفة ما.

«بالتأكيد، إنّها أنا».

«أنا قسطنطين . . .» .

لم أستطع تمييز الاسم الأخير، كنّه كان مليئاً بحرفي الكاف والسين. لم أعرف شخصاً بهذا الاسم، لكنّني لم أجرؤ على قول ذلك.

تذكرت، حينئذ، السيدة ويلارد ومترجمها الفوريّ.

«بالطبع، بالطبع!» زعقتُ، وأنا أحاول الجلوس ممسكةً السماعة بكلتا يديّ.

لم أظنّ السيدة ويلارد قادرة على أن تقدمني لشخص يدعى قسطنطين.

كانت مفكرتي تضم أرقام أشخاص مهمين. كنت فيما مضى على علاقة بشخص يدعى سقراط. كان فارع القامة، بشعاً، ويمتلك ثقافة واسعة. كما أنّه نجل منتج سينمائيّ إغريقيّ كبير. كان كاثوليكيّاً، فافترقنا. علاوة على سقراط، تعرّفت على شخص آخر من روسيا البيضاء يدعى أتيلا Attila. كان يرتاد كليّة بوسطن لإدارة الأعمال.

أخذت أدرك، شيئاً فشيئاً، أنّ قسطنطين كان يحاول ترتيب موعد معي في وقت لاحق من ذلك اليوم.

«أترغبين في رؤية مقرّ الأمم المتحدة بعد الظهيرة؟».

«أستطيع رؤية الأمم المتحدة»، أخبرته وأنا أرسل قهقهة مجنونة إلى حد ما.

بدا كأنّه لم يلتقط الإشارة.

«يمكنني رؤيتها من نافذتي». ظننت أنّني أتكلم الإنجليزيّة على نحو أسرع مما يستطيع فهمه.

ران صمتٌ مديد.

ثم قال: «قد ترغبين في تناول شيء ما بعد ذلك».

تبيّنت ألفاظ السيّدة ويلارد من طريقة كلامه، فانقبض قلبي دفعة واحدة. كانت السيّدة ويلارد تدعوكِ دائماً لتناول شيء ما. تذكرت أنّ هذا الرجل قد حل ضيفاً على السيّدة ويلارد في منزلها، حين قدم إلى أميركا لأول مرّة— كانت السيّدة ويلارد تفتح بيتها للأجانب، بموجب ترتيبات معيّنة، حين يأتون إلى أميركا، في مقابل أن يفتحوا لها بيوتهم حين تسافر إلى الخارج.

بدا واضحا، بكل بساطة، قيام السيّدة ويلارد بمقايضة بيتها المفتوح في

روسيا مقابل أن أحصل على شيء ما أتناوله في نيو يورك.

«بلى، أرغب في تناول شيء ما»، قلتُ بخشونة. «متى ستحضر؟».

«سأمرّ بسيّارتي حوالي الساعة الثانية. تقيمين في فندق الأمازون، أليس كذلك؟».

«بلى».

«آه، أعرف أين يوجد».

انتابني، للحظة، شعور أنّ نبرة صوته تنطوي على دلالة خاصّة ما، فخمنت أنّ بعض من يقمن في الأمازون عملن سكرتيرات في الأمم المتحدة، ولا بُد أنه قد اصطحب إحداهن لقضاء بعض الوقت. تركته يغلق هاتفه أولاً، ثم أغلقت هاتفي، واستلقيت على الوسائد، شاعرة بالانقباض.

ها أنا ذي، أطلق العنان لمخيّلتي مرّة أخرى، حالمة بشخص سيحبّني بشغف آنَ يراني، إنطلاقاً من أشياء مبتذلة. جولة عمل في الأمم المتحدة، ثم وجبة خفيفة بعد ذلك!.

حاولت أن أرفع من معنويّاتي.

ربّما يكون هذا المترجم الفوريّ بشعاً، قصير القامة، فأضطر إلى النظر إليه، في آخر المطاف، بالطريقة التي كنت أنظر فيها إلى بَدِي ويلارد. منحتني هذه الفكرة شيئاً من الرضا. لأنّني حين نظرت إلى بَدِي ويلارد— رغم اعتقاد الجميع أنّني سأتزوجه حين يغادر المكان الذي كان يعالج فيه من داء السل— أدركت استحالة زواجي به حتى ولو كان آخر رجل على وجه الأرض.

كان بَدِي ويلارد منافقاً.

بالطبع، لم أعرف حقيقته بادئ الأمر. كنت أظنّه أروع شخص عرفته. عشقته، عن بُعد، طيلة خمس سنين،من دون أن يعيرني بالاً. يا لروعة الوقت الذي كان، حين كنتُ لا أزال أحبّه، وكان قد بدأ يلحظ وجودي. ثم اكتشفت بالصدفة، حين أخذ يهتم بي أكثر فأكثر، كم هو منافق. وها هو الآن يريد الزّواج بي. آه، كم كرهت جرأته.

قرّرت عدم الذهاب إلى الكافيتيريا لتناول طعام الإفطار. كان الأمر، بالنسبة إليّ، مجرّد ارتداء الثياب من جديد. وما جدوى ذلك إن كنت سأقضي الصّباح وأنا أتقلب في السرير؟ كان بإمكاني مهاتفتهم، طالبة إرسال الطعام إلى غرفتي، غير أنّ ذلك سيحتم عليّ تقديم بقشيش إلى الشخص الذي سيحضره. لم تكن لديّ أدنى فكرة عن المقدار الذي يتوجب عليّ دفعه، فقد قاسيت الأمرّين حين حاولت تقديم البقشيش إلى بعض الأشخاص في نيو يورك.

حين حللت بنيو يورك لأول مرّة، حمل خادم الفندق، قصير القامة الأصلع، والذي كان يرتدي زيّة الرسميّ، حقيبتي إلى المصعد، ثم فتح باب الغرفة بالمفتاح. هرعت، مسرعةً، إلى النافذة لأرى كيف يبدو المنظر. ثم تنبّهت، بعد هنيهة، إلى أنّه لم يبرح الغرفة بعد. كان يفتح صنوبريّ الماء الساخن والبارد في حوض الغَسل، قائلاً: «هذا للماء الساخن، وذاك للبارد». ثم أدار المذياع، وراح يعدد أسماء القنوات الإذاعيّة، فشعرت بالضيق. أوليت له ظهري، ثم قلت بحزم: «أشكرك على حمل حقيبتي».

«شكراً، شكراً، شكراً. ها!»، قال بنبرة بذيئة مبطنة. كان قد اختفى، قبل أنّ ألتفت لأرى ماذا جرى، صافقاً الباب، خلفه، بوقاحة.

لاحقاً، حين أخبرت دوريين عن سلوكه الغريب، قالت: «أيّتها

المعتوهة، إنّه يريد بقشيشاً».

سألتها عن المقدار الذي كان من المفترض أن أدفعه، قالت: «ربع دولار على الأقل، وخمسة وثلاثين سنتاً إن كانت الحقيبة ثقيلة جداً. كنت أستطيع حمل الحقيبة من دون مساعدته، لكنّه بدا راغباً في القيام بذلك عن طيب خاطر. حسبت أنّ هذه الخدمة تدخل ضمن ما يدفعه المرء لقاء الإقامة في الفندق.

كنتُ أكره تقديم المال مقابل الأشياء التي أستطيع القيام بها لوحدي، فذلك يوتر أعصابي.

أخبرتني دورين أنّ عشر المبلغ هو ما يفترض أن أدفعه كبقشيش، غير أنّه لم يكن لديّ المبلغ المطلوب على نحو ما. كنت سأشعر بالسخافة إن أعطيته نصف دولار، قائلة: «خذ خمسة عشر سنتاً، وأعد لي الباقي من فضلك».

وحين ركبت سيّارة أجرة لأول مرّة في نيويورك، أعطيت السائق عشرة سنتات بقشيشاً. كان عليّ أن أدفع له دولاراً واحداً، فظننت العشرة سنتات مبلغاً مناسباً جداً. ناولت السائق قطعة النقود بابتسامة وتلويحة صغيرة من يدي. غير أنّه ما إن وضعها في راحة يده حتى حدق طويلاً. وحينما خطوت إلى خارج السيّارة، راجيةً ألاّ أكون قد أعطيته عشرة سنتات كنديّة بطريق الخطأ، أخذ يزعق: «سيّدتي، عليّ أن أحيا كما تحيين أنت وباقي البشر». كان صوته يهدر عالياً، فارتجفت أوصالي، مطلقة سيقاني للريح. لحسن الحظ أنّه توقّف عند شارة المرور، وإلاّ كان سيقود سيّارته إلى جانبي، صارخاً عليّ بتلك الطريقة المحرجة.

وحين سألت دورين عن سبب ذلك، أخبرتني ربّما تكون نسبة البقشيش قد ارتفعت من 10–15 في المئة منذ آخر مرّة كانت فيها في نيو يورك،

أو أنّ ذلك السائق، بعينه، كان وغداً.

مددت يدي، وتناولت الكتاب الذي كانت مجلة يوم السيّدات قد أرسلته إليّ.

وقعت بطاقة، حين فتحته. كان يرتسم، على جانبها الأماميّ، كلب كثيف الشعر أجعده، يرتدي قميص نوم تزيّنه الورود، وقد أقعى حزيناً في سلة أعدت خصّيصاً له. أما في الداخل، فإنّ ذات الكلب يظهر ممدداً في السلة، وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة صغيرة، فيما يغط في نوم عميق أسفل عبارة منمقة تقول: «ستشعرين بالعافية حين ترتاحين جيّداً». كان شخص ما قد خط، أسفل البطاقة، الكلمات التالية بحبر أرجوانيّ شاحب: «استردي عافيتك سريعاً! أصدقاؤك بمجلة يوم السيّدات».

تصفّحت الكتاب، قصّة تلو الأخرى، حتى وصلت، في النهاية، إلى قصّة عن شجرة تِين.

كانت شجرة التين تنمو في حقل يقع بين منزل رجل يهوديّ ودير. دأب الرجل على التقاء راهبة سمراء جميلة عند تلك الشجرة لالتقاط ثمارها النّاضجة، إلى أن جاء اليوم الذي شاهدا فيه بيضة تفقس في عش طائر على أحد غصونها. هكذا، وهما يشاهدان الطائر الصغير يشقّ طريقه خارج البيضة، لمسا ظاهر يديهما معاً. مُذاك لم تَعُد الراهبة تأتي لالتقاط التين رفقة الرجل اليهوديّ، بل حلت مكانها خادمة كاثوليكيّة خبيثة تعمل في المطبخ. كانت هذه الخادمة تلتقط الثمار، وتعد الحبات التي يلتقطها اليهوديّ، حتى تتأكد أنّه لم يلتقط أكثر منها، فكان يستشيط غيظاً.

بدت القصّة رائعة، خاصّة ما يتعلق بشجرة التين وهي تحت الثلج في

الشتاء، ثم وهي، في فصل الرّبيع، بكل ثمارها الخضراء. خالجني شعور بالأسى حين وصلت إلى الصفحة الأخيرة. رغبت في الزحف بين خطوط الكتاب السوداء كما يزحف المرء عبر سياج، وأن أخلد للنّوم في كنف تلك الشجرة الخضراء الجميلة الضخمة.

بدا الأمر كأنّنا نشبه- بَدي ويلارد وأنا— ذلك اليهوديّ وتلك الرّاهبة، رغم أنّنا لم نكن يهوديّين أو كاثوليكيّين، بل موحدين Unitirian. كنّا قد التقينا تحت أغصان شجرة التين المتخيّلة، ولم يكن ما شاهدناه طائراً يخرج من البيضة، بل طفلاً يخرج من رحم امرأة، ثم حدث شيء مرعب، فتفرّقت بنا السُبُل.

خلتني ممددة، هناك، في سرير الفندق الأبيض شاعرةً بالوحدة والضعف— في تلك المصحة بِأَدِيرُونداكس Adirondacks، فشعرت بالكآبة. كان بَدِي يثابر، في رسائله، على إخباري كيف أنّه بات يقرأ قصائد شاعر طبيب، وكيف عثر على كاتب قصص قصيرة روسيّ كان يزاول مهنة الطبّ أيضاً، فربّما كان الأطباء والكتاب يأتلفون رغم كل شيء.

تبدو نبرة بَدِي نبرةً مختلفة جداً عما كان يقوم به في العامين اللذين كنّا نحاول فيهما التعرف على بعضنا. أذكر اليوم الذي ابتسم فيه إليّ، قائلاً: «أتعرفين ما القصيدةُ، يا إسترِ؟».

«كلاّ، ما هي؟».

«شيءٌ من الغُبار». بدا فخوراً لأنّه فكر بتلك الإجابة، لدرجة أنّي حدقت في شعره الأشقر وعينيه الزرقاوين وأسنانه البيضاء- كانت له أسنان بيضاء، قويّة وطويلة- ثم قلتُ: «أظنّ ذلك».

لم أتمكن من العثور على إجابة لتلك الملاحظة إلاّ بعد نصف سنة كاملة في نيو يورك.

قضيت الكثير من الوقت وأنا أحاور بَدِي ويلارد في مخيّلتي. كان يكبرني بعامين، ويتمتع بحس علميّ يسعفه على إيجاد البراهين دوماً. كان يتوجب عليّ، حين أكون برفقته، أن اجتهد كي لا افقد السيطرة على الأشياء.

دائماً ما كانت تستعيد هذه المحادثات، التي تدور في ذهني، خيوطَ المحادثات التي انخرطت فيها مع بَدِي، إلاّ أنّها كانت تنتهي، هذه المرّة، بإجاباتي الحادة على نحو ما، بدل الانزواء في مكاني، قائلةً: «أظنّ ذلك».

أتخيّل بَدِي الآن، وأنا مستلقيّة في السرير، وهو يقول: «أتعرفين ما القصيدة، يا إستر؟».

«كلاّ، ما القصيدةُ؟».

«شيءٌ من الغبار».

ثم أقول، وهو يتسم بخيلاء: «كذلك هي الجثث التي تقطع أوصالها. وكذلك هم الأشخاص الذين تعتقد أنّك تعالجهم. إنّهم من تراب مثل الغبار مثل الغبار. أظنّ القصيدة الجيدة تحيا لفترة أطول من مئة شخص من هؤلاء جميعاً».

وبالطبع لن يحير بَدِي جواباً، لأنّ الذي قلته للتو هو الحقيقة بعينها. فالناس مجرّد مخلوقات من تراب، وليست العناية الطبيّة بكل ذلك التراب أفضل من كتابة قصائد سيذكرها الناس، ويعيدون قراءتها على أنفسهم حين يغشاهم الحزن، أو حين يمرضون فيجافيهم النوم.

كانت مشكلتي تكمن في أنّني قد أخذت كل ما قاله بَدِي ويلارد كما

لو أنّه حقيقة مؤكدة. أذكر الليلة التي قبّلني فيها. كان ذلك بعد الحفلة التي أقامها طلبة الصف ما قبل الأخير بجامعة ييل.

كانت غريبة، تلك الطريقة التي دعاني بها بَدِي إلى تلك الحفلة.

جاء إلى منزلي فجأة، في إحدى عطل أعياد الميلاد، مرتدياً سترة بياقة بيضاء كبيرة، فبدا في غاية الوسامة لدرجة أنّني لم أكفّ عن التحديق فيه، ثم قال: «قد آتي لأراكِ في الكليّة يوماً ما، أتمانعين؟».

أصبتُ بالذهول. لم أكن أشاهد بَدِي إلاّ في الكنيسة أيّام الآحاد، حين نكون قد عدنا إلى منزلينا من الكليّة. وكنت لا أراه إلاّ عن بعد، لذا لم أستطع تخمين سبب مجيئه، جرياً إلى المنزل، لرؤيتي– كان قد زعم أنّه قطع الميلين الفاصلين بين منزلينا ركضاً، كتمرين رياضيّ.

كانت وشائج صداقة قديمة تربط بين والدتينا. كانتا قد ذهبتا معاً إلى المدرسة، كما وتزوجت كل واحدة بأستاذها واستقرّت في البلدة نفسها. غير أنّ بَدِي كان على الدوام بعيداً عن المنزل، مستفيداً من منحة مدرسية تمهيديّة في الخريف، أو يتكسب بمكافحة «بَثْرَة الصّنوبر»[18] في مُونتَانا Montana صيفاً، لذا لم تُفض الصّداقة القديمة التي جمعت بين والدتينا إلى أيّ شيء أبداً.

انقطت أخبار بَدِي، بعد هذه الزيارة المفاجئة، حتى صبيحة يوم سبت رائع في أوائل آذار. كنت في غرفتي بالجامعة، أتهيّأ لدراسة حياة بطرس الناسك وَوُلتَر المعدَم، من أجل امتحان مادة التاريخ المتعلقة بالحروب الصليبيّة، والذي يصادف يوم الاثنين، حين رنّ هاتف الرّواق.

18– بَثْرَة الصّنوبر blister rust: مرض يصيب أشجار الصنوبر بواسطة فُطْر معيّن، فتظهر البثور عليها بشكل واضح. (المراجع).

وجرت العادة أن يتناوب الأشخاص للرّد على الهاتف. ونظراً لكوني الطالبة المستجدة الوحيدة في طابق يضم طالبات على وشك التخرّج، فقد توليتُ القيام بتلك المهمة معظم الوقت. انتظرت لحظة في انتظار أن ترد إحداهنّ عليه. ثم قدرت أنّ الجميع في الخارج يلعبن السكواش squash، أو ربّما غادرن للاستمتاع بإجازة نهاية الأسبوع، فرددت على الهاتف بنفسي.

«أهذهِ أنتِ، يا إستر؟»، قالت فتاة تتولى الحراسة في الأسفل، وحين أجبتها بنعم، قالت: «ثمة رجل يود رؤيتك».

دهشت لسماع ذلك، فلا أحد، من بين كل الذين واعدتهم في تلك السنة، هاتفني مرّة أخرى لموعد جديد. لم أكن محظوظة بما يكفي. كنت أكره هبوط السلالم ويداي تفوحان عرقاً، ويجتاحني الفضول، مساءَ كل ليلة سبت، لأجد طالبة على وشك التخرّج وهي تعرّفني على ابن أعزّ صديقات خالتها، والذي غالباً ما يكون ضخماً وشاحباً وتخرج من وجهه أذنان كبيرتان، أو تبرز من فمه أسنان سوداء، أو يعرج. لم يخطر ببالي أنّني لا أستحق ذلك. لم أُكن أعاني من أيّة عاهة. كنت انهمكت في دروسي، ليس إلاّ، ولم أعرف كيف أكبح جماح ذلك أبداً.

حسناً، مشطتُ شعري، ووضعت مزيداً من أحمر الشفاه، ثم أخذت كتاب التاريخ– سأتظاهر أنّني كنت في طريقي إلى المكتبة إن كان شخصاً بشعاً– ونزلت السلالم. كان بَدي يتكئ على طاولة البريد، وهو يرتدي سترة كاكيّة ذات سحاب، وسروالاً مخيطاً أزرق، وينتعل حذاء رياضيّاً بالياً، وابتسامة عريضة ترتسم على محيّاه.

«جئتُ لإلقاء التحيّة فقط»، قال.

استغربت أن يتجشم عناء كل تلك المسافة من يِيل، ملوحاً للسيّارات ليحصل عن ركوب مجانيّ، مثلما فعل، حتى يوفّر نقوده، لمجرّد إلقاء التحية فقط.

«مرحباً»، قلتُ. «لنذهب إلى الخارج ونجلس في الرّواق».

أردت الخروج إلى الرواق لأنّ الفتاة التي كانت تقوم بالحراسة فضوليّة وتجحدني بنظرات فضوليّة مزعجة. بات واضحاً أنّها تعتقد أنّ بَدِي اقترف خطأ جسيماً.

جلسنا قرب بعضنا في كرسيّين دوارين مُمَلَدَين. كانت أشعّة الشمس صافية، حارّة على نحو ما، ولا ريح.

«لا أستطيع المكوث أكثر من بضع دقائق».

«أوه، بالله عليك!. ابقَ حتى الغداء»، قلتُ له.

«أوه، لا أستطيع. لقد جئت لحضور حفلة طلبة السنة الثانية مع جوان Joan».

شعرتُ كما لو أنّني حمقاء تماماً.

«كيف حال جوان؟»، سألت ببرودة.

كانت جوان غِلِنغ Giling إحدى بنات قريتي. كانت تتردد على كنيستنا، وتسبقني بسنة في الجامعة. كانت طالبة متميّزة– فهي زعيمة صفّها، تدرس الفيزياء، وبطلة رياضة الهوكي بالجامعة. كانت دائماً ما تجعلني أشعر بضيق جرّاء عينيها الجاحظتين اللتين بلون البلور الصخريّ، وأسنانها اللامعة كشاهدة قبر، وصوتها الهامس. كانت ضخمة كفَرَس. بدأت أشعر أنّ بَدِي لا يمتلك ذوقاً جيّداً.

«أوه، جوان»، قال. «لقد دعتني إلى هذه الحفلة الراقصة منذ شهرين، كما طلبت أمها من أمي أن أرافقها، فما عساي أن أفعل؟».

«حسناً، لِمَ قلتَ أنّك سترافقها إن لم تكن راغباً في ذلك أصلاً؟»، سألته بخبث.

«أوه، أُكنّ مشاعر وُد لجوان. فهي لا تكترث إن صرفت عليها المال أم لا، وتستمتع بالقيام بالأشياء في الهواء الطلق. كنّا قد قمنا، في المرة الأخيرة التي جاءت فيها إلى ييل، خلال إجازة نهاية الأسبوع، بنزهة على درّاجتينا الهوائيّتين إلى إيست رُك East Rock، وكانت هي الفتاة الوحيدة التي لم يتوجب عليّ دفعها إلى أعلى التلال. جوان فتاة مناسبة.

اقشعرّ بدني من الغيرة. لم يسبق أن ذهبتُ إلى ييل، وكانت ييل أفضل مكان ترغب طالبات السنة النّهائية، اللواتي يُقمن معي، في الذهاب إليه لقضاء عطل نهايات الأسبوع. قرّرت ألاّ أرتجي شيئاً من بَدِي ويلارد. فحين لا ترتجي شيئاً من شخص ما، فإنّك لن تشعر بالخيبة أبداً.

«ينبغي عليك أن تنصرف الآن، وتجد جوان»، قلتُ بنبرة واقعيّة. «لديّ موعد مع شخص ما قد يأتي في أيّة لحظة، ولا أحبّ أن يراني جالسة معك».

«موعد مع شخص ما؟». بدا بَدِي مندهشاً. «مَن؟».

«إنّهما شخصان في الواقع»– قلتُ– «بطرس الناسك وَوُلتَر المعدَم».

لم ينبس بَدِي ببنت شفة، فواصلت الكلام: «هذان لقبيهما».

ثم أضفت: «إنّهما من دَارتماوث Dartmouth».

اظنّ أنّ بَدِي لم يكن مُلماً بالتاريخ، ذاك أنّ فمه تصلب. تأرجح من على الكرسيّ الدوار، دافعاً إيّاه بطريقة عنيفة غير ضروريّة. ثم ألقى بمظروف

أزرق باهت، يحمل شعار جامعة ييل، في حضني.

«هذه رسالة كنت أود أن أتركها لك لو لم تكوني موجودة. إنّها تتضمن سؤالاً يمكنك الإجابة عليه بالبريد. لا أشعر الآن برغبة في طرحه عليك شخصيّاً».

فتحتُ الرّسالة بعد مغادرة بَدِي. كانت دعوة لحضور حفل الطلبة الجُدد بجامعة ييل.

كان وقع المفاجأة عليّ قوياً، فأطلقت العنان لصرختين، راكضة إلى البناية وأنا أصرخ: «إنّي ذاهبة، إنّي ذاهبة، إنّي ذاهبة». وبعد الشمس البيضاء الساطعة التي كانت تغمر الرّواق، حل ظلام دامس، فلم أستطع أن أميّز شيئاً. وجدتني أعانق الطالبة التي كانت تتولى الحراسة. وحين علمت أنّني سوف أحضر حفل الطلبة الجُدد بييل، أخذت تعاملني بدهشة واحترام.

ومن ثَم تبدلت الأحوال في المبنى على نحو غريب. أخذت طالبات السنة الأخيرة بالتحدث إليّ، وكانت إحداهنّ تتولى الرّد على الهاتف، بين حين وآخر، بشكل عفويّ. لم أعد أسمع، خارج باب غرفتي، تلك الملاحظات البذئية الصّاخبة حول النّاس الذين يبددون أزهى أيّام دراستهم الجامعيّة حاشرين أنفوهم بين دفتيّ كتاب.

حسناً، راح بَدِي يعاملني في الحفلة كصديقة أو قريبة.

كنّا نرقص وكأنّ ميلاً يفصل بيننا، حتى أراح ذقنه فجأة على رأسي، أثناء أغنية «الأيّام الخوالي»[19]، كما لو هده التعب. ثم قطعنا في الساعة الثالثة،

19- Auld Lang Syne: قصيدة أسكتلنديّة كتبها روبرت بيرنز سنة 1788، والتي أصبحت أغنية شعبيّة فيما بعد. (المراجع).

عبر الريح الباردة السوداء، الأميال الخمسة عائدين إلى المنزل، حيث كنت أنام، في غرفة المعيشة، على أريكة واطئة جداً. كانت الليلة تكلف خمسين سنتاً بدلاً من دولارين مثل معظم الأماكن التي بأسرّة مناسبة.

شعرت بالرتابة والتفاهة، وكانت رؤى مهشمة تجتاحني.

تخيّلت أنّ بَدِي سيقع في حُبّي في عطلة نهاية الأسبوع تلك، ولن أضطر إلى القلق بشأن الأشياء التي يتوجب عليّ فعلها كل ليلة سبت طيلة ما تبقّى من أيّام السنة. ونحن نقترب من المنزل الذي كنت أقيم فيه، أخبرني بَدِي: «هيّا نذهب إلى مختبر الكيمياء».

كنتُ مشدوهة. «مختبر الكيمياء».

«نعم». مد بَدِي يده ليمسك يدي. «ثمة منظر جميل هناك، خلف مختبر الكيمياء».

كنت على يقين من ذلك، فوراء مختبر الكيمياء مكانٌ كثير التلال تستطيع أن ترى، من فوقه، أضواء بضعة منازل في نيُو هِيفن New Haven.

وقفتُ متظاهرة بالاستمتاع بالمنظر، فيما كان بَدِي يوطد قدميه في الأرض الوعرة. أبقيت عينيّ مفتوحة، حين قبّلني، محاولةً استظهار المسافة التي تفصل بين أضواء البيوت حتى لا أنساها أبداً.

أخيراً، تراجع بَدِي إلى الوراء. «يا للرّوعة!»، قال. «يا لروعةَ ماذا؟» قلتُ، مندهشة. لقد كانت قُبلة قصيرة، جافّة وفاترة، وأذكر أنّني تفكرت في سوء طالعنا حين تشقّقت شفاهنا جرّاء المشي لخمسة أميال في تلك الريح الباردة.

«يا للروعة، أشعر بالسعادة وأنا أُقبّلكِ».

استحييتُ، فلم أقل شيئاً.

«أظنّك تخرجين مع شبّان كثر»، قال بَدِي حينها.

«أظنّ ذلك». لا بُد أنّني كنت قد واعدت الكثيرين طيلة أسابيع السنة.

«حسناً، ينبغي أن أدرس كثيراً».

«وأنا كذلك»، أجبت بسرعة. «ينبغي المحافظة على منحتي الدراسيّة على أيّة حال».

«رغم ذلك، أستطيع تدبّر أمر رؤيتك كل ثلاثة أسابيع».

«هذا رائع». كاد يغمى عليّ وأنا أتحرّق شوقاً للعودة إلى الجامعة وإخبار الجميع بالأمر.

قبّلني بَدِي، مرّة أخرى، أمام عتبة المنزل. وفي الخريف التالي، حين أنهى منحته في كليّة الطبّ، ذهبت لرؤيته، بدل الذهاب إلى ييل. اكتشفت، هناك، كيف كان يخدعني كل تلك السنين، وكم هو منافق.

اكتشفت ذلك في اليوم الذي شاهدنا فيه الطفل وهو يولد.

(6)

واصلت مناشدة بَـدِي كي يريني بعض ما يتسحقّ المشاهدة في المستشفى. هكذا، وفي يوم جمعةٍ، قطعت دروسي، وذهبت إليه لقضاء عطلة مديدة، وكان لي ما أُريد.

بدأت بارتداء معطف أبيض، ثم جلستُ على كرسيّ بلا ظهر أو ذراعين في غرفة تضم أربع جثث، فيما كان بَدِي ورفاقه يشرّحونها. كانت ترتسم على تلك الجثث ملامح غير إنسانيّة فلم تزعجني أبداً. كان لها جلد قاس متيبّس، ذات لون أرجوانيّ يميل إلى السواد، وتنبعث منها رائحة كأنّها لجرار مُخلل عتيقة.

بعد ذلك، أخذني بَدِي إلى ممرّ يحتفظون فيه بقوارير زجاجيّة كبيرة مليئة بأجنّة لم تر النّور أبداً. كان للجنين المحفوظ في القارورة الأولى رأس كبير أبيض يتكور على جسد مُلتوٍ صغير بحجم ضفدع. توالت القوارير لأجنّة يكبر الواحد منها الآخر، حتى كان الجنين المحفوظ في القارورة الأخيرة بحجم طفل عاديّ، وكان يبدو أنّه ينظر إليّ ويبتسم ابتسامة خِنّوص.

كنت فخورة وأنا أحدق في تلك الأشياء المروعة من دون أن يرفّ لي جفن. كانت المرة الوحيدة، التي قفزت فيها من مكاني، حين أحنيت مرفقي على بطن الجثة التي يشرّحها بَدِي لأشاهده وهو يشرّح رئتها. شعرت، بعد دقيقة أو اثنتين، بلفحة تسري في مرفقي، فخطر ببالي أنّ الجثة لا تزال على قيد الحياة، بشكل أو بآخر، فهي لا تزال دافئة، فوثبت من على الكرسيّ وعلامة

تعجُب صغيرة ترتسم على محيّاي. حينئذ، قال بَدِي أن سرّ دفء الجثة عائد إلى سائل حفظ الجثث، فعدت جالسة في مكاني القديم.

أخذني بَدِي، قبل ساعة الغداء، إلى محاضرة حول فقر الدم المنجليّ[20] وبعض الأمراض الأخرى المسبّبة للاكتئاب، حيث كانوا يدفعون المرضى بعربات ذات عجلات إلى المنصّة، يطرحون أسئلة عليهم، ثم يدفعونهم في ذات العربات إلى الخارج، ويقومون بعرض بعض الصور الملونة.

أذكر صورة لفتاة جميلة باسمة، ذات شامة سوداء على خدها. «بعد عشرين يوماً من ظهور تلك الشامة ماتت الفتاة» صرّح الطبيب. صمت الحاضرون دقيقة صمت، ثم قرع الجرس. لم أكتشف، أبداً، طبيعة تلك الشامة، أو سبب موت الفتاة.

ذهبنا، بعد الظهيرة، لحضور عمليّة ولادة.

كان علينا، أولاً، أن نجد خزانة كتانيّة في رواق المستشفى، حيث أخرج بَدِي قناعاً أبيض وبعض الشاش. كان طالب بدين يدرس الطبّ، ضخم مثل سِدنِي غرِينستريت Sydney Greenstreet[21]، يتسكع بالجوار، يرقب بَدِي وهو يلفّ الشاش حول رأسي حتى غطى شعري تماماً ولم تبق سوى عيني تحدقان من القناع الأبيض. أصدر الطالب قهقهة مكبوتة، ثم قال: «على الأقل أمك تحبُكِ».

كنت مشغولة البال— وأنا أفكر بمدى بدانته، وكيف يكون الرجل

20- Sickle-cell anemia: حيث تتخذ كريّات الدم الحمراء شكل منجل. (المراجع).

21- هو الممثل الإنجليزيّ سدني هيوز غرينستريت (1897-1954)، عُرف بـ «الرجل البدين Fat Man» . (المراجع).

تعيساً حين يكون بديناً في مقتبل العمر، فكيف يمكن أن تنحني امرأة فوق تلك البطن الكبيرة لتقبّله— حتى نسيت أن ما قاله ذلك الطالب كان إهانة. وبحلول الوقت الذي ظننت فيه أنّه يعتبر نفسه شخصاً لطيفاً، وفكرت في القول له، ساخرةً، أنّ الأمهات لا يعشقن سوى البدناء، كان قد اختفى.

كان بَدي يتفحص لوحة خشبيّة غريبة معلقة على الحائط. كانت بصفّ من الثقوب يبدأ بثقب بحجم دولار فضيّ وينتهي بواحد بحجم صحن غداء.

«رائع! رائع! ثمة امرأة على وشك الوَضْع في هذه الأثناء».

انتصب، عند باب غرفة الولادة، طالب ضامر، مقوس الكتفين، يدرس الطب، يعرفه بَدي.

«أهلاً، ويل Will» قال بَدي. «مَن يقوم بالعمل هنا؟».

«أنا»، قال ويل عابساً، فلاحظت قطرات عرق صغيرة تتكور فوق جبينه الشاحب العالي. «أنا، إنّها المرّة الأولى».

أخبرني بَدي أنّ ويل طالبٌ في السنة الثالثة، وعليه الإشراف على ولادة ثمانية أطفال قبل أن يتخرّج.

ثم أثارت انتباهنا جلبة عند جهة الممرّ القصوى، حيث كان بعض الرجال في معاطف بلون الزّيزفون وقلنسوات ضيّقة، وبعض الممرضات وهنّ يهرولن نحونا على نحو مضطرب، يدفعن عربة تحمل كتلة بيضاء ضخمة.

«لا ينبغي أن تري هذا المنظر»، همس ويل في أذني. «لن ترغبي في إنجاب طفل إن فعلتِ. يتوجب عليهم أن يمنعوا النساء من مشاهدة ذلك. ستكون نهاية الجنس البشريّ».

انفجرت وَبَدِي ضاحكين، ثم صافح ويل، ودخلنا جميعاً إلى الغرفة.

هالني منظر الطاولة، حيث كانوا يرفعون المرأة، فلم أنبس ببنت شفة. بدت كأنّها طاولة تعذيب مرعبة، بكل تلك الرِّكابات المعدنيّة التي تظهر في الجو، في جهة منها، وكل أنواع المعدات والأسلاك والأنابيب، التي لا أستطيع تمييزها، في الجهة الأخرى.

وقفت مع بَدِي عند النافذة، على مسافة قصيرة من المرأة، حيث كنّا نحظى بمنظر جيّد.

كان بطن السيّدة يتطاول إلى الأعلى، فلم أستطع تبيان وجهها، أو الجزء الأعلى من جسمها على الإطلاق. كانت تبدو مجرّد بطن عنكبوت ضخمة بساقين بشعتين نحيلتين مرفوعتين في الركابين العاليين. لم تكفّ، طيلة الولادة، عن إحداث تلك الجلبة غير الآدميّة.

أخبرني بَدِي، لاحقاً، أنّها كانت تحت تأثير مخدر سيجعلها تنسى كل آلامها، وأنّها لم تدر ما كانت تفعل حين سَبَّت وتأوهت، لأنّها كانت غارقة في خُدَارٍ[22] ما.

فكرت حينها أنّ ذلك يبدو كأحد العقاقير التي قد يخترعها الإنسان. ثمة امرأة تكابد آلاماً عظيمة، ومن الواضح أنّها تشعر بكل جزء منها، وإلاّ لما تأوهت على ذلك النحو. سوف تذهب إلى البيت مباشرة وتحبل من جديد، لأنّ العقار سيجعلها تنسى كيف كانت آلامها، حين كان ينتظر — طيلة الوقت، في جزء سريّ من جسمها — رواقُ الألمِ، الطويلُ المصْمَتُ، لينفتحَ وينغلق عليها

22- twilight sleep (وهي ترجمة إنجليزيّة غير دقيقة للعبارة الألمانيّة Dämmerschlaf): خَدَرٌ تخلفه حقن المورفين والأسكوبولامين، والتي تستخدم لتخفيف آلام المخاض والوضع. (المراجع).

من جديد.

كان الطبيب الرئيس الذي يشرف على عمل ويل يواصل حث المرأة: «ادفعي إلى الأمام، سيّدة تُومُوليلو Tomolillo، ادفعي إلى الأمام، أنتِ فتاة طيّبة، ادفعي إلى الأمـام». أخيراً، وعبر الموضع الحليق المنفرج بين ساقيها، والمتقع من كثرة المطهِّرات، رأيتُ شيئاً أسود زَغِباً يخرج.

«رأس الطفل»، همس بَدِي وأنين المرأة يطغى على صوته.

غير أنّ رأس الطفل علق لسبب ما، فأخبر الطبيب ويل بوجوب إحداث شَقّ ما. سمعتُ صوت المقصّ وهو يقترب من جلد المرأة كما لو كان ثوباً، فأخذ الدم يسيل— دمٌ زاهٍ قويّ. ثم بدا الطفل كأنّه يخرج دفعة واحدة ليسقط في يديّ ويل. كان بلون خوخة زرقاء، مذرواً بمادة بيضاء ويعلوه الدم، فواصل ويل حديثه بصوت مرتعد: «سأوقعه، سأوقعه، سأوقعه».

«كلاّ، لن تفعل»، قال الطبيب، آخذاً الطفل من بين يديّ ويل وراح يُمسده، فزال اللون الأزرق وبكى الطفل بصوت بائس أجش، وكان صبيّاً.

أول ما قام به الطفل هو التبول في وجه الطبيب. قلت لبَدي ، لاحقاً، كيف يمكن أن يحدث أمر كهذا، لكنّه قال إن ذلك ممكن رغم نُدرته.

وما إن ولد الطفل حتى توزّع الأشخاص، الذين في الغرفة، إلى فريقين. كانت الممرضات يضعن علامة في معصم الوليد، ويمسحن عينيه بقطن لُفّ على طرف عُود، ثم دثرنه ووضعنه في سرير خفيف نقّال يغطي جنباته قماش القنّب، فيما أخذ الطبيب وَويل يخيطان شقّ المرأة بإبرة وخيط طويل.

أعتقد أنّ أحداً ما قال: «إنّه صبيّ، سيّدة توموليلو»، لكنّ المرأة لم تُجب أو ترفع رأسها.

«حسناً، كيف كان الأمر؟»، سألني بَدِي بطريقة تنم عن الرضا، ونحن نعبر الساحة الخضراء المحوطة بالبنايات من كل جهة، ذاهبين إلى غرفته.

«رائع»، قلتُ. «أستطيع رؤية شيء، كهذا، كل يوم».

لم أرغب في سؤاله إن ثمة طرقاً أخرى لإنجاب الأطفال. لسبب ما، كان الشيء الوحيد المهم، بالنسة إليّ، هو رؤية الوليد يخرج من أحشائي، والتأكد أنّه جزء منّي فعلاً. وإن توجب عليّ مكابدة كل ذلك الألم، فلا بُد أن أظل مستيقظة.

دائماً ما كنتُ أخال نفسي واضعة مرفقيّ على طاولة الولادة بعد أن ينتهي كل شيء– منهكة تماماً، بلا مساحيق تجميل، جرّاء تلك المحنة الرهيبة، ولكن مبتسمة ومشرقة، وشعري يسترسل حتى الخصر، محاولة الوصول إلى طفلي الأول وهو يتلوى، منادية عليه باسمه، أيّاً كان اسمه.

وحتى لا ينقطع خيط الحديث، سألتُ بَدِي: «لِمَ كان مغطىً بالطحين؟»، فأخبرني عن المادة الشمعيّة التي تحفظ جلد الوليد.

وحين عندنا إلى غرفة بَدِي، والتي لم تذكرني سوى بصومعة راهب، بجدرانها العارية وسريرها العاري وأرضيّتها العارية والمكتب المكتظ بمجلدات [كتاب] التشريح لِغراي Gray، وبعض الكتب السميكة المخيفة الأخرى، أشعل بَدِي شمعة وفتح زجاجة دُوبُوني. تمددنا، جنباً إلى جنبٍ، في السرير، وراح بَدِي يرتشف نبيذه، فيما قرأت بصوت مرتفع [قصيدة] «في مكان ما لم أرتحل إليه إبداً» وقصائد أخرى من كتاب جلبته معي.

قال بَدِي أنّه لا بُد أن يكون في الشعر شيء ما حتى تقضي فتاة مثلي كل أيّامها منكبّة على قراءته، لذا فقد كنتُ أقرأ له، في كل مرّة نلتقي فيها،

بعضَ الأشعار، مفسرة ما تحمله بين ثناياها. كانت فكرةَ بَدِي. كان دائماً يرتب لقاءاتنا في العطل كي لا نندم على إهدار وقتنا أبداً. كان والد بَدِي مُعلماً، وأظنّه يستطيع أن يصبح مثل والده أيضاً، فقد كان يحاول تفسير الأشياء لي وتقديم معرفة جديدة دوماً.

فجأة، بعد أن أنهيت قراءة إحدى القصائد، قال: «إسترِ، أَرأيتِ رجلاً من قَبْل؟».

كانت طريقته في القول قد أوحت إليّ أنّه لا يقصد رجلاً عاديّاً، أو رجلاً على العموم، بل رجلاً عارياً.

«كلا»، قلتُ. «مجرّد تماثيل».

«حسناً، ألا تظنّين أنّك ترغبين في مشاهدتي؟».

لم أدر ماذا أقول. بدأت أمي وجدتي، مؤخراً، في التلميح إلى بَدِي ويلارد، وكيف أنّه صبيّ رقيق ومهذب، يتحدر من عائلة رائعة ومهذبة، وكيف يعتقد كل من يؤم الكنيسة أنّه صبيّ مثاليّ، وكيف أنّه رفيق بوالديه وبكبار السنّ، ناهيك عن أنّه رياضيّ ووسيم وذكيّ.

في الواقع، كان كل الذي سمعته عنه يسير في ذلك الاتجاه، وكيف أنّه من ذلك النوع الذي يتوجب على الفتاة أن تظل رائعة وطاهرة من أجله. لذا، لم أر ضيراً في أيّ شيء يصدر عنه.

«حسناً، لا بأس، أعتقد ذلك»، قلتُ.

حدقت في بَدِي وهو يفك أزرار بنطاله المصنوع من قماش التشينو، ومن ثَمَ وهو يخلعه ويضعه على كرسيّ، ثم وهو يخلع سرواله الداخليّ المصنوع من شيء يشبه شبكة صيد من النايلون.

«إنّه رائع»، راح يُفسر، «تقول أمي إنه سروال قابل للغسل بسهولة».

ثم انتصب أمامي، فواصلت التحديق فيه. كان الشيء الوحيد الذي تبادر إلى ذهني حينها هو عنق ديك روميّ وحوصلته فشعرت بالكآبة.

بدا بَدِي متألماً لأنّني لم أقل شيئاً. «يتوجب عليك أن تعتاديني هكذا»، قال. «الآن دعيني أراكِ».

بَيدَ أنّ التعرّي أمام بَدِي قد أثارني. لقد بدا شبيهاً بالتقاط صورة لي في الكليّة بوضعيّات مختلفة، حيث سيتوجب عليّ أن أقف عارية أمام الكاميرا، مدركة- طيلة الوقت- أنّ صورتي العارية، سواء كانت كاملة أم صورة جانبيّة، ستأخذ مكانها في ملفّات حجرة الألعاب الرياضيّة، حيث ستُعلَمُ بأحرف أ ب ت أو ث، اعتماداً على مدى الوضعيّة المستقيمة التي اتخذتها.

«أوه، في وقت آخر»، قلتُ

«لا بأس». ارتدى بَدِي ثيابه ثانيةً.

ثم قبّلنا بعضنا وتعانقنا لبرهة فشعرت بتحسن طفيف. احتسيت ما تبقّى من نبيذ دوبوني، جالسةً القرفصاء على حافّة سرير بَدِي، ثم سألته أن يعطيني مشطاً. رحت أسرّح شعري تاركة إيّاه أن يتهدل فوق وجهي كي لا يراه بَدِي. ثم، فجأة، قلتُ: «هل سبق وأن أقمت علاقة عاطفيّة مع إحداهنّ، بَدِي؟».

لم أعرف ما الذي دفعني إلى قول ذلك، لكنّ الكلمات خرجت من فمي غصباً. لم يخطر ببالي أبداً أن يكون لِبَدِي ويلارد علاقة عاطفيّة مع فتاة ما. توقّعت أن يقول: «كلاّ، لقد صنت نفسي لوقت زواجي من عفيفة وعذراء مثلك».

ولكنّه لم يقل شيئاً. لقد احمرّ وجهه من شدة الخجل.

«حسناً، هل سبق وأن فعلت ذلك؟».

«ماذا تقصدين بِعلاقة عاطفيّة؟» سأل بَدِي بصوت أجوف.

«هل سبق وأن ذهبت إلى السرير مع إحداهنّ؟»، ثم واصلت تسريح شعري، على نحو متواتر، فوق جانب وجهي قرب بَدِي، فشعرت بالشعيرات الصغيرة المكهربة وهي تلتصق بوجنتيّ حتى رغبت في الصراخ: «توقّف، توقّف، لا تخبرني، لا تقل شيئاً». لكنّي لم أفعل، وقفتُ ساكنة من دون حراك.

«حسناً، نعم، كان لي علاقة ما»، قال بَدِي أخيراً.

كاد يغمى عليّ. لقد جعلني أشعر — ومنذ الليلة الأولى التي قبّلني فيها، وأخبرني بضرورة أن أخرج مع شبّان كثر — أنّني أكثر إثارة وخبرة منه، وأنّ كل شيء قام به، كالعناق والتقبيل والملاطفة، كنتُ أنا التي جعلته يشعر كأنّه يقوم به من حيث لا يدري، كان من وحي اللحظة.

أدركت الآن أنّه كان يتظاهر بالبراءة طيلة الوقت.

«حدثني عن ذلك». سرّحت شعري على مهل، شاعرة كأنّ أسنان المشط تنغرس في خدي عند كل حركة. «من كانت؟».

بدا بَدِي مرتاحاً لأنّني لم أغضب. بدا أكثر ارتياحاً لوجود شخص آخر يمكنه إخباره كيف تعرّض للغواية.

بالطبع، لا بُد أنّ إحداهنّ قد أغوت بَدِي، فهو لم يبادر، ولم يكن ذلك ذَنبه. كان الأمر يتعلق بنادلة الفندق حيث عمل مساعداً لها، في الصيف الماضي، بِكَاب كُود. لاحظها بَدِي وهي تحدق فيه على نحو غريب، وتدفع نهديها نحوه في خضم فوضى المطبخ، حتى سألها ذات يوم عن الأمر، فنظرت

مباشرة في عينيه، قائلة: «أريدك».

«مع بعض البقدونس؟»، ضحك بَدِي ببراءة.

«كلاّ»، قالت. «بل في ليلة ما».

وهكذا فقد بَدِي صفاءه وعذريّته.

اعتقدت، بداية، أن بَدِي قد طارح النادلة الغرام لمرّة واحدة فقط، غير أنّني حين سألته عن العدد، لمجرّد التأكد، قال إنه لا يذكر، ولكن بضع مرّات في الأسبوع طيلة ما تبقّى من الصّيف. ضربت ثلاثةً بعشرةٍ فكانت ثلاثين، وهو عدد بدا غير منطقيّ أبداً.

ثم تجمد في داخلي شيءٌ ما.

وحين عدت إلى الجامعة، رحت أسأل طالبة هنا، وأخرى هناك، عما ستفعله إن فاجأها شابٌ تعرفه، وفي خضم علاقتها به، قائلاً إنّه قد ضاجع نادلة ساقطة ثلاثين مرّة ذات صيف. غير أنهنّ قُلن إنّ ذلك هو ديدن معظم الشباب، ولا تستطيع الفتاة اتهام ذلك الشابّ صراحة بأيّ شيء ما لم تكن مرتبطة به أو مخطوبة له.

في الواقع، لم تكُن فكرة مضاجعة بَدِي لإحداهُنّ هي ما أقض مضجعي. أعني أنّني كنت قد قرأت حول كل أنواع الأشخاص الذين ينامون مع بعضهم، ولو كان الأمر يتعلق بشخص آخر لما سألته ببساطة عن التفاصيل الأكثر تشويقاً، وربّما كنت سأنام مع شخص ما حتى تكون الأمور متساوية بيننا، لكنّني لم أعُد أفكر في ذلك أبداً.

ما لم أستطع احتماله هو تظاهر بَدِي أنّني جذابة ومثيرة وأنّه كان عفيفاً، فيما كان خلال ذلك الوقت يقيم علاقة مع تلك النادلة الساقطة ولا بُد أنه كان

كمن يسخر منّي.

«ما رأي أمك في تلك النادلة؟» سألتُ بَدِي في عطلة نهاية الأسبوع تلك.

كانت علاقة بَـدِي بأمه وثيقة على نحو مدهش. فقد كان دائم الاستشهاد بكل ما تقوله حول العلاقة بين الرجل والمرأة، وكنتُ أعرف أنّ السيّدة ويلارد متعصّبة حقيقيّة بشأن عذرية المرأة والرجل على حد سواء؛ حين ذهبت إلى منزلها لأول مرّة لتناول طعام العشاء، رمقتني بنظرة فاحصة ماكرة، فأدركت أنّها تحاول معرفة إن كنت عذراء أم لا.

ومثلما توقّعت، شعر بَدِي بالحرج. لكنّه سرعان ما اعترف قائلاً: «لقد سألتني أمي عن غلاديس Gladys».

«حسناً، ماذا قلت لها؟».

«أخبرتها أنّها ليست مرتبطة، بيضاء وفي الحادية والعشرين».

أدركت الآن أن بَدِي لن يُكلم أُمه بمثل تلك الوقاحة من أجلي. كان دائماً يُردد كيف قالت: «يرغب الرجل في رفيقة وترغب المرأة في الأمان المُطلَق»، و«ليس الرجل سوى سهم نحو المستقبل والمرأة هي المكان الذي يُطلَق منه ذلك السهم»، حتى جعلني أشعر بالتعب.

وفي كل مرّة حاولت فيها مجادلته، كان يقولُ إنّ أمه لا تزال تجد المتعة مع أبيه، أليس ذلك رائعاً بالنّسبة إلى أناس في سنّهم؟ مما يعني أنّها تدرك تماماً ما تتحدث عنه.

حسناً، قرّرت للتو أن أترك بَدِي ويلارد من دون رجعة، ليس لأنّه قد طارح تلك النادلة الغرام، وإنّما لعدم امتلاكه الشجاعة اللازمة للاعتراف بذلك

مباشرة، أمام الجميع، ومواجهة الأمر كجزء من شخصيّته، حين رنّ الهاتف الذي في الرواق وقال شخص ما بصوت رتيب عارف: «إنّها لكِ يا إِستر، إنّها من بوسطن».

كان بإمكاني أن أفطن فوراً أن ثمة خطباً ما، فَبَدِي هو الشخص الوحيد الذي أعرفه في بوسطن، ولم يسبق له أن هاتفني من مكان بعيد، لأنّ ذلك يُكلف الكثير قياساً بالرسائل. ذات مرّة، حين أراد أن يبعث لي رسالة مستعجلة، راح يسأل في كليّة الطب إن كان ثمة من سيذهب إلى كليّتي في نهاية الإسبوع، وبالتأكيد كان ثمة أحدٌ ما، فسلم له الرّسالة التي تسلمتها في نفس اليوم. لم يضطر حتى لدفع ثمن طابع البريد.

وكان ذلك الشخص هو بَدِي على أيّة حال. أخبرني أنّ فحص الأشعة السنويّ لصدره قد أظهر أنّه مصاب بداء السل، وأنّه سيذهب إلى مكان ما في آديروندراكس Adirondacks[23] بفضل منحة دراسيّة تمنح لطلبة كليّة الطب المصابين بالسل. ثم تحدث عن أنّني لم أكتب له منذ عطلة نهاية الإسبوع تلك، آملاً أن يكون كل شيء على ما يرام بيننا، كما ناشدني أن أكتب إليه مرّة في الإسبوع على الأقل، وأن أذهب لزيارته هناك في عطلة أعياد الميلاد.

لم يسبق لي أن سمعت بَدِي يجأر بالشكوى. كان فخوراً بصحته المثاليّة، ودائماً ما يخبرني أنّي فتاة سايكوسوماتيّة psychosomatic[24] حين تلتهب جيوبي الأنفيّة وتنسد فأعجز عن التنفُّس. اعتقدت أنّ ذلك موقف غريب من طبيب، وربّما عليه أن يدرس ليصبح طبيباً نفسانيّاً بدلاً من ذلك، غير

23- سلسلة جبليّة في شمال شرق نيو يورك. (المراجع).

24- أعراض جسديّة ناجمة عن اعتلال عقليّ أو انفعاليّ. (المراجع).

أنّني لم أجرؤ على إخباره بالأمر.

أخبرت بَدِي بحزني الشديد بشأن إصابته بداء السل ووعدته أن أكاتبه، بيد أنّي حين أغلقت السماعة لم أشعر بشيء من الأسى أبداً. بل انتابني شعور ارتياح رائع.

ظننت أنّ داء السل يمكن أن يكون مجرّد قصاص على الحياة المزدوجه التي عاشها بَدِي، وعلى شعوره بالتفوق على الآخرين. ثم فكرت أنّه من غير المناسب أن أعلن لجميع من في الكليّة عن قطع علاقتي بِبَدِي لأشرع بذلك العمل المُمِل: المواعدة، مرّة أخرى.

أخبرت الجميع أنّ بَدِي مصاب بالسل، وأنّنا قد أبرمنا الخطوبة فعليّاً، وحين كنت ألازم غرفتي للمطالعة، في ليالي السبت، كانت الطالبات في غاية اللُطف معي لاعتقادهنّ أنّني شجاعة جداً بحيث أتصرّف على ذلك النّحو لأُداري قلباً منفطراً.

(7)

كان قسطنطين، بلا شك، قصيراً جداً، لكنّه كان وسيماً على طريقته الخاصّة، بشعر بنيّ لامع وعينين شديدتيّ الزرقة وتقاسيم مُتحفّزة، مفعمة بالحياة. كاد أن يكون أميركيّاً— كان شديد السُمرة، ويمتلك أسناناً رائعة، لكنّني أستطيع القول—صراحة— إنه لم يكن كذلك. فقد كان يتملك ما لم يمتلكه أيّ أميركيّ سبق أن التقيت به، ألا وهو الحَدس.

لقد خمن قسطنطين، منذ البداية، أنّني لم أكُن ممن تولت السيّدة ويلارد الاعتناء بهم. كنتُ أرفع حاجباً هنا، وأطلق ضحكة صغيرة جافّة هناك، وسرعان ما كنّا ننتقد السيّدة ويلارد بقسوة، ثم فكرت: «لن يكترث هذا القسطنطين إن كنتُ فارعة القامة ولا أعرف لغات كافية ولم يسبق لي أن ذهبت إلى أوروبّا، سيدرك— من خلال كل تلك الأشياء— أيّة فتاة أنا».

أقلني قسطنطين إلى مبنى الأمم المتحدة بسيّارته الخضراء القديمة ذات السقف المطويّ، والتي لها مقاعد جلديّة بنيّة، متشقّقة ومريحة. حدثني أنّ سمرته ناجمة عن لعب التنس، وحين كنّا نجلس قرب بعضنا، ونحن نهبط الشوارع في واضحة النّهار، أمسك بيدي وعصرها، فغمرتني سعادة لم أعهد مثلها مُذ كنت في التاسعة أركضُ، على طول الشواطئ البيضاء الحارّة، رفقةَ أبي، في الصيف السابق لموته.

وفيما كنّا نجلس بإحدى القاعات الهادئة في مقرّ الأمم المتحدة، قرب صبيّة روسيّة متجهّمة، نامية العضلات، لا تضع أيّة مساحيق تجميل، والتي

كانت مترجمة فوريّة مثل قسطنطين، تبادر إلى ذهني مدى غرابة كيف أنّني لم أشعر بالسعادة الحقيقيّة إلاّ حين كنت في التاسعة من عمري.

بعد ذلك- ورغم فرق الكشافة ودروس البيانو والرسم بالألوان المائيّة ودروس الرقص ومخيّم رحلة الإبحار بالمراكب الشراعيّة (والتي جاهدت أمي كي لا أحرم منها، والكليّة) حيث كنّا نحتشد في طواقم في السديم قُبيل الإفطار، وفطائر الشوكولاته، والأفكار الجديدة التي تلمع في رؤوسنا ثم تخبو كل يوم- لم أعرف السعادة الحقّة مرّة أخرى.

حدقت في الصبية الروسيّة، في بزّتها الرماديّة بصداريتها التي تحوي صفّين من الأزرار، وهي تلفظ العبارة تلو الأخرى، على نحو سريع، بلغتها المجهولة- أخبرني قسطنطين أنّ ذلك هو الجزء الأصعب، لأنّ الرّوس لا يمتلكون ذات العبارات التي نملكها- فتمنّيت من كل قلبي أن أزحف إلى داخلها، وأقضي ما تبقّى من حياتي وأنا ألهج بالعبارة تلو الأخرى. لن يجعلني ذلك أكثر سعادة، ولكنّه سيكون إضافة ضمن إضافات أخرى في سجل حافل بالإنجازات.

ثم بدا قسطنطين، والمترجمة الروسيّة، وزمرة الرجال السود والبيض والصُّفر، الذين يتجادلون، في الأسفل، هناك، خلف ميكروفوناتهم التي تحمل إشارات خاصّة، كأنّهم يتداحون بعيداً. رأيت أفواههم وهي تنفغر وتُطبَق بلا صوت، كم لو كانوا يجلسون على ظهر سفينة مغادرة، تاركينني، وحيدةً، في خضم صمت ثقيل.

رحتُ أُعدد كل الأشياء التي لم أقدر عليها.

بدأت بالطبخ.

كانت جدتي وأمي طباختين ماهرتين فتركتُ كل شيء لهما. كانتا تحاولان تعليمي طريقة إعداد هذا الطبق أو ذاك، لكنّني كنتُ أكتفي بإلقاء نظرة والقول: «حسناً، حسناً» فيما تنساب التعليمات عبر رأسي كالماء. وعادة ما كنتُ أتلف ما أعددته كي لا يُطلَب منّي القيام بذلك ثانيةً.

أذكرُ جُودِي Jody، صديقتي الحميمة الوحيدة في الكليّة أثناء سنتي الدراسيّة الأولى، وهي تُعد لي البيض المخفوق في بيتها ذات صباح. بدا الطبق شهيّاً على نحو استثنائيّ، وحين سألتها إن وضعت شيئاً إضافيّاً، قالت إنها أضافت الجبن ونكهة الثوم. سألتها عمن علمها ذلك، فقالت لا أحد، ولكنّه خطر ببالها على الفور. كانت جودي عمليّة وتدرس علم الاجتماع.

لم أعرف لغة الاختزال أيضاً.

وكان ذلك يعني أنّني لن أحظى بوظيفة جيّدة بعد التخرُّج. كانت أمي تخبرني دوماً أن لا أحد سيرغب في توظيف فتاة حاصلة على إجازة في اللغة الإنجليزيّة فقط. ولكنّ الأمر سيكون مختلفاً تماماً إن عرفت لغة الاختزال أيضاً. حينها سيرغب الجميع في توظيفها. سيقع عليها الاختيار من بين كل الشبان المتفوقين، وستدون [بلغة الاختزال] رسائل مثيرة.

كانت المشكلة تكمن في أنّني أبغض خدمة الرجال بأيّ شكل كان. كنت أرغب في أن أُملي رسائلي المثيرة الخاصّة. ناهيك عن أنّ تلك الرموز الاختزاليّة الصغيرة، في الكتاب الذي أرتنيه أمي، بدت مزعجة [كأحرف معادلات السيّد مانزي] تماماً.

راحت قائمتي تطول وتطول . . .

كنتُ راقصة رديئة. لم أستطع المحافظة على الإيقاع. ولم يكن لديّ أيّ

إحساس بالتوازن، وحين توجب علينا أن نمشي في حصّة الرياضة على لوح خشبيّ وأيدينا ممدودة وكتابٌ فوق رؤوسنا، كنت أقع دوماً. كما كنت عاجزة عن ركوب الخيل أو التزحلق على الجليد (وهما الشيئان اللذان رغبت فيهما بشدة) لأنّهما يكلفان مالاً كثيراً. ولم أستطع تلكم الألمانيّة أو قراءة العبريّة أو كتابة الصينيّة. ناهيك عن أنّني كنت أجهل أين تقع تلك البلدان القصيّة، التي يمثلها رجال الأمم المتحدة القابعون أمامي، على الخريطة.

لأول مرّة في حياتي— وأنا جالسة، هناك، في قلب بناية الأمم المتحدة العازل للصّوت، بين قسطنطين الذي يستطيع لعب التنس والترجمةَ الفوريّة، على حد سواء، والصبيّة الروسيّة التي تعرف عبارات كثيرة— شعرتُ أنّني على غير ما يرام على نحو مروع. كانت المشكلة تكمن في أنّني كنت دائماً على غير ما يرام طيلة الوقت. لكنّني لم أفكر مسبقاً في الأمر.

كان الشيء الوحيد الذي أتقنه هو الفوز بالجوائز والمنح الدراسيّة، وكانت تلك الفترة على وشك الانتهاء.

شعرتُ كما لو أنّني حصان سباق في عالم بلا حلَبات سباق، أو أحد أبطال كرة القدم في الجامعة، وهو يُواجَه— فجأةً— ببزّات رجال الأعمال وعالم وول ستريت، وقد ولت أيّام مجده، لتصبح مجرّد كأس ذهبيّة صغيرة على رفٍّ مُستوقَدٍ، وقد نُقش عليها تاريخ يشبه تاريخاً نُقش على شاهدة قبر.

شاهدتُ حياتي تتفرّع أمامي مثل شجرةِ تينِ تلكَ الحكاية.

ومن طرف كل غصن، مثل تينة أرجوانيّة ممتلئة، كان مستقبلٌ رائعٌ يومئُ إليّ ويغمر لي بطرف عينيه. كانت إحدى التينات زوجاً ومنزلاً سعيداً وأطفالاً، وأخرى شاعرةً مشهورة، وثالثة أستاذة جامعيّة متميّزة، ورابعةٌ إِي

جي Ee Gee، المحرّرة المدهشة، وخامسة أوروبّا وأفريقيا وجنوب أميركا، وسادسة قسطنطين وسقراط وأتيلا وحفنة عشاقٍ آخرين بأسماء غريبة ومهن غير عاديّة، وسابعة بطلة الفريق الأولمبيّ للسيّدات، وكانت فوق كل تلك الثمار ثمارٌ أخرى لم أستطع تميزها.

رأيتُني جالسةً في مُنشَعب أغصان شجرة التين تلك، أتضور جوعاً حد الهلاك، ذاك أنّني لم أقرّر أيّ الثمار أختار. كنت راغبة في كل واحدة منها، غير أنّ اختيار واحدة يعني التخلي عن الأخريات. جلست هناك، عاجزة عن اتخاذ القرار المناسب، فراحت الثمار تذبل وتسود؛ ثم سقطت على الأرض، واحدة واحدة، بين قدميّ.

كان لمطعم قسطنطين رائحة الأعشاب والتوابل والقشدة الحامضة. لم يسبق لي، طيلة الوقت الذي قضيته في نيو يورك، أن صادفت مطعماً مثله. لم أعثر سوى على مطاعم هِڤِنلِي هَامبُرغَر Heavenly Hamburger التي تقدم شطائر الهامبرغر الضخمة وحساء اليوم وأربعة أصناف من الحلويات الفاخرة على منضدة نظيفة جداً تقابل مرآة صقيلة طويلة.

كان علينا، كي نصل إلى ذلك المطعم، أن نهبط تسع درجات يغشاها ضوء خافت في مكان يشبه القبو.

كانت مصلقات رحلات تغطي الجدران المطلية بلون أسود كالدخان، على غرار كل النوافذ التي تطل على البحيرات السويسريّة والجبال اليابانيّة والمروج الأفريقيّة، وشموع في قوارير من زجاج مغبّر، كما لو كانت تذرف، منذ قرون، شمعَها الملون الأحمرَ فوقَ الأزرق وفوقَ الأخضرِ في شريط مخرّم ذي أبعاد ثلاثيّة رائعة، وهي تطرح دائرة من ضوء حول كل طاولة حيث تطفو

الوجوه وتتورّد وتتوهّج مثلها.

لم أدر ما أكلت، لكنّ شعوراً بالتحسُن غمرني بعد اللقمة الأولى. تبادر إلى ذهني أنّ رؤياي المتعلقة بشجرة التين، وكل تلك التينات الممتلئة التي ذبلت وسقطت على الأرض، ناجمة عن الخواء الهائل لمعدة خاوية.

واصل قسطنطين إعادة ملء كأسينا بنبيذ إغريقيّ لذيذ له طعم لحاء الصّنوبر، فوجدتني أخبره كيف أنّني كنت عازمة على تعلم الألمانيّة والذهاب إلى أوروبّا لأكون مراسلة حربيّة مثل ماغِي هِغِنز Higgins.

انتابني شعور رائع حين وصلنا إلى الزّبادي ومربّى الفراولة فقرّرت السماح لقسطنطين بإغوائي.

فمنذ أن أخبرني بَدِي ويلارد عن تلك النادلة، وأنا أفكر بالنّوم مع أحد ما. فالنّوم مع بَدِي لن يغيّر في الأمر شيئاً لأنّه سيكون متفوقاً عليّ، لذا يجب أن أفعل ذلك مع شخص غيره.

كان الشخص الوحيد الذي ناقشته في أمر الذهاب معه إلى السرير جنوبيّاً متهوراً معقوف الأنف يدرس في ييل، والذي حل بالكليّة، في إحدى عطل نهايات الإسبوع، ليجد أنّ رفيقته قد هربت مع سائق تاكسي في اليوم السابق. وبما أنّ الفتاة كانت تقطن في المنزل الذي كنت أسكن فيه، وبما أنّني كنت الوحيدة، هناك، في تلك الليلة، فقد كان عليّ أن أُروح عنه.

وفي مقهى محليّ، يقع في كشك متوارٍ عن الأنظار، ذي جدران خشبيّة عالية حُفِرت عليها أسماء مئات الأشخاص، احتسينا عدة فناجين قهوة، واحداً تلو الآخر، وتحدثنا بصراحة عن الجنس.

قال هذا الشابّ (والذي كان اسمه إيريك Eric) أنّه يعتبر الطريقةَ التي

تقف فيها فتيات كليتي، في الشرفات، تحت الأضواء، وفي الأجمات، على مرأى الجميع، وهنّ يتعانقن على نحو جنونيّ، قبيل «ناقوس الغروب»[25]، في الساعة الواحدة، حتى يراهنّ كل من يمرّ بالجوار، أمراً مقزّزاً. ملايين السنين من التطوُر– قال إيريك بمرارة– وماذا نحن؟ حيوانات.

ثم أخبرني إيريك كيف نام مع امرأة لأول مرّة.

كان قد ذهب إلى مدرسة تحضيريّة في الجنوب متخصّصة في تعليم الرجال مبادئ الشخصيّة المثاليّة، حيث كان يتوجب على الطالب– وفقاً لقانون متعارف عليه– أن يتعرّف على امرأة ما قبيل التخرُّج. أن يتعرّف عليها بالمعنى الإنجيليّ للكلمة، قال إيريك.

هكذا، وفي يوم سبت، استقل إيريك وبعض زملائه في الدراسة حافلة إلى أقرب مدينة، وقاموا بزيارة ماخور شهير. لم تتجشم العاهرة عناء خلع ملابسها. كانت امرأة بدينة، في منتصف العمر، ذات شعر مصبوغ بالأحمر، وشفتين غليظتين على نحو مريب، وجلد بلون جلد الجرذان. لم تكن راغبة في إطفاء الضوء، فضاجعها أسفل مصباح بقوة خمسة وعشرين واطاً، ملطخ بالذباب. لم يكن الأمر مثلما تصوره. كان مضجراً كالذهاب إلى المرحاض.

قلتُ ربّما إن أحبّ امرأة ما فلن يبدو الأمر باعثاً على الضجر، لكنّه قال إن تلك المثاليّة ستنهار حين يفكر أنّها ستكون مجرّد حيوانة كالأخريات، لذا فإنّه لن يذهب إلى السرير مع المرأة التي سوف يحبّ. سيذهب إلى عاهرة إن لزم الأمر، مُبقياً المرأة التي أحبّ بمنأى عن كل تلك العمليّة القذرة.

25– ناقوس الغروب curfew: ناقوس كان يقرع عند ساعة معيّنة من الليل لإشعار الناس بضرورة إطفاء الأضواء (المراجع).

تبادر إلى ذهني، لحظتئذ، أنّ إيريك سيكون شخصاً مناسباً أذهب معه إلى الفِراش، لا سيّما وأنّه قد جرّب ذلك من قبل. لم يَبْدُ بذيئاً، أو سخيفاً، حين يتحدث عن الجنس، خلافاً للشبان العاديين. غير أنّ إيريك كتب لي حينها رسالة يقول فيها أنّه يعتقد أنّ بإمكانه أن يحبّني، فأنا ذكيّة وساخرة ولي ملامح طيّبة، مثل ملامح أخته الكبرى على نحو مدهش؛ فعرفت أن لا أمل يرتجى، فأنا من النّوع الذي لن يذهب معه إيريك إلى الفراش أبداً، فكتبت له قائلة إنّني على وشك الزّواج بمن أحبّ منذ أيّام الصّبا.

وكلما تفكرت في الأمر، راقت لي فكرة أن يغويني مترجم فوريّ في مدينة نيو يورك. بدا قسطنطين ناضجاً ومراعياً لمشاعر الآخرين تماماً. فهو لن يتبجح في الحديث عن ذلك أمام الذين أعرفهم، على النحو الذي يتبجح فيه شبّان الكليّة أمام من يسكنون معهم، أو أمام أصدقائهم في فريق كرة السلة، كلما طارحوا فتاة الغرام في المقاعد الخلفيّة للسيّارات. وثمة مفارقة لطيفة في النوم مع رجل عرّفتني إليه السيّدة ويلارد، كما لو أنّها ستلام على ذلك بطريقة غير مباشرة.

وحين سألني قسطنطين إن كنت راغبة في الذهاب إلى غرفته لسماع بعض شرائط [موسيقى] البالالايكا[26] balalaika، تبسمت في سرّي. فلطالما أخبرتني أمي بعدم الذهاب— تحت أيّ ظرف كان— مع رجل إلى غرفته بعد سهرة في الخارج، فذلك لن يعني سوى شيء واحد فقط.

«أنا مغرمة بموسيقى البالالايكا»، قلتُ.

كان لغرفة قسطنطين شرفة تطل على النهر، فاستطعنا سماع أصوات

26- آلة موسيقيّة روسيّة تشبه الطنبور. (المراجع).

زوارق القَطْر في العتمة. شعرت بالإثارة والرّقّة واليقين التام بشأن ما أنا عازمة على فعله.

أدركتُ احتماليّة أن أحبل، غير أنّ تلك الفكرة كانت تلوح بعيدة ولم تؤرّقني أبداً. لا طرقَ مؤكدة لتلافي الحبَل، كما تشير إلى ذلك المقالةُ التي اقتطعتها أمي من مجلة رِييدَرز دَايجِست Reader's Digest، وأرسلتها إليّ بالبريد إلى الكليّة. كانت تلك المقالة بعنوان «دفاعاً عن العِفّة»، كتبتها محامية متزوجة وذات أطفال.

ذكرت المقالة كل الأسباب الموجبة كي لا تنام الفتاة مع أيّ أحد سوى زوجها، ولا يكون ذلك إلاّ بعد الزواج فقط.

تركزت المقالة حول فكرة محوريّة أساسها أنّ عالم الرجل مختلف عن عالم المرأة، وأنّ عواطف الرجل مختلفة عن عواطف المرأة، ولا يوحد العالمين والعواطف المختلفة معاً، كما ينبغي، إلاّ الزواج. قالت أمي أنّ الفتيات لا يدركن ذلك إلاّ بعد فوات الأوان، لذا يتوجب عليهنّ الأخذ بنصيحة من جرّبوا ذلك، مثل امرأة متزوجة على سبيل المثال.

ترى المحامية أنّ أفضل الرجال يودون الحفاظ على عفّتهم لأجل زوجاتهم، وحتى إن كانوا غير ذلك، فإنّهم يرغبون في تعليم زوجاتهم كل ما يتعلق بالجنس. ومما لا شك فيه أنّهم سيحاولون استدراج فتاة لممارسة الجنس وإقناعها أنّهم سيتزوجونها لاحقاً، غير أنّها ما إن تستسلم لرغباتهم حتى تفقد احترامهم، ثم يشرعون في القول إنها ما دامت قد مارست ذلك معهم، فإنّها ستمارسه مع الآخرين، ولن يكفوا عن ذلك حتى يحولوا حياتها جحيماً.

ثم تختم المرأة مقالتها قائلةً إنّ الشعور بالأمان أفضل من النّدم، ناهيك

عن أن لا طرق ناجعة تحول من دون أن تتورّط الفتاة في إنجاب طفل، مما يضعها في مأزق حقيقيّ.

بدا لي أنّ الشيء الوحيد الذي لم تتطرّق إليه المقالة هو كيف تشعر الفتاة.

قد يكون الأمر جميلاً أن تكون الفتاة عفيفة وتتزوج رجلاً عفيفاً، ولكن ماذا لو اعترف لها، فجأة، بعد الزواج، أنّه ليس كذلك، مثلما فعل بَدي؟ لا أطيق فكرة أن يُفرَض على المرأة أن تحيا عفيفة، فيما يستطيع الرجل أن يحيا حياة مزدوجة؛ واحدة تتسم بالعفة والأخرى غير ذلك.

وأخيراً عقدتُ العزم أنّه ما دام من الصّعب العثور على رجل ذكيّ، ومفعم بالحيويّة، ولا يزال عفيفاً بحلول سنة عمره الحادية والعشرين، فإنّه يجدر بي أن أنسى مسألة أن أظل عفيفة، وأن أتزوج رجلاً ليس عفيفاً أيضاً. حيث أستطيع أن أُنغّص عليه حياته حين يشرع في التنغيص عليّ.

وحين كنتُ في التاسعة عشرة، كانت العفّة المسألة العظمى.

فعوضاً عن العالم الموزّع بين الكاثوليك والبروتستانت، أو الجمهوريّين والديمقراطيّين، أو الرجال البيض والسود، أو حتى الرجال والنساء، رأيتُ العالم موزّعاً بين الذين ضاجعوا شخصاً ما والذين لم يفعلوا بعد، وقد بدا هذا هو الفارق الجوهريّ الوحيد بين شخص وآخر.

حسبتُ أنّ تغيُّراً مثيراً سيطرأ على حياتي في اليوم الذي أتخطى فيه ذلك الحد الفاصل.

حسبته سيكون بمثل ما أشعر به حين أزور أوروبّا. سأعود إلى البيت، وحين أحدق في المرآة سأكون قادرة على تمييز جبل أَلبٍ Alp صغير أبيضَ

يرتسم خلف عيني. فكرت إن نظرتُ في المرآة غداً، سأرى قسطنطيناً بحجم دمية يجلس في عيني ويبتسم إليّ.

حسناً، قضينا في شرفة قسطنطين ساعةً، في كرسيّين مريحين منفصلين، فيما يصدح فونوغراف (ماركة «ڤيكترولا Victrola») بالموسيقى، وأسطوانات البالالايكا مكدسة بيننا. انبعث ضوء لبنيّ خافت من أضواء الشارع أو من الهلال أو من السيارات أو من النجوم. لم أستطع تمييز شيء، غير أنّ قسطنطين (عدا إمساكه بيدي) لم يُبْدِ أيّة رغبة في إغوائي على الإطلاق.

سألته إن كان مرتبطاً أو لديه صديقة حميمة، معتقدة أنّ ذلك سبب تردده، لكنّه نفى قائلاً إنه قد عقد العزم على الابتعاد عن مثل تلك العلاقات.

ثم شعرت بخدر يسري في عروقي جرّاء النبيذ الذي بطعم لحاء الصنوبر[27].

«أعتقد أنّي سأذهب لأتمدد في الداخل»، قلتُ.

اتجهتُ من دون قصد إلى غرفة النّوم، ثم انحنيت لأخلع حذائي. كان السرير النّظيف يهتزّ أمامي كقارب أمان. تمددت عليه وأطبقت عينيّ. ثم سمعت قسطنطين يتنهّد، وهو يغادر الشرفة إلى الداخل. وقعت فردتا حذائه على الأرض، واحدة تلو الأخرى، محدثةً صوتاً مكتوماً، ثم تمدد إلى جانبي.

اختلست النظر إليه عبر ذؤابات شعري المتساقط.

كان ممدداً على ظهره، متوسداً يديه، وعيناه تجوسان سقف الغرفة. كان رُدنا قميصه الأبيضان المنشآن، المشمران إلى المرفقين، يلمعان في نصف

27- pine-bark wine: وهو نبيد أحمر يضيف إليه الفرنسيّون عصارة تستخرج من لحاء أشجار الصّنوبر التي تنمو قرب البحر. (المراجع).

العتمة على نحو غريب، وبدت بشرته المسفوعة سوداء تقريباً. ظننتُ أنّه لا بُد أن يكون أجمل رجل رأيته في حياتي.

فكرت لو أنّ تقاسيم وجهي حادة ورائعة؛ أو أستطيع مناقشة السياسة بمكر ودهاء؛ أو كنت كاتبة مشهورة، لرغب قسطنطين في النوم معي حينها.

ثم تساءلت إن كان سيغرق في الرتابة حين يحبّني، أو إن كنت سأكتشف زلاّته، واحدةً تلو الأخرى، مثلما كان الأمر مع بَدِي والشبّان الآخرين الذين سبقوه.

لقد حدث ذات الشيء مراراً وتكراراً.

قد ألمح شخصاً يتبدى بلا خطايا من بعيد، لكنّني سرعان ما أكتشف أنّه بخلاف ذلك حين يتدانى.

كان ذلك أحد الأسباب التي حالت من دون رغبتي في الزواج. كان جل ما أبتغيه هو الأمان المطلق، وأن أكون المكانَ الذي يُطلَق منه السهمُ. رغبتُ في التغيير والإثارة، وأن أُطلَقَ في كل الاتجاهات، مثل سهامٍ ملونة [تنبعث] من أحد الصواريخ الناريّة [التي تُطلَق في احتفالات] الرابع من تموز.

أفقتُ على صوتِ المطر

كان ظلامٌ دامسٌ. تبيّنتُ، بعد هنيهة، الحدودَ الباهتة لنافذةٍ غير مألوفة. وكان شعاعُ ضياءٍ يلمعُ في الفضاء بين حينٍ وآخر، وينفذُ في الجدار مثل اصبعٍ شبحيٍّ يرودُ، ثم يتبددُ ثانيةً.

ثم تناهي إليَّ صوتُ شخص ما يتنفّسُ.

ظننتُ، لأول وهلةٍ، أنّني التي تتنفّس، وأنّني كنتُ مستلقية في العتمة في غرفتي بالفندق بعد تعرّضي للتسمُم. حبستُ أنفاسي، لكنّ التنفُّس تواصل.

توهّجت عينٌ خضراءُ على السرير بجانبي. كانت مقسمة أَرباعاً مثل بوصلة. مددتُ يدي ببطءٍ وأطبقتُها عليها. ثم رفعتها. كانت بذراع ثقيلة ثِقَل ذراع رجُلٍ، لكنّها دافئة بالنوم.

كانت ساعةُ قسطنطين تشير إلى الثالثة.

كان مُمدداً في قميصه وسرواله وجوربيه مثلما تركته حين خلدت إلى النّوم، وحين ألفت عيناي العتمة، تبيّنتُ جفونه الشاحبة وأنفه المستقيم وفمه المتسامح الجميل، لكنّها بدت خياليّة كما لو تطفو فوق ضباب. انحنيتُ فوقه، لدقائق معدودة، أتقرّى ملامحه. لم يسبق أن نمتُ قرب رجلٍ أبداً.

حاولتُ تخيُّل الأمر لو كان قسطنطينُ زوجي.

سيعني ذلك النهوض في السابعة، وقلي شرائح لحم خنزير مقدد بالبيض، وإعداد الخبز المحمص والقهوة؛ وأن أُبدد الوقت— وأنا في قميص نومي وشعري المعقوص— بعد ذهابه إلى العمل، لأغسل الصحون الوسخة وأرتب السرير. سيتوقّع، حين يعود إلى البيت، بعد يوم آسرٍ مفعم بالحياة، عشاء فاخراً ، ثم أقضي المساء في غسل مزيد من الصحون الوسخة، حتى أقع على السرير وقد هدني التعب.

بدت تلك الحياة مُضيَّعةً، وباعثة على الضجر، بالنسبة إلى فتاة حصلت على علامات متفوقة طيلة خمس عشرة سنة، لكنّني عرفت أنّ هذه هي حقيقة الزواج، لأنّ الطبخ والتنظيف والغسل هي الأشياء التي كانت تقوم بها أم بَدِي ويلارد من الصّباح وحتى مغرب الشمس، رغم كونها مُعلمة في مدرسة خصوصيّة وزوجة أستاذ جامعيّ.

ذات مرّة، حين زرت بَدِي، وجدتُ السيّدة ويلارد وهي تجدل

سجادة من مزق صوفيّة من سُتَر السيّد ويلارد العتيقة. كانت قد أمضت أسابيع في صنع تلك السجادة، وكنتُ أُعجبتُ بطريقة جدل المزق البنية والخضراء والزرقاء. وبعد أن أنهت السيدة ويلارد السجادة، لم تعلقها على الحائط مثلما كنتُ سأفعل، بل وضعتها في مكان ممسحة المطبخ. لم تمض بضعة أيّام حتى اتسخت وصارت باهتة، ولا يمكن تفريقها عن أيّة ممسحة يستطيع المرء شراءها بأقل من دولار من أيّ مركز تجاريّ يبيع المواد الرخيصة.

وكنتُ أعرفُ أنّه رغم كل الورود والقبلات وحفلات العشاء التي يغدقها الرجل على المرأة قبل الزواج، إلاّ أنّ ما يتوق إليه، في سرّه، بعد انتهاء مراسيم عقد القِرآن، هو أن تنبطح تحت قدميه، مثل ممسحة مطبخ السيّدة ويلارد.

ألم تخبرني أمي أنّه ما إن غادرت هي وأبي [مدينة] رِينُو Reno لقضاء شهر العسل (كان أبي متزوجاً من قبْل، فتوجب عليه الحصول على الطلاق) حتى قال لها والدي: «يا سلام! يا لها من راحة، نستطيع الآن التوقّف عن التظاهر، وأن نتصرّف على سجيّتنا»، ومنذ ذلك اليوم لم تنعم أمي بدقيقة راحة واحدة.

كما تذكرت بَدي ويلارد، وهو يقول بطريقة عارفة ماكرة، إن شعوراً مختلفاً سينتابني بعد إنجاب الأطفال، لن أرغب في كتابة قصائد أبداً. هكذا أخذت أفكر باحتماليّة صحة أنّ المرأة حين تكون متزوجة ولديها أطفال، فإنّها تكون كمن تعرّض لغسيل دماغ، ثم تصبح متبلدة الحس، كأَمَةٍ في دولة مستبدة.

وفيما أنظرُ إلى قسطنطين، مثلما ينظر المرء إلى حصاة برّاقة، لا يمكن

الوصول إليها، في قعر بئر عميقة، رفعَ جفنيه ونظر إليّ، فكانت عيناه مترعتين بالحبّ. نظرت إليه بصمت، كمصراع اقرارٍ بالفضل، صُفِقَ عبر ضبابيّة الحنان، فلمع بؤبؤا العينين، وصارا سحيقين، لا يُسبَرَ غورهما، مثل جِلد صقيل.

نهض قسطنطين متثائباً. «كم الساعةُ الآن؟».

«الثالثة»، قلتُ بصوتٍ خفيض. «من الأفضل أن أذهب الآن. عليّ أن ألتحق بعملي باكراً».

«سأقلكِ بالسيّارة».

ونحن جالسان في السرير، ظهراً إلى ظهرٍ، نتحسس حذاءينا في الضوء الأبيض البهيج لمصباح السرير، شعرتُ بقسطنطين يستديرُ. «هل شعركِ على هذه الشاكلة دوماً؟».

«شاكلة ماذا؟»

لم يُجِب، لكنّه مد يده إلى ذؤابات شعري، ومرّر أصابعه، ببطء، إلى أطرافها، كما لو كانت مشطاً. أصابتني رعشة، فبقيت هادئة تماماً. فمنذ صباي وأنا أحبّ أن يمشط شعري شخص ما. فذلك يجعلني أشعر بالسكينة والرغبة في النوم.

«آه، أعرفُ سرّ ذلك»، قال قسطنطين. «لقد غسلتِه».

ثم انحنى ليعقد رباط حذائه الرياضيّ.

وبعد ساعة، تمددت في سريري بالفندق، أصغي لصوت المطر. لم يكُن صوت مطرٍ، بل صوت حنفيّة جارية. فجأة دبّ الألم في وسط عظم ساقي اليسرى، فصار النّوم قبل الساعة السابعة أمراً بعيد المنال، حين يوقظني منبّه ساعة الرّاديو بنغماته القويّة التي تحاكي ألحان [جون فيليب] سُوسَا Sousa.

كلما أمطرت، بدا كَسرُ الساق القديم يتذكر نفسه، فتقفز إلى الذاكرة ذكرى جرح كليل.

ثم فكرت: «لقد جعلني بَدِي ويلارد أكسر تلك الساق».

«كلاّ، أنا التي كسرتها. كسرتها عمداً عقاباً على دناءتي».

(8)

أقلني السيّد ويلارد في سيّارته إلى الأديروندداكس.

كان ذلك في اليوم الذي تلا عطلة عيد الميلاد، فأظلتنا سماءٌ رماديّة حبلى بالثلج. شعرتُ بالامتلاء حد الغثيان وبالسأم والإحباط، مثلما يحدث لي، دائماً، غداة أعياد الميلاد، كما لو أنّ كل ما تَعِدُ به أغصانُ الصنوبر، والشموع، والهدايا الملفوفة بشرائط فضيّة وذهبيّة، والنّيران التي توقَد من خشب البتولا، والديك الرومي، والترانيمُ التي تُنشَد بمصاحبة البيانو، سيذهب هباءً منثوراً.

أكاد أتمنّى، في أعياد الميلاد، لو أنّني كاثوليكيّة.

تولى السيّد ويلارد السياقة أولاً، ثم نِبْتُ عنه. لا أعلم ما الذي كنّا نتحدث عنه. ولكن، عندما علقنا في الريف المطمور تحت طبقات من ثلج قديم، فيما تراصفت أشجار التنّوب، من التلال الرماديّة حتى حافّة الطريق، فبدت سوداء لخضرتها الغامقة، غرقت في كآبة لا قرار لها.

انتابتني رغبة جامحة في إخبار السيّد ويلارد أن يواصل الطريق بمفرده، سأتدبّر أمر الحصول على توصيلة مجانيّة إلى البيت.

لكنّ نظرةً واحدة إلى وجهِ السيّد ويلارد (الشعرِ الفضيِّ بقصّته الصبيانيّة التي تشبه قصّة جنود البحريّة، والعينينِ الزرقاوين الصافيتين، والخدينِ الورديّين، وقد تجمدت –جميعها– مثل حالة مزاوجة جميلة بتعابير بريئة واثقة) جعلتني أدرك مدى استحالة ذلك. عليَّ القيام بالزيارة حتى النهاية.

وعند انتصاف النهار، تلاشى الجو الرمادي الذي يلفّ المكان قليلاً،

فأوقفنا السيارة في منعطف جليديّ، وتقاسمنا شطائر سمك التونة وكعك الشوفان والتفاح وَتِرمُس thermos القهوة السوداء التي وضعتها السيّدة ويلارد في صندوق السيّارة لغدائنا.

كان السيّد ويلارد يرمقني برفق. ثم تنحنح ونفض بعض فتات الطعام عن حجره. أستطيع القول إنه كان على وشك التلفّظ بشيء جدي لأنّه كان في غاية الخجل، فقد سبق لي أن سمعته يتنحنح بذات الطريقة قبل أنّ يهم بإلقاء محاضرة مهمة في الاقتصاد.

«لطالما رغبنا، نيلي Nelly وأنا، في إنجاب طفلة».

فكرت، للحظة جنونيّة، أنّ السيّد ويلارد كان على وشك الإعلان أنّ السيّدة ويلارد حامل، وتتوقّع إنجاب طفلة. ثم قال: «غير أنّني لا أرى كيف يمكن لأيّة فتاة أخرى أن تكون أجمل منكِ».

لا بُد أنّ السيّد ويلارد ظنّ بكائي ناجم عن سعادتي لأنّه رغب في أن يكون أبي. «هناك، هناك»، ربّت على كتفي وتنحنح مرّة أو مرّتين. «أظنّ أنّنا نفهم بعضنا بعضاً».

ثم فتح باب السيّارة الموالي له، وخطا إلى الجهة التي كنتُ أجلس فيها. كانت أنفاسه ترسل في الهواء الرماديّ إشارات دخان ملتوية. تحرّكت إلى المقعد الذي كان يجلس فيه، أدار محرّك السيّارة، فتابعنا بها المسير.

لستُ متأكدة مما توقّعت أن تكون عليه مصحة بَدِي.

توقّعتُ أن تكون دارةً خشبيّة تقبع في قمة جبل صغير، يقيم فيها شبان جذابون، بخدود ورديّة، وعيون تلمعُ بالحُمى، يستلقون في الشرفات الخارجيّة، تدثرهم بطانيات ثقيلة.

«السل مثل العيش وقنبلة في رئتيك»، أخبرني بَدِي في رسالة بعث بها إلى الكليّة. «عليك التمدد في هدوء آملاً ألاّ تنفجر».

وجدت صعوبة في تخيُّل بَدِي طريح الفراش. كانت فلسفته في الحياة تتلخص في أن يكون المرء واقفاً على قدميه ويعمل في كل ثانية. حتى عندما ذهبنا إلى الشاطئ في الصيف، لم يستلق لينعس في الشمس مثلما فعلتُ أنا. كان يركض، جيئة وذهاباً، أو يلعب بالكرة، أو يقوم بسلسلة صغيرة من الحركات الرياضيّة السريعة، ليبدد الوقت.

انتظرنا، أنا والسيّد ويلارد، في حجرة الاستقبال حتى انتهاء جلسة علاج ما بعد الظهر.

بدا أنّ نظام ألوان المصحة برمته قائمٌ على محاكاة لون الكبد. أشغال خشبيّة داكنة مشعّة، مقاعد جلديّة بنيّة غامقة، جدران كانت مرّة بيضاء، لكنّها ترزح الآن تحت وطأة عفن أو رطوبة متفشيّة. وثمة مشمع بنيّ مرقّط على الأرض.

وثمة، على طاولة قهوة وطيئة، حُفِرت في قشرتها الداكنة بقع دائريّة ونصف دائريّة، بضعة أعداد مهترئة من مجلتي تايم Time ولايف Life. تصفّحت المجلة الأقرب إليّ حتى منتصفها. لمع في ذهني وجه آيزنهاور Eisenhower، أصلع بلا تعابير، مثل وجه جنين في جرّة.

أدركت، بعد هنيهة، الضوضاء التي تتعالى خسلةً. اعتقدتُ– للحظةٍ– أنّ الجدران تُفرغ الرّطوبة التي تشرّبتها، ثم لاحظتُ أنّ الضوضاء تأتي من نافورة صغيرة في إحدى زوايا الغرفة.

كانت النافورة تتطاول بضع بوصات في الهواء، منبجسة من أنبوب

صلب، وهي ترمي بأيديها، وتهبط بقطراتها المثلمة، لتغرق في حوض حجريّ من ماءٍ مُصفرّ. كان الحوض مرصوفاً بقرميد سداسيّ الأضلاع كذاك الذي نجده في المراحيض العموميّة.

رنّ جرس كهربائيّ. فُتحِت أبوابٌ وأغلِقت في المسافة. ثم جاء بَدِي.

«أهلاً أبي».

عانق بَدِي والده، ثم توجه نحوي ببريق مرعب في عينيه، ومد يده. صافحته. كانت نديّةً وسمينة. جلسنا، أنا والسيّد ويلارد، على أريكة جلديّة. جلس بَدِي مقابلنا على طرف كرسيّ أملس ذي ذراعين. واصل الابتسام، كما لو كان طرفا فمه مربوطين بسلك غير مرئيّ.

كان آخر ما توقّعته أن يكون بَدِي بديناً. وطيلة الوقت الذي تخيّلته فيه وهو في المصحة، رأيتُ ظلالاً تنحفر تحت عظام وجنتيه، وعينيه وهما تحترقان في محجرين بلا لحم على نحوٍ ما.

غير أنّ كل الأشياء المقعّرة التي تخيّلتُ بَدِي عليها قد استحالت محدبةً فجأةً. تدلى بطن منتفخ تحت قميص النايلون الأبيض الضيّق، وغدت عيناه مدورتين ومتورّدتين مثل فاكهة حلوى المرزبانيّة. حتى أنّ ضحكه صار جهوريّاً.

تبادلنا النظرات. «إنّه الطعام»، قال. «يتخموننا بالطعام يوماً بعد يوم، ثم يتركوننا لنستلقي في أماكننا. لكنّهم سمحوا لي بالخروج والتنزّه لساعاتٍ الآن، فلا تقلقي، سيخفّ وزني خلال أسبوعين». ثم قفز، مبتسماً مثل مضيف مسرور. «أتودان رؤية غرفتي؟».

تبعتُ بَدِي، وسار السيّد ويلارد ورائي، عبر بابين متحرّكين بألواح من

الزّجاج المغشى، في رواق معتم بلون الكبد، تفوح منه رائحة شمع الأرضيّات والليزول Lysol ورائحة أخرى أشد غرابة، مثل أزهار غاردينيا مسحوقة.

دفع بَدي باباً بنيّاً، فدلفنا إلى غرفة ضيّقة.

كان قد استحوذ على معظم المكان سريرٌ ضخم تغطيه ملاءة بيضاء مقلمة بالأزرق. وكانت إلى جانبه طاولة سرير عليها إبريق وكأس ماء، فيما كان مؤشر ميزان الحرارة، الذي على شاكلة غصن فضيّ، يتدلى من مرطبان فيه مطهّر ورديّ. وثمة طاولة ثانية، مغطاة بالكتب والأوراق والقدور الفخاريّة غير المتوازنة (والتي شويت بالفرن وطليت، لكنّها ليست صقيلة)، محشورة بين قائمة السرير وباب الخزانة.

«حسناً»، همس السيّد ويلارد، «تبدو [الغرفة] مريحة تماماً».

ضحكَ بَدي.

«ما هذه؟». التقطت منفضة سجائر فخاريّة في شكل ورقة زنبق، حيث العروق مرسومة، بعناية، بالأصفر على خلفيّة خضراء غامقة. لم يكن بَدي مدخناً.

«تلك منفضة سجائر»، قال بَدي. «إنّها لكِ».

وضعت المنفضة في مكانها. «لكنّني لا أدخن».

«أعرف»، قال بَدي. «ظننتُ أنها قد تعجبك على أيّة حال».

«حسناً»، لعق السيّد ويلارد شفتيه الناشفتين. «يجدر بي أن أنصرف الآن. سأترككما أيّها الشابين . . .».

«لا بأس، يا أبي. يمكنك الانصراف».

كان الأمر مفاجأة بالنسبة إليّ. ظننت أنّ السيّد ويلارد سيقضي الليلة

قبل أن يقلني في السيّارة إلى البيت في اليوم التالي.

«هل آتي معك؟».

«كلا، كلا». أخرج السيد ويلارد بعض الأوراق النقديّة من محفظته وناولها إلى بَدِي.

«احرص على أن تحظى إيستر بمقعد مريح في القطار. ستقضي يوماً أو بعض يوم، ربّما».

رافق بَدِي والده إلى الباب.

شعرتُ أنّ السيد ويلارد قد تخلى عنّي. لا بُد أنّه قد دبّر ذلك منذ البداية، لكنّ بَدِي أنكر الأمر، وقال إن والده ببساطة لا يطيق منظر المرض خاصّة مرض ابنه، فهو يعتقد أنّ كل الأمراض هي مرض إرادة. لم يمرض السيّد ويلارد في حياته قط.

جلستُ على سرير بَدِي. لم يكُن ثمة مكان غيره أجلس فيه.

أخذ بَدِي ينقّب بين أوراقه على طريقة رجال الأعمال. ثم ناولني مجلة رماديّة رقيقة. «افتحيها على الصفحة الحادية عشرة».

كانت المجلة قد طُبِعت في مكان ما بِمِيين Maine، مليئة بقصائد وفقرات وصفيّة مطبوعة بواسطة الاستنسل stenciled، وتفصلها عن بعضها بعضاً علامات نجميّة asterisks. وجدت في الصفحة الحادية عشرة قصيدة معنونة «فجر فلوريدا». قفزت من صورة إلى أخرى تصفُ أضواءَ بطيخ وأشجار نخيل بنيّة وأصدافاً مُخدَدة مثل قطع من العمارة اليونانيّة.

«لا بأس»، قلتُ، رغم أنّني شعرتُ أنّ القصيدة فظيعة.

«من كتبها؟» سألَ بَدِي بابتسامة غريبة ساذجة.

وقعت عيني على الاسم القابع في أسفل الزاوية اليمنى من الصفحة: بي. إس. ويلارد.

«لست أدري». ثم قلتُ: «بالطبع أعرف، يا بَدِي. أنتَ كتبتها».

اقترب بَدِي منّي.

جفلتُ. لم أكُن على معرفة كافية بمرض السل، غير أنّه تراءى لي مرضاً شديد الخطورة، ينتشر على نحو لا مرئيّ. فكرت باحتماليّة أن يكون الحيّز الصغير الذي يشغله بَدِي طافحاً بجراثيم السل المُهلكة.

«لا تقلقي»، ضحك بَدِي. «فمرضي من النوع الحميد».

«حميد؟».

«لن تصابي بشيء».

توقّف بَدِي ليلتقط أنفاسه، مثلما يفعل المرء في منتصف تسلقه لشيء شاهق.

«أريد أن أطرح عليكِ سؤالاً ما». كان قد اكتسب عادة جديدة مزعجة تتمثل في النظر إلى عينيّ مباشرة، كما لو كان يريد اختراق رأسي فعليّاً ليستطلع ما يدور فيه.

«فكرت أن أطرح الأمر في رسالة ما».

تخيّلتُ، على نحو عابر وسريع، مظروفاً أزرقَ باهتاً يحمل شعار جامعة ييل.

«لكنّني عدلت عن ذلك. وارتأيت انتظار قدومك لأطرح عليك السؤال شخصيّاً». ثم صمت لحظة. «حسناً، ألا ترغبين في معرفة الأمر؟».

«ما هو؟»، قلتُ بصوت خفيض لا يرتجي شيئاً.

جلس بَدِي إلى جانبي. وضع ذراعة حول خصري ومسد الشعر المدلى على أذني. تسمرت في مكاني. ثم سمعته يهمس: «ما رأيك في أن تصبحي حرم بَدِي ويلارد؟».

انتابتني رغبة فظيعة في الضحك.

فكرّت كيف أن ذلك السؤال كان سيقلب حياتي، رأساً على عقب، في أيّ وقت من تلك السنوات الخمس، أو الست، التي عشقت فيها بَدِي ويلارد عن بُعد.

لاحظ بَدِي ترددي.

«آه، أعلم أنّني على غير ما يرام الآن»، قال سريعاً. «ما زلت تحت المراقبة، وقد أفقد ضلعاً أو اثنين، غير أنّني سأعود إلى كليّة الطب بحلول الخريف القادم. سنة بعد فصل الربيع هذا على الأقل . . .»

«لا بُد أن أطلعك على أمر ما، يا بَدِي».

«أعرف»، قال بَدِي بصلابة. «لقد قابلت شخصاً ما».

«كلاّ، ليس الأمر كذلك».

«ما هو إذن؟».

«لن أتزوج أبداً».

«أنت مجنونة». أشرق وجه بَدِي. «ستغيّرين رأيك».

«كلاّ، لقد اتخذت قراري ولن أتراجع عنه».

غير أنّه واصل التحديق فيّ مبتهجاً.

«أتذكرُ حين حصلنا على توصيلة مجانيّة إلى الكليّة عقب ليلة العرض

المسرحيّ الهزليّ Skit Night؟[28]»

«أذكُر».

«وهل تذكرُ كيف سألتني أين أفضل العيش، في الريف أم في المدينة؟»

«قُلت . . .»

«قلتُ إنّني راغبة في العيش فيهما معاً».

أومأ بَدِي برأسه.

ثم واصلتُ الحديث بقوة فجائيّة: «ولكنّك ضحكت وقلتَ إنّني أتوفّر على الخصائص الكاملة لشخص عُصابيّ مثاليّ، وأنّ ذلك السؤال هو أحد الأسئلة التي ضمها استبيانُ حصّة علم النفس في ذلك الأسبوع».

أخذت ابتسامة بَدِي بالتلاشي.

«حسناً، لقد كنتَ محقّاً. فأنا عصابيّة. لا يمكنني الاستقرار في الرّيف أو في المدينة على حد سواء».

«تستطيعين العيش متنقّلة بينهما»، اقترح بَدِي على أمل المساعدة. «حينئذ، تستطيعين الذهاب إلى المدينة في بعض الأحيان وإلى الريف في أحيان أخرى».

«حسناً، أين العُصابيّة في ذلك؟»

لم يُجِب.

«حسناً؟» قلتُ بقوة، وأنا أُفكر باستحالة تدليل هؤلاء المرضى، فذلك أسوأ شيء بالنسبة إليهم، سيجعلهم ينهارون تماماً.

28- مسرحيّة هزليّة تتكون من سلسلة مشاهد مختلفة، تتراوح مدة الواحد منها من دقيقة إلى عشر دقائق، تؤديها مجموعة ممثلين هزليّين؛ وتعرف باسم الـ Sketch comedy أيضاً. (المراجع).

«لا شيء»، قال بَدِي بصوت خفيض واهن.

«عُصابيّة، ها!» ضحكتُ ساخرةً. «إن كان العُصابيّ يرغب في شيئين متبادلين، يُلغي الواحد منهما الآخر، في وقت واحد، ودفعة واحدة، فأنا عصابيّة تماماً. سأواصل التحليق، جيئة وذهاباً، بين هذين القطبين، حتى آخر أيّام حياتي».

وضع بَدِي يده على يدي.

«دعيني أحلق معكِ».

وقفت على قمة منحدر التزلُج بِـ Mount Pisgah [29]، ناظرةً إلى أسفل. لم يكُن ثمة ما يدعوني لأكون هناك. فلم يسبق لي أن تزلجت من قبل. فكرت، رغم ذلك، بالاستمتاع بالمنظر طالما الفرصة مواتية.

على يساري، كان حبل القطْر يضع متزلجاً إثر متزلج فوق القمة الثلجيّة، التي غدت، لكثرة العبور، وذوبان الثلج الخفيف في الظهيرة، صلبة وصقيلة كالزّجاج. أنزل الهواء البارد عقابه برئتيّ وثقبيّ منخريّ، حتى استيقظت حواسي على وضوح رؤيويّ.

وفي كل مكان من حولي، كان المتزلجون بستراتهم الحمراء والزرقاء والبيضاء ينزلون المنحدر الذي يبهر الأبصار مثل مِزَق علم أميركيّ شاردة. وفي سفح مدرج التزلُج، كانت تصدح من الكوخ الخشبيّ أغنيات شعبيّة تخترق سجف الصّمت المخيّم.

29- قمة جبليّة ضمن سلسلة الأديروانداكس بشمال شرق نيو يورك. ذكرت التوراة، في سفر تثنية الاشتراع، Mount Pisgah بلفظ «قمة الفِسجَة». (المراجع).

محدقاً صوبَ Jungfrau [30] مـن كـوخنا السويسريّ الذي هو لشخصين اثنين . . .

كان هدير الأغنيات المرحة يلفّني كجدول غير مرئيّ في صحراء من الثلج. نظرة طائشة رائعة تكفي لاندفع، عبر المنحدر، صوب البقعة الخاكيّة الصّغيرة، التي في الخطوط الجانبيّة، بين النظارة، حيث بَدِي ويلارد.

طوال الصباح وبَدِي يعلمني كيف أتزلج.

قام بَـدِي، بدايةً، باستعارة زلاّجتين وعموديّ تزلج من صديق له في القرية، وحذاء تزلج من زوجة طبيب كان قياس قدميها أكبر من قياس قدميّ قليلاً، وسترة تزلج حمراء من طالبة تدرس التمريض. كان إصراره أمام التحدّيات مذهلاً.

ثم تذكرت أنّ بَدِي نال جائزة بكليّة الطب لإقناعه معظم أقارب المتوفّين بالموافقة على تشريح جثث أقاربهم سواء كان ذلك ضروريّاً أم لا، خدمةً للعِلم. نسيت ماذا كانت الجائزة، غير أنّني أستطيع تخيُّل بَدِي، في معطفه الأبيض، والسماعة بارزة من طرف جيبه كجزء من ذاته، وهو يبتسم وينحني ويكلم أولئك الأقارب الذين فقدوا القدرة على الحركة أو النطق، حتى يوقّعوا الأوراق المتعلقة بفحص الجثة بعد الوفاة.

ثم استعار عربة من طبيبه الخاص الذي كان يعاني هو الآخر من داء السل وكان متفهّماً جداً، انطلقنا بالعربة عبر ردهات المصحة التي تخلو من أشعّة الشمس، حين أعلن الجرس الكهربائيّ بدء ساعة التنزّه مشياً على الأقدام.

لم يسبق لبَدِي أن مارس التزلُج أبداً، غير أنّه أخبرني أنّ المبادئ الأساسيّة

30- وتعني «العذراء» بالألمانيّة، وهي واحدة من قمم جبال ألب البيرنيه. (المراجع).

في غاية البساطة، وبما أنّه كان غالباً ما يشاهد مدرّبي التزلُج وتلامذتهم، فإنّه صار قادراً على تعليمي كل ما أحتاج إليه.

خلال نصف الساعة الأولى، كنت أتمرّن على امتداد منحدر صغير، أضغط على عموديّ التزلُج، وأهبط مباشرة إلى الأسفل. بدا بَدِي فرحاً بما أحرزتُ من تقدم.

«هذا رائع، يا إسترِ»– قالَ– فيما كنتُ أحاول التغلب على صعوبات المنحدر للمرّة العشرين. «فلنجرّب، الآن، وضعك على حبل القطْر».

تسمرت في مكاني، لاهثةً، محتقنة الوجنتين.

«ولكنّي، يا بَدِي، لا أعرف كيفيّة التعرُّج بالزلاجات بعدُ. فجميع المنحدرين من أعلى يعرفون كيفيّة التعرُّج».

«أوه، كل ما تحتاجين إليه هو الوصول إلى منتصف الطريق. حينها لن تحتاجي إلى بذل جهد كبير».

رافقني بَدِي إلى حبل القطْر، وأراني كيفيّة جعل الحبل يمرّ من بين يديّ، ثم أخبرني أن أقبض عليه بأصابعي ثم أصعد.

لم يحدث أن قلتُ «كلاّ» قط.

أطبقت على الحبل الخشن الذي يشبه ثعباناً مؤذياً، والذي راح يتلوى بين أصابعي، ثم صعدت إلى أعلى.

غير أنّ الحبل سحبني، وهو يتهادى، متوازناً، بسرعة كبيرة، ففقدت الأمل بفصل نفسي عنه في منتصف الطريق. كان ثمة متزلِج أمامي وآخرُ خلفي، وكنت سأقع، أسفل الزلاجات وأعمدة التزلُج، آنَ أُرخي قبضتي عن الحبل، فلم أشأ التسبب بأيّة مشاكل، فبقيت متشبّثة بالحبل في هدوء.

ورغم ذلك، راودتني في الأعلى أفكار أخرى.

ميّزني بَدِي، وأنا مترددة، في سترتي الحمراء. شقّت ذراعاه الهواء مثل طاحونتَي هواء خاكيّتين. ثم رأيته يشير إليّ أن أهبط عبر ممرّ انفرج وسط المتزلجين المتاميلين. غير أنّني عندما وازنت نفسي، مرتبكة وحلقي جافّ، بدا الممرّ الأبيض المُمهَّد الممتد من قدميّ حتى قدميه غائماً.

كان متزلج يقطع الممرّ من اليسار وآخر من اليمين، كانت ذراعا بَدِي تلوحان بوهن مثل هوائيّان من الجانب الآخر لحقل يعج بحيوانات ميكروسكوبيّة بالغة الصّغر كالجراثيم، أو كعلامتي تعجُب منحنيتين ساطعتين.

رفعت عينيّ عن ذلك المدرج الذي يموج حركةً، ناظرةً إلى الأفق البعيد.

كانت عين السماء الرماديّة العظيمة ترنو إليّ، وكانت شمسها، التي يحجبها السديم، تركز كل المسافات البيضاء الصامتة، والتي تنساب من كل جهة، تحت قدميّ.

ثمة صوت داخليّ يدعوني بإلحاح لأكفّ عن هذا الحمق— أن أنزع زلاّجتيّ وأهبط المنحدر، تحجبني أشجار الصنوبر الخفيضة التي تحده، وألوذ بالفرار مثل بعوضة كئيبة. وكانت فكرة أن أقتل نفسي قد رسخت في عقلي، بهدوء، مثل شجرة أو زهرة.

قستُ بعيني المسافة التي تفصلني عن بَدِي.

كان قد طوى ذراعيه، فبدا جزءاً من السياج المتهالك الذي خلفه— خَدِراً، بنيّاً، ولا معنى له.

مقتربة من حافّة قمة التل، غرزت رأسيّ عموديّ التزلُج في الثلج، وانطلقت محلقة، حيث لا شيء يستطيع إيقافي؛ لا المهارة ولا فِعل إرادة متأخر.

توجهت إلى الأسفل مباشرة.

صفعت فمي ريح قويّة كانت متوارية، وسوت شعري، أفقيّاً، على رأسي. كنت أهبط، لكنّ الشمس البيضاء ظلت في مكانها. تدلت، فوق أمواج التلال، محوراً غير مدرَك، لا يوجَد العالم بدونه.

كانت نقطة استجابة صغيرة في جسدي تفرّ إليها. شعرت برئتي تنتفخان بدفق المناظر الطبيعيّة– الهواء والجبال والأشجار والنّاس. فكرت: «هذا هو معنى السعادة».

هبطت عموديّاً، متجاوزة المتزلجين المتعرّجين والتلاميذ والخبراء، عبر سنين وسنين من النفاق والابتسامات والمهادنات، رأساً إلى أعماق ماضيّ.

كان الناس والأشجار يتراجعون من حولي، مثل جهات نفق معتمة، كلما اندفعت صوب النقطة الهادئة المضيئة عند نهايته، إلى الحصاة التي في قعر البئر، والطفلةِ البيضاء الجميلة القابعة في رحم أمها.

طحنت أسناني، ملء فمها، حصىً. نزّ ماء مثلج عبر حلقي.

تدلى وجه بَدِي فوقي، قريباً وهائلاً، مثل نجم ذاهل. وتراءت وجوه أخرى خلفه. واحتشدت، خلفهم، نقط سوداء علًى سطح أبيض. قطعةً قطعةً— كما لو على وقع ضربات صولجان عَرّابةٍ بليدة— طَفَر العالم القديم إلى مكانه.

«كنت تبلين بلاء حسناً»، أخبرني صوت مألوف، «حتى اعترض ذلك الرجل طريقك».

كان الناس يفكون أحزمتي، ويجمعون أعمدة التزلُج، من حيث غرزوها، بانحراف، نحو السماء، في ضفاف الثلج المنفصلة. كان سياج

الكوخ الخشبيّ يسند ظهري.

انحنى بَدِي ليخلع حذائي والجوارب الصوفيّة العديدة التي كانت تبطنه. أحاطت يده اليمنى بقدمي اليسرى، ثم امتدت إلى كاحلي، تشدُ وتجس، كما لو تسعى إلى سلاح مطمور.

أشرقت شمس بيضاء فاترة في سمت السماء. رغبت في شحذ نفسي عليها، حتى أصير طاهرة، ونحيلة، ومثاليّة، كنصل سكين.

«سأصعد»، قلتُ. «سأصعدُ ثانيةً».

«كلاّ، لن تفعلي».

علا وجه بَدِي تعبير غريب ينم عن الرضا.

«كلاّ، لن تفعلي»، كرّر كلامه بابتسامة حاسمة. «لقد كسرت ساقك في موضعين. ستوضع في جَبيرة لعدة شهور».

(9)

«أنا في غاية السعادة لأنّهم سيموتون».

كقطة كسولة، كانت هيلدا تقوس أطرافها، وتدفن رأسها بين ذراعيها على طاولة المحاضرات، ثم غابت في النوم من جديد. كانت قبّعة قش خضراء برّاقة تجثم على جبينها كطائر استوائيّ.

أخضر مائل إلى الصفرة. كانوا يُعدونه لموسم الخريف، وحدها هيلدا Hilda (مثل العادة) تتقدم الجميع بنصف سنة. أخضر مائل إلى الصفرة مع الأسود، أخضر مائل إلى الصفرة مع الأبيض، أخضر مائل إلى الصفرة مع الأخضر النيلي، أفضل الألوان التي تليق به.

أطلقت ملصقات الأزياء الدعائيّة الفضيّة، المليئة بالترهّات، فقاعاتها المريبة في دماغي. طفت على السطح محدثة قرقعة جوفاء.

أنا في غاية السرور لأنّهم سيموتون.

لعنت الحظ الذي جعل وقت وصولي إلى الفندق يصادف وقت وصول هيلدا. وبعد سهرة امتدت حتى وقت متأخر من الليل، تبلدت أحاسيسي، فلم أستطع التفكير في العُذر الذي سيعيدني إلى غرفتي لتناول القفاز والمنديل والشمسية ودفتر اليوميات التي نسيتها. كان جزائي أن أقطع، على نحو رتيب، تلك المسافة الطويلة، عبر أبواب الزجاج المغشى لفندق الأمازون، صوب الأرضيّة المبلطة برخام ورديّ لمدخل جادة ماديسن.

كانت هيلدا تتحرّك، على طول الطريق، كعارضة أزياء.

«هذه قبّعة جميلة، هل صنعتها بنفسك؟»

توقّعت، على نحو ما، أن تستدير هيلدا نحوي، قائلةً: «تبدين مريضة»، لكنّها مدت عنقها الأَجيد، ثم طوته.

«بلى».

شاهدت، في الليلة السابقة، مسرحيّةً؛ حيث تتملكُ البطلةَ روح هائمة[31]، وحين تتكلم تلك الروح، فإنّ صوتها يرنّ، عميقاً، فلا تعرف إن كان صوت رجل أو امرأة. حسناً، كان صوت هيلدا يبدو كصوت تلك الروح الهائمة.

حدقت في صورتها المنعكسة في زجاج نوافذ المحلات، كما لو كانت ترغب في التأكد— لحظة إثر أخرى— أنّها لا تزال على قيد الحياة. كان الصمت الذي يلفّنا عميقاً، فاعتقدتُ أنّني المسؤولة عن شيء منه.

لذلك قلتُ: «أليس أمر آل روزنبيرغ مرعباً؟»

كان آل روزنبيرغ على وشك الإعدام، صعقاً بالكهرباء، في ساعة متأخرة من تلك الليلة.

«بلى!»، قالت هيلدا. حينها شعرت إنّني قد لمست وتراً إنسانيّاً في سرير هرّةِ[32] قلبها. كان الأمر شبيهاً بالوقت الذي كنّا نقضيه في انتظار

31– إشارة إلى مسرحيّة اليهودي الروسي إس. آنسكي «الرّوح الهائمة Dybbuk، أو بين عالمين» (1914). و dybbuk، وفقاً للميثولوجيا اليهوديّة، روح فرّت من الجحيم. (المراجع).

32– cat's cradle: لعبة يُعقَد فيها خيط حول الأصابع ليكون شكلاً متشابكاً، يشبه سريراً صغيراً، بين يديّ اللاعب، والذي يمكن تغييره أو نقله إلى يديّ لاعب آخر. (المراجع).

الأُخريات في كآبة الصباح، التي تشبه القبر، لغرفة المحاضرات، حتى مطت هيلدا كلمة «بلى» تلك.

«من المرعب أنّ يظل أمثال هؤلاء الناس على قيد الحياة».

ثم تثاءبت، فانفغر فمها البرتقاليّ الشاحب عن عتمة هائلة. حدقت، مشدوهةً، في الكهف المُصمَت خلف وجهها، حتى تلاقت الشفتان وتحرّكتا، فنطقت الروح الهائمة من مكانها المستتر: «أنا في غاية السرور لأنّهم سيموتون».

«هيّا، ابتسمي».

جلستُ في الأريكة المخمليّة الورديّة بمكتب جاي سي، ممسكة بوردة ورقيّة أمام مصور المجلة. كنت آخر فتاة في المجموعة تلتقط صورتها. حاولت التواري عن الأنظار في حجرة تواليت السيّدات، لكنّني أخفقت. كانت بِتسِي قد لمحت قدميّ من تحت الأبواب.

لم أرغب في أن تُلتَقط صورتي لأنّني كنت على شفير البكاء. لم أعرف سبب ذلك، لكنّني كنت أعرف أنّ الدموع سوف تفرّ من عينيّ إن كلمني شخصٌ ما، أو تفرّس في وجهي، وإنّ النشيج سينبعث من حلقي، وأظل أبكي لأسبوع بأكمله. كأنّي كنت طافحة بالبكاء، والدموع تجتاحني، كماء في كأس مترعة مُقلقَلة.

كانت تلك هي جسلة التصوير الأخيرة قبل طبع المجلة وعودتنا إلى تولسا Tulsa، أو بيلوكسي Biloxi أو تِيينِك Teaneck أو كووس باي Coos Bay، أو إلى أيّ مكان آخر جئنا منه. كان من المفترض أن تلتقط صورنا ونحن في وضعيّات تدل على ما نرغب في أن نكون عليه في المستقبل.

حملت بِتسِي سنبلة، علامةً على رغبتها في أن تكون زوجة مزارع. وأمسكت هيلدا الرأس الأصلع، الذي بلا وجه لمانيكان صانع قبّعات، إشارةً إلى أنّها تريد تصميم القبّعات، فيما أمسكت دورِين بساري مطرّز بالذهب، لتبيّن أنّها راغبة في أن تصبح عاملة اجتماعيّة في الهند (أخبرتني أنّها لم تكُن راغبة في ذلك حقّاً، أرادت أن تضع يديها على الساري فقط).

وحين سألوني عن رغبتي، أخبرتهم أنّني لا أعرف.

«أوه، بل تعرفين»، قال المصور.

«ترغبُ»— قالت جاي سِي— «في أن تكون كل شيء».

أخبرتهم برغبتي في أن أكون شاعرة.

حينئذ، راحوا يفتشون عن شيء أحمله.

اقترحت جاي سي كتاب قصائد، غير أنّ ذلك لم يرُق للمصور، لأنّها كانت فكرة في غاية الوضوح. يتوجب أن يكون شيئاً يشير إلى مصدر إلهام القصائد. ثم فكت جاي سي، في نهاية المطاف، الوردة الورقيّة، ذات الساق الطويلة، من آخر قبّعة اشترتها.

عبث المصور بأضوائه البيضاء الحامية. «أظهري لنا كيف تجعلك كتابة القصيدة سعيدةً».

حدقت عبر إفريز أوراق نبات المطاط بنافذة جاي سي إلى السماء الزرقاء التي خلفه. كانت بضع سحب دخان تتحرّك من اليمين إلى اليسار على نحو مسرحيّ. ركزت عينيّ على أكبر سحابة، كما لو أنّها ستحمل لي الخلاص حين تنقشع.

شعرتُ بضرورة الحفاظ على استقامة خط فمي.

«هيّا، ابتسمي».

أخيراً، مثل فم دميةِ مُتكلِم من بطنه، أخذ فمي بالالتواء طواعيةً.

«أنتِ»، قال المصور محتجاً، محذراً على نحو مفاجئ: «تبدين كما لو أنّك ستجهشين بالبكاء».

لم أستطع التوقّف.

دفنت رأسي في الواجهة المخمليّة الورديّة لأريكة جاي سي، وبراحة كبيرة انفجرت في الغرفة الدموع المالحة والأصوات الكئيبة التي كانت تتربّص بي منذ الصباح.

وحين رفعت رأسي، كان المصور قد اختفى. كما كانت جاي سي قد اختفت هي الأخرى. شعرتُ أنّي منهكة، وقد تخلى عنّي الجميع، كجلد طرحه حيوان مرعب. لقد ارتحتُ، حين تحرّرت من الحيوان [القابع في داخلي]، غير أنّ الأمر بدا كأنّه قد أخذ روحي معه، وكل شيء استطاع أن يضع براثنه عليه.

بحثت في محفظتي عن العلبة المذهبة الصغيرة، التي تحتوي على ماسكرا وفرشاة وكحل وثلاثة أقلام من أحمر الشفاة ومرآة جانبيّة. بدا الوجه، الذي حدق فيّ، كأنّه يحدق عبر قضبان زنزانة بعد فترة طويلة من التعذيب. بدا مُنكدماً، متورّماً، ولا ألوان حقيقيّة له. كان وجهاً بحاجة إلى صابون وماء وتسامح مسيحيّ.

وبفؤاد واهن، شرعتُ أصبغ وجهي.

عادت جاي سي، بعد برهة، حاملة رزمة من المخطوطات.

«ستسليك هذه»، قالت. «استمتعي بقراءتها».

كانت كومة ضخمة باردة، من مخطوطاتٍ تتكاثر، بين الملفات

الرمادية، بمكتب محرّر الأعمال القَصصيّة، كل صباح. لا بُد أنّ الناس يكتبون، على نحو سرّي، في المكاتب والعليّات وغرف الدرس في جميع أنحاء أميركا. لنفترض أنّ شخصاً ما ينجز مخطوطة كل دقيقة؛ ستكون خمس مخطوطات مكومة على مكتب المحرّر خلال خمس دقائق. وستون خلال ساعة، تفيض بها الأرضيّة. وخلال عام . . .

تبسمتُ، وأنا أشاهد مخطوطاً أصيلاً، متخيَّلاً، يطفو في الهواء، وقد ارتسم في زاويته اليمنى العليا اسم إِستِر غرينوود. بعد الشهر الذي قضيته في المجلة، قدمت طلباً للالتحاق بحلقة دراسيّة صيفيّة تحت إشراف كاتب مشهور. على المرء أن يرسل مخطوط قصّة ليقرأه الكاتب، ومن ثَم يختار الأسماء، وفقاً لجودة النّص.

بالطبع، كانت حلقة دراسيّة صغيرة، وكنت أرسلت قصّتي منذ وقت طويل، ولم يصلني رد من الكاتب بعد، لكنّني كنت متيقّنة أنّني سأجد رسالة القبول تنتظرني على طاولة البريد في البيت.

قرّرت أن أفاجئ جاي سي، وأرسل قصّتين، من بين التي كتبتها في تلك الحلقة، تحت اسم مستعار. ذات يوم، سيأتي المحرّر إلى مكتب جاي سي شخصيّاً، ويلقي القصتين، بقوة، على مكتبها، قائلاً: «ثمة شيء فوق العاديّ هنا». ستوافقه جاي سِي الرأي، ثم تقبلهما، وتدعو المؤلف— الذي سوف يكون أنا— إلى الغداء.

«بصراحة»، قالت دورين، «سيكون هذا الشخص مختلفاً».

«حدثيني عنه»، قلتُ ببرودة.

«إنّه من البيرو».

«إنّهم قِصار القامة»، قلتُ. «إنّهم بشعون كالآزتِك».

«كلاّ، كلاّ، كلاّ، يا عزيزتي، لقد قابلته».

كنّا جالستين، في سريري، وسط فوضى من فساتين قطنيّة متسخة وجوارب نايلون منتسلة وملابس داخليّة رماديّة. لعشر دقائق، ودورين تحاول اقناعي أن أرافق صديقَ شخصٍ تعرفه لِني إلى حفلة راقصة في نادٍ ريفيّ، حيث كانت تصرّ على أنّه يختلف تماماً عن أصدقاء لِني. وبما أنّني كنت سأستقل قطار الساعة الثامنة، في صبيحة اليوم التالي، لأعود إلى البيت، فقد شعرت بضرورة محاولة جمع أمتعتي.

كما خطرت ببالي فكرة غامضة؛ هي أنّني لو ذرعت شوارع نيو يورك، طيلة الليل وحدي، فإنّ شيئاً من سرّ المدينة وسحرها سيتبدى لي أخيراً.

لكنّني عدلت عن ذلك.

صرت أقاسي الأمرّين، حين أقرّر عمل أيّ شيء في تلك الأيام الأخيرة. وكلما قرّرت القيام بشيء ما، كتوضيب حقيبة السفر مثلاً، فإنّني أجرجر الثياب القذرة، الباهظة الثمن، من الخزانة وأدراج الثياب وأنثرها على الكراسي والسرير والأرض، ثم أجلس محدقة فيها، محتارة تماماً. بدت كما لو أنّ لها هويّات عنيدة مستقلة، فتأبى أن تُغسَل وتُطوَى وتُرتَب.

«إنّها هذه الثياب»، أخبرتُ دورين. «لا أحتمل مواجهتها حين أعود».

«لا عليك. هذا أمر بسيط».

وبطريقتها المباشرة الجميلة، شرعت دورين في التقاط السراويل الداخليّة والجوارب والصدريّة المتقنة الصُّنع، التي بلا حمالتين، المليئة بالزنبركات—

والتي كانت هديّة مجانيّة من شركة برِمْرُووز Primrose للصدريات، والتي لم أمتلك الشجاعة لارتدائها أبداً– وفي النّهاية، كانت مجموعة الملابس الغريبة الحزينة التي تساوي أربعين دولاراً قد رُتِبَت، ثوباً تلو الآخر . . .

«ضعي ذلك الثوب جانباً، يا دورين. أريد ارتداءه».

سحبت دورين قطعة سوداء من الصُرّة، وألقتها في حجري. ثم، وبعد أن كومت ما تبقّى من ثياب في كتلة واحدة متنوعة، وارتها تحت السرير.

طرقت دورين الباب الأخضر ذا المقبض الذهبيّ.

كانت ثمة حركة في الداخل وصوت رجل يضحك سرعان ما توقّف. ثم انفرج الباب قليلاً ليظهر شابّ طويل القامة يرتدي لباساً عاديّاً وقد قصّ شعره الأشقر مثل مشاة البحريّة وأخذ يحدق فينا.

«حبيبتي!» قال بصوت هادر.

غابت دورين بين ذراعيه. ظننته الشخص الذي يعرفه لِني.

وقفت هادئة بمدخل الباب في ردائي الأسود الضيّق ووشاحي الأسود الذي صارت هدبه أكثر صفرة من قبل، غير أنّ توقّعاتي كانت تتضاءل وتتضاءل. «سأراقب ما يجري»، قلت في نفسي، وأنا أشاهد دورين تنتقل في الغرفة من ذراع الشابّ الأشقر إلى ذراع رجل آخر طويل القامة، ولكنّه أسمر وشعره أطول قليلاً. كان هذا الرجل يرتدي سترة ناصعة البياض وقميصاً أزرق شاحباً وربطة عنق صفراء حريريّة يعلوها دبّوس لامع.

لم أستطع إزاحة عينيّ عن ذلك الدبوس.

بدا كأنّ نوراً أبيض هائلاً ينطلق منه ويضيء الغرفة. ثم يرتد النور إلى نفسه، تاركاً قطرة ندى على حقل من الذهب.

وضعتُ قدماً أمام الأخرى.

«تلك ماسة»، قال أحدهم، فضج كثيرون بالضحك.

نقرتُ بظفري على سطح زجاجيّ صغير.

«إنّها ماستها الأولى».

«أعطها لها، يا ماركو Marco».

انحنى ماركو ووضع الدبوس في راحة يدي.

كان بريقها يخطف الأبصار، وكانت تتماوج بالضوء مثل مكعّب ثلج سماويّ. وضعتها بسرعة في حقيبتي المسائيّة المُشكلة بالكهرمان الأسود المزيّف، ونظرت من حولي. كانت الوجوه فارغة مثل أطباق، ولا أحد بدا يتنفّس.

«لحسن الحظ»– طوقت يد جافّة قاسية أعلى ذراعي– «سأرافق السيّدة لما تبقّى من السهرة. ربّما»– انطفأ الوميض الذي في عينيّ ماركو فاسودتا– «سأسدي لها خدمة صغيرة . . .».

ضحك أحدهم.

« . . . تستحقّ ماسة».

اشتدت قبضة اليد حول ذراعي.

«أخ!»

أبعد ماركو يده. ألقيت نظرة على ذراعي. كانت بصمه إبهامه قد علمت أرجوانيّة فيها. نظر ماركو إليّ. ثم أشار إلى الجانب السفلي من ذراعي.

«انظروا هناك».

نظرتُ، فرأيتُ أربع بصمات باهتة متشابهة.

«كما ترين، أنا جاد تماماً».

ذكرتني ابتسامة ماركو القصيرة المترددة بثعبان كنت أغظته في حديقة برونكس Bronx للحيوانات. حين نقرت باصبعي على قفص زجاجيّ قويّ، فغر الثعبان فكيه المُنتظمين، فبدا كأنّه يبتسم. ثم راح يخبط اللوح الزجاجي غير المرئيّ ويخبط حتى غادرت المكان.

لم يسبق لي أن قابلت رجلاً يكره النساء من قبْل.

أستطيع القول إن ماركو كان رجلاً يكره النساء؛ فهو– رغم عارضات الأزياء والممثلات الناشئات اللواتي تعج بهنّ الغرفة– لم يُبد اهتماماً إلاّ بي. لم تكُن الطيبة مصدر ذلك، ولا حتى الفضول، بل لأنّني كنت من نصيبه، كورقة ضمن مجموعة أوراق لعب متماثلة.

قفز أحد أعضاء فرقة النادي الريفيّ إلى المايكروفون، وأخذ يهزّ تلك الآلات الموسيقيّة المخشخشة، في إشارة إلى موسيقى أميركا الجنوبيّة.

مد ماركو يده ليمسك يدي، لكنّني بقيت ملتصقة بكأس الدَايكِيرِي daiquiri[33] الرابعة. لم يسبق لي أن احتسيت الدايكري من قبل. ولم أرغب بكأس منه، إلاّ لأنّ ماركو قد طلبها لي. شعرت بالامتنان لأنّه لم يسألني عن نوع الشراب الذي أرغب في تناوله، فبقيت صامتة، احتسى كأساً تلو أُخرى.

نظر ماركو إليّ.

«لا»، قلتُ.

«ماذا تقصدين بلا ؟»

«لا أستطيع الرقص على هذه الموسيقى».

33– شراب يتكون من رم وعصير ليمون وسكر. والاسم مأخوذ من اسم ميناء يقع في كوبا. (المراجع)

«لا تكوني غبيّة».

«أريد أن أجلس هنا، وأنهي شرابي».

انحنى ماركو نحوي بابتسامة بارعة، وبحركة سريعة طار شرابي، وحط في حوض شجرة نخيل. ثم قبض ماركو على يدي بقوة، فلم يكن أمامي سوى الاختيار بين أن أتبعه إلى حلقة الرقص، أو تخرج ذراعي من مكانها.

«إنها موسيقى التانغو». حرّكني ماركو بين الرّاقصين. «أحبّ التانغو».

«لا أستطيع الرقص».

« لا عليك. سأرقص أنا».

طوق ماركو خصري بذراعه، وسحبني، بقوة، لصق بزّته البيضاء المُبهرة. ثم قال: « تظاهري بالغرق».

أغمضت عينيّ، فاجتاحتني الموسيقى كعاصفة مطريّة. انزلقت ساق ماركو إلى الأمام، لتلاقي ساقي التي كانت تنساب إلى الخلف، فبدوت منجذبة إليه، ساقاً إلى ساق، أتحرّك كلما تحرّك، بلا إرادة أو معرفة منّي، ثم فكرت بعد برهة: «لا تحتاج الرقصة إلى شخصين، بل إلى شخص واحد»، ثم تركت نفسي تعلو، وتنثني، كشجرة في الريح.

«ماذا قلت لك؟» لفحت أنفاس ماركو أذني. «أنت راقصة جديرة بالاحترام تماماً».

بدأت أدرك لِمَ يجعل كارهو النساء من المرأة أضحوكة. كارهو النساء مثل الآلهة: لا يمكن إيذاؤهم ومفعمون بالقوة. يتنزّلون ومن ثَم يغيبون. لا تستطيع أن تمسك بأحدهم.

بعد موسيقى أميركا الجنوبيّة، كانت ثمة استراحة.

قادني ماركو عبر الأبـواب الفرنسيّة إلى الحديقة. انبعثت الأضواء من نافذة قاعة الرقص، وتعالت منها الأصوات، غير أنّ العتمة كانت قد بنت متاريسها، على بُعد ياردات، وطوقت الساهرين. وفي ضياء النجوم اللامتناهي، كانت الأشجار والأزهار تنشر شذاها المنعش. ولم يكن ثمة قمرٌ.

انطبق باب الوشيع خلفنا. كان مضمار غولف مهجور يمتد نحو أجمة تلة، فشعرت بالألفة المتوحدة للمشهد برمته: النادي الريفي وحفلة الرقص والمرج بصرّار ليله الوحيد.

لم أعرف أين كنتُ، غير أنّ المكان كان يقع بإحدى ضواحي نيو يورك الثرية.

أخرج ماركو سيجاراً رفيعاً وولاّعة فضيّة في شكل رصاصة. وضع السيجار بين شفتيه وانحنى على لهب قليل. بدا وجهه- بظلاله الضخمة ومستويات الضوء المتباينة- غريباً ومغموماً، كوجه لاجئ.

نظرتُ إليه.

«من تحبّ؟»، قلتُ، حينئذ.

لبرهةٍ، لم يقل ماركو شيئاً، فتح فمه وزفر حلقة دخان زرقاء.

«رائع!»، ضحك.

أخذت الحلقة تتسع وتغدو ضبابيّة، شبحيّة في الجو المعتم.

ثم قال: «أحبّ ابنة عمي».

بدا النبأ عاديّاً.

«لِمَ لا تتزوجها؟».

«مستحيل».

«لماذا؟».

هزّ ماركو منكبيه. «إنّها ابنة عمي. ستصبح راهبة».

«هل هي جميلة؟».

«لن يلسمها أحدٌ».

«أتعلم أنّك تحبّها؟».

«طبعاً».

صمتُ. بدت العقبة، بالنسبة إليّ، غير حقيقيّة.

«إن كنتَ تحبّها»- قلتُ- «فإنّك ستحبّ امرأة أخرى ذات يوم».

سحق ماركو السيجار بطرف حذائه.

تصاعدت الأرض وانهالت عليّ بلطمة خفيفة. كان الوحل يتلوى بين أصابعي. انتظر ماركو حتى قُمت جزئيّاً. ثم وضع كلتا يديه على كتفيّ وألقى بي في الوحل مجدداً.

«فستاني . . .»

«فستانك!». نزّ الوحل وصار بمستوى كتفيّ. «فستانك!». اكفهرّ وجه ماركو، ثم انحنى على وجهي. تساقطت بضع قطرات من لعابه على شفتيّ. «فستانك أسود والوحل، كذلك، أسود».

ثم ألقى بنفسه ووجهه إلى أسفل، كما لو كان يريد صهر جسده من خلالي في الوحل.

«سيقع الأمر»، فكرت. «سيقع». إن استلقيت هنا، ولم أفعل شيئاً، فإنّه سيقع».

أنشب ماركو أسنانه في نطاق الثوب الذي يطوق عنقي، ثم مزّق

الثوب حتى الخصر. رأيت بريق اللحم العاري، مثل حجاب باهت، يفصل بين خصمين لدودين.

«عاهرة!»

طنّت الكلمة في أذني.

«عاهرة!»

انقشع الغبار، فتبيّنت مكان العِراك جيّداً.

رحتُ أتلوى وأعض.

رماني ماركو على الأرض.

«عاهرة!»

لكزت ساقه بكعب حذائي الحاد. التفت، وأخذ يتحسس موضع الألم. ثم كورت أصابعي، في شكل قبضة، ولكمت أنفه بقوة. كنت كمن ضرب صفيحة فولاذيّة لسفينة حربيّة. انتصب ماركو جالساً. أخذت أبكي.

سحب ماركو منديلاً أبيض ومسح أنفه. كان سوادٌ، كالحبر، ينتشر على الثوب الباهت.

رحتُ ألعق براجمي المالحة.

«أريد دورين».

حدق ماركو عبر منعرجات ملعب الغولف.

«أريد دورين. أريد أن أذهب إلى البيت».

«عاهرات، كلهنّ عاهرات». بدا ماركو كأنّه يحدث نفسه. «شئن أم أبين، كلهنّ متشابهات».

لكزت كتف ماركو.

«أين دورين؟»

شَخَرَ ماركو. «اذهبي إلى موقف السيارات. ابحثي عنها في المقاعد الخلفيّة لجميع السيارات».

ثم دار على قدميه.

«ماستي».

نهضت، واستعدت وشاحي من الظلام. رحت أخطو. قفز ماركو على قدميه واعترض سبيلي. ثم مرّر إصبعه، على نحو متعمد، تحت أنفه المدمى، ولطخ وجنتيّ بضربتين اثنتين. «لقد نلت ماستي بهذا الدم. أعيديها إليّ».

«لا أعلم أين هي».

كنت أعلم تماماً أنّ الماسة في حقيبتي المسائيّة، وحين أوقعني ماركو على الأرض، حلقت الحقيبة، كطائر ليليّ، في الظلام المُطبِق. رحت أفكر في أن أبعده عن المكان، ثم أعود وأفتش عنها.

لم تكن لديّ أدنى فكرة عن قيمة ماسة بذلك الحجم؛ لا بُد أنّها تساوي الكثير رغم ذلك.

أمسك ماركو كتفيّ بكلتا يديه.

«أخبريني»، قال، وهو يشدد على كل كلمة يقولها. «أخبريني وإلاّ سأدقّ عنقك».

فجأةً، لم أعد أكترث.

«إنّها في حقيبتي المسائيّة المشكلة بالكهرمان الأسود المزيّف»، قلتُ. «في مكان ما في الوحل».

تركتُ ماركو على قدميه وركبتيه، يفتش في العتمة عن عتمة أخرى

أقل تحجب ضوء ماسته عن عينيه اللتين تقدحان شرراً.

لم تكُن دوريين في قاعة الرقص، ولا في موقف السيارات.

لازمت أطراف الظلال حتى لا يلاحظ أحدٌ أنّ العشب قد التصق بفستاني وحذائي، ثم غطيت كتفيّ ونهديّ العاريين بوشاحي الأسود.

من حسن حظي أنّ الرقص قد شارف على الانتهاء، وكانت جماعات من النّاس تغادر متوجهة إلى موقف السيارات. طفتُ على السيارات، واحدة تلو الأخرى، حتى وجدت مكاناً لي في سيّارة ستقلني إلى وسط مانهاتن.

في تلك الساعة الغامضة بين الظلام والفجر، كان سطح فندق الأمازون مهجوراً.

تسحبت، بهدوء، كلصّ، إلى حافّة حاجز السقف، في بُرنس الحمام المُزيّن بعساليج القنطريون العنبريّ. كان الحاجز يصل إلى كتفيّ تقريباً، فسحبت كرسيّاً مطويّاً من الركام المكدس عند الجدار، فتحته وصعدت على المقعد المتأرجح.

طيّرت هبّة هواء قارس شعري. كانت المدينة، أسفل قدميّ، قد أطفأت أنوارها وخلدت إلى النوم. كانت بناياتها متشحة بالسواد كما لو في حِداد.

كانت ليلتي الأخيرة.

أمسكت بالصرّة التي كنت أحملها، وسحبت ذيلاً باهتاً. وقع بين يديّ سروال داخليّ متهدل. لوحت به — كعلم هدنة — مرّةً، مرّتين . . . فأمسك به النّسيم، ثم تركته يطير.

كانت ندفة بيضاء تطفو في الليل، ثم أخذت تهبط على مهلها. تساءلت في أيّ شارع، أو على أيّ سقف، سترتاح أخيراً.

سحبت الصرّة مرّة أخرى.

قامت الريح بمحاولة، لكن من دون جدوى، فغرق ظل يشبه الوطواط نحو حديقة الحجرة التي فوق سطح البيت المجاور.

قطعة إثر قطعة، أطعمتُ ثيابي لريح الليل. ومثل رفات شخص عزيز، كانت القطع الرماديّة ترفرف، تذروها الريح، لتستقرّ هناك، هناك، حيث لن أعرف أين تماماً، في قلب نيو يورك الأسود.

(10)

كان الوجه يلوح في المرآة كوجه هنديّ أبرته العِلل.

ألقيت العلبة في محفظتي اليدويّة، وحدقت عبر نافذة القطار. مثل مكب خردوات هائل، كانت المستنقعات والبقع الخالية لـ [ولاية] كونيتكت Connectict تمرّ سراعاً، كل قطعة خَرِبة لا تمت بصلة إلى الأخرى.

أيّة فوضى كان العالم!

ألقيت نظرةً إلى تنّورتي وبلوزتي الغريبتين.

كانت التنّورة خضراء عريضة، تتخللها أشكال بيضاء وأخرى زرقاء لامعة، وتندلق كظل مصباح. وكان للبلوزة البيضاء، ذات العَينيّة المُطرّزة، بدلَ الكمين، هدباً عند الكتفين، عريضة وليّنة كجناحي ملاك خُلِق للتو.

كنت قد نسيت الاحتفاظ ببعض الثياب النهارية من بين تلك التي تركتها تطير فوق نيو يورك، فمنحتني بِتسِي التنّورة والبلوزة لقاء بُرنس الحمام المزيّن بعساليج القنطريون العنبري.

لمعت صورة باهتة لنفسي، وأنا بأجنحة بيضاء وشعر بنيّ معقود كذيل الفرس، شبحيّةً، فوق المنظر الطبيعي.

«راعية البقر المتفائلة»، قلت بصوت عال.

رفعت امرأة في المقعد المقابل عينيها عن مجلتها نحوي.

لم تكن لديّ رغبة، حتى اللحظة الأخيرة، في غسل خطيّ الدم الجاف المائلين اللذين ارتسما على وجنتيّ. تراءا مؤثرين ومذهلين إلى حد ما، ففكرت

في حملهما معي أينما حللت، كتذكار من حبيب ميّت، حتى يتلاشا من تلقاء نفسيهما.

ومما لا شك فيه أنّهما كانا سيتفتتان إن تبسمت وحرّكت وجهي كثيراً، فحافظت على وجهي، ثابتاً، من دون حراك، وحين كنت أضطر إلى الكلام، فإنّني أتكلم من خلال أسناني،من دون أن تتحمل شفتاي عناء الحركة.

لم أر سبباً يدعو الناس إلى التحديق فيّ هكذا.

كان عدة أشخاص يبدون أكثر غرابة منّي.

كانت حقيبتي الرماديّة تعتلي العارضة التي فوق رأسي، فارغة إلاّ من [كتاب] أفضل ثلاثين قصّة قصيرة لهذا العام؛ علبة نظارات شمسيّة بلاستيكيّة بيضاء ودزينتَي أفوكادو أهدتنيها دوريين حين ودعتني.

كانت الفاكهة لا تزال فجة، وبذلك ستحافظ على شكلها. وكلما رفعت حقيبة السفر، أو حملتها، تتدحرج من زاوية إلى أخرى محدثةً هديراً صغيراً خاصّاً بها.

«المسرب 128!» نادى قاطع التذاكر.

كانت غابة الصنوبر والقيقب والسنديان، التي تم تأهيلها، تمتد حتى محطة التوقّف، وتظل ملتصقة بإطار نافذة القطار، كصورة رديئة. أصدرت حقيبة السفر طنيناً وقرقعة، حين شققت طريقي، عبر الممشى الطويل.

خطوت من المقصورة المكيَّفة إلى رصيف المحطة، فطوقتني النسائم الرؤومة للضواحي. كانت برائحة آلات رش العشب والسيّارات العائليّة الواسعة ومضارب التنس والكلاب والأطفال الصّغار.

ألقى هدوء الصيف يده المُسكنة على كل شيء، كالموت.

كانت أمي تنتظر قرب الشيفروليه الرماديّة. «لِمَ يا حبيبتي، ماذا حدث لوجهك؟».

«جرحتُ نفسي»، قلتُ باقتضاب، ثم تكومت في المقعد الخلفيّ، بعد أن حشرت حقيبة السفر أولاً. لم أُرِد لها أن تحدق فيّ طيلة الطريق إلى البيت.

كانت المقاعد المُنجَدة ملساء ونظيفة.

جلست أمي خلف عجلة القيادة، وألقت بضع رسائل في حجري، ثم أدرات ظهرها.

دار محرّك السيارة وهو يُخرخِر.

«ينبغي عليّ أن أخبرك الآن» قالت، وكنت أستطيع رؤية الأخبار السيّئة، وقد ارتسمت على عنقها، «لم تُوفّقي في درس الكتابة».

قرص الهواء معدتي.

كان درس الكتابة يتمدد أمام ناظريّ، طيلة شهر حزيران، كجسر آمن مشعّ، فوق هاوية الفراغ الرتيب لفصل الصيف. والآن أراه يتداعى ويتبدد، فهوى جسم في بلوزة بيضاء وتنّورة خضراء، عموديّاً، في تلك الهاوية.

ثم أخذ فمي شكله بمرارة.

توقّعت ذلك.

تكورت في المقعد، حتى صار أنفي بمستوى حافّة النافذة، فشاهدت منازل ضاحية بوسطن تمرّ بنا. وعندما صارت المنازل أكثر ألفة، انكمشت في مقعدي.

شعرت بضرورة ألاّ يعرفني أحد.

كان سقف السيارة الرماديّ المبطن يدنو من رأسي كسقف عربة نقل

السجناء، وكانت المنازل البيضاء المتناثرة المتشابهة، والمكسوة بألواح خشبيّة طويلة، والتي تفصل بينها مساحات مغطاة بعشب مجزوز على نحو أنيق، قد مرّت بنا، لوحاً إثر لوح، في قفص كبير لا يمكن الفرار منه.

لم يسبق أن قضيت الصيف في الضواحي من قبل.

كان صرير العجلات يعذب أذني. غمرت الشمس، التي تتسرّب عبر مصاريع النوافذ، غرفةَ النوم بضياء كبريتيّ. لم أدر كم نمتُ، غير أنّي كنت منهكة تماماً.

كان السرير الذي بجانب سريري فارغاً ومخلعاً.

عند السابعة، سمعتُ أمي تنهض من سريرها، ثم تلبس ثيابها على عجل، وتخطو خارج الغرفة على رؤوس أصابع قدميها. ثم علا أزيز آلة عصر البرتقال من الطابق السفليّ، وتسرّبت رائحة القهوة وقلي لحم الخنزير المقدد من تحت باب غرفتي. ثم انساب ماء المغسلة من الحنفيّة، وعلا صوت الأطباق وهي تجففها وتضعها على الرفوف في الخزانة.

ثم فتح الباب الأماميّ وانغلق. ثم فتح باب السيارة وانغلق، ثم دار المحرّك وانطلقت، شيئاً فشيئاً، وهي تطحن الحصى، حتى تلاشى صوتها بعيداً.

كانت أمي تعلم لغة الاختزال والطباعة لمجموعة فتيات يدرسن في كليّة المدينة، ولن تعود إلى البيت حتى منتصف ما بعد الظهيرة.

علا صرير عجلات مرّة أخرى. يبدو أنّ شخصاً ما كان يدفع عربة أطفال، جيئة وذهاباً، تحت نافذتي.

انزلقتُ من السرير على السجادة، ثم زحفت، بهدوء، على يديّ

وركبتيّ، لأنظر ما الأمر.

كان بيتنا خشبيّاً أبيضَ صغيراً، وسط مرجة خضراء صغيرة في زاوية شارعين هادئين في الضاحية، ورغم أشجار القيقب القليلة المزروعة في الفرجات، فإنّ باستطاعة من يمرّ بالجوار رؤية نوافذ الطابق الثاني، وما يدور بداخله.

نبهّتني إلى ذلك جارتنا التي تقطن البيت المجاور، وهي امرأة حقودة تدعى السيدة أوكِندِن Ockenden.

كانت السيّدة أوكندن ممرّضة متقاعدة، عقدت قرانها مؤخراً على زوجها الثالث (مات الاثنان الآخران في ظروف غامضة) وتقضي وقتاً طويلاً في التلصّص عبر الستائر البيضاء المُنشاة لنوافذ بيتها.

كانت قد هاتفت أمي مرّتين بشأني— مرّة، لتخبرها أنّي ما زلت جالسة، منذ ساعة، أمام البيت، تحت أضواء الشوارع، أُقبّل شخصاً ما في سيّارة پلايماوث Plymouth زرقاء؛ وثانيةً، لتخبرها بضرورة أن أغلق مصراع نافذة غرفتي، لأنّها لمحتني نصف عارية، وأنا أتجهز للذهاب إلى النّوم، ذات ليلة، حين صدف أنّها كانت تُنَزِّهُ كلبها الأسكتلنديّ.

رفعتُ عينيّ، بحذر شديد، إلى مستوى حافّة النّافذة.

كانت امرأة لا تتعدى قامتها الخمسة أقدام، ذات بطن ناتئ بشع، تدفع عربة أطفال سوداء عتيقة في الشارع. كان يتهادى بظلال أطراف تنورتها طفلان، أو ثلاثة، بأحجام مختلفة؛ شاحبون، بوجوه ورُكب معفّرة.

أشرق وجه المرأة بابتسامة هادئة، وَرِعة على نحو ما. وفيما كان رأسها يرتمي إلى الوراء بسعادة ورضا، كبيضة دُوريٍّ تجثم فوق بيضة بطة، ابتسمت

للشمس.

عرفتُ المرأة جيّداً.

كانت دُودُو كَنِواي Dodo Conway.

كانت دُودُو كَنواي كاثوليكيّة، التحقت بكليّة بارنارد Barnard [للبنات]، ثم تزوجت بمهندس معماريّ درس في [جامعة] كولومبيا، والذي كان كاثوليكيّاً أيضاً. كانا يملكان بيتاً كبيراً، مترامي الأطراف، في أعلى الشارع الذي يقع فيه بيتنا، خلف واجهة كئيبة من أشجار الصنوبر، محاطاً بدرّاجات ناريّة وأخرى بثلاث عجلات؛ عربات وسيارات إطفائيّة في شكل دمى؛ شباك للعب تنس الريشة ومضارب كروكيت croquet؛ أقفاص الهَمستَر وجراء قصيرة القوائم— والتي هي الأدوات المنتشرة لطفولة الضواحي.

أثارت دُودُو اهتمامي رغماً عنّي. كان منزلها يختلف عن باقي منازل حيّنا: بحجمه (كان أكبر)، ولونه (كان الطابق الثاني مكسواً بألواح خشبيّة بنيّة غامقة، والأولُ بألواحِ جصّ رماديّة، تتخللها أحجار رماديّة وأرجوانيّة على شاكلة كرة غولف)، وكانت أشجار الصنوبر تواريه عن الأنظار تماماً، فكان يُعد منزلاً منعزلاً وسط مجتمع من مروج متجاورة ووشائع ترتفع حتى الخصر، تشي بأواصر الصداقة.

أنشأت دُودُو أبناءها الستة– وستنشئ السابع من دون ريب– على رقائق الأُرز وشطائر زبدة الفول السوداني وحلوى الخِطميّ، وبوظة الفانيلا والكثير من حليب هودس Hoods.

كان الجميع يحبّ دودو، رغم أنّ حجم عائلتها المتزايد كان حديث الحيّ. فقد كان لكبيرات الحيّ– كأمي– ولدان، فيما كان للأزواج الأكثر شباباً

وثراءً أربعة أطفال؛ غير أن لا أحد- سوى دودو- كان ينتظر طفله السابع. فحتى الطفل السادس كان ينظر إليه على أنّه فوق الحد المعقول، غير أنّ دودو- كما يقول الجميع- كاثوليكيّة.

رحتُ أشاهد دودو، وهي تدفع كنواي Conway، أصغر أبنائها، في العربة، جيئةً وذهاباً. بدت كأنّها تقوم بذلك من أجلي.

يجعلني الأطفال أشعر بالغثيان.

صرّت الأرضيّة الخشبيّة، فأحنيت رأسي، مرة أخرى، في اللحظة التي استدار فيها وجه دودو كنواي- بالفطرة، أو ربّما بفضل حاسة سمع مرهفة- على محور عنقها الصّغير.

شعرت أنّ نظراتها تخترق اللوح الخشبيّ الأبيض وأزهار ورق الجدران الورديّ، وأنا جاثية، هناك، خلف أوتاد المِشعاع الفضيّة.

زحفت إلى السرير، وسحبت الملاءة فوق رأسي. غير أنّ ذلك لم يمنع فلول النور من التسرُّب، فطمرت رأسي تحت ظلام الوسادة، متظاهرةً أنّ الليل قد حل. لم أر سبباً للنهوض.

لم يكن ثمة ما أتطلع إليه.

بعد برهة، سمعت الهاتف يرنّ في الرواق السفلي. حشوت الوسادة في أذنيّ، ومنحت نفسي خمس دقائق. ثم رفعت رأسي. كان الرنين قد انقطع.

ثم راح الهاتف يرنّ من جديد.

لاعنةً كل صديق، أو قريب، أو غريب، علم بعودتي، نزلت السلالم حافيةً. كان الجهاز الأسود على طاولة الرواق يطلق رنينه الأهوج، مرّة تلو الأخرى، كطائر هَلِع.

التقطتُ السماعة.

«مرحباً»، قلت بصوت خافت منزعج.

«مرحباً إستِر، ما الأمر، هل التهبت حنجرتك؟».

كانت جُودي، صديقتي القديمة، تتصل من كامبريدج.

كانت تشتغل بتعاونيّة في ذلك الصيّف، وتتردد على فصل في علم الاجتماع خلال فترات الغداء. كانت قد استأجرت، وطالبتان أخريان من كليتي، شقّة واسعة من أربعة طلبة يدرسون القانون بهارفارد، وكنت أخطط للالتحاق بهنّ حين يبدأ فصل الكتابة.

كانت جودي ترغب في أن تعرف متى سألتحق بهنّ.

«لست قادمة»، قلتُ. «لم أحظ بالموافقة».

ران صمت قصير بيننا.

«إنّه حمار»، قالت جودي. «فهو لا يميز الغث من السمين».

«نفس أحاسيسي تماماً». بدا صوتي غريباً ومجوفاً في أذنيّ.

«فلتأتِ على أيّة حال. يمكنك الالتحاق بفصل آخر».

دارت فكرةُ دراسة الألمانيّة، أو علم النفس غير الطبيعي، في مخيّلتي بسرعة. كنت ادخرت جل الراتب الذي حصلت عليه في نيو يورك، وبذلك يمكنني تحمل نفقات الدراسة. غير أنّ الصّوت الأجوف انطلق من تلقاء نفسه:

«من الأفضل ألاّ تعولن عليّ».

«حسنا، ثمة فتاة أخرى ترغب في الانضمام إلينا إن قرّرت الانسحاب.. . »

«رائع، اطلبي منها أن تحل محلي ».

في اللحظة التي أطبقتُ فيها سماعة الهاتف، أدركت أنّه كان عليّ إخبارها أنّني سألتحق بهنّ. فيوم آخر من الاستماع إلى دودو كنواي، وهي تدفع عربة الأطفال، سيجعلني على أبواب الجنون. كما أنّني قد عزمت على عدم الإقامة في المنزل ذاته، رفقة أمي، لأكثر من أسبوع.

مددت يدي لألتقط سماعة الهاتف.

تطاولت يدي قليلاً، تراجعت ثم تراخت. أرغمتها، مرّة أخرى، على التقاط السماعة، لكنّها توقّفت من جديد، كما لو أنّها اصطدمت بإطار من زجاج.

خطوت نحو غرفة الطعام بكسل وتؤدة.

وجدت على الطاولة رسالة طويلة، تشبه الرسائل التجاريّة، من المدرسة الصيفيّة؛ ورسالة زرقاء رفيعة، كتبت على ما تبقّى من قرطاسيّة جامعة ييل، موجهة إليّ بخط يد بَدِي ويلارد الواضح.

فتحت رسالة المدرسة الصيفية بالسكين.

تقول الرسالة، ضمن أشياء أخرى، أنّ بإمكاني الالتحاق بحلقة دراسيّة أخرى بدل حلقة الكتابة الإبداعيّة، ويجب الاتصال بمكتب التسجيل في ذلك الصّباح، وإلاّ فاتني موعد التسجيل، فالأماكن الشاغرة تتقلص يوماً بعد يوم.

هاتفت مكتب التسجيل، وأنصت إلى صفّارة المجيب الإلكتروني، تاركةً رسالة مفادها أنّ الآنسة إستِر غرينوود قد أرجأت كل ترتيبتها المتعلقة بالمدرسة الصيفيّة.

ثم فتحت رسالة بَدي ويلارد.

كتب بَدِي مرجحاً أن يكون واقعاً في حُبّ ممرّضة مصابة، هي

الأخرى، بداء السل، غير أنّ أمه استأجرت كوخاً في الأديروانداكس لشهر تموز، وإن رافقتها إلى هناك، فسيكتشف أنّ مشاعره نحو الممرضة كانت مجرّد سحابة عابرة.

التقطت قلم رصاص وشطبت على رسالة بَدِي. ثم قلبتها، وكتبت على وجهها أنّني مرتبطة بمترجم فوريّ، ولا أود رؤية بَدِي مرّة أخرى، لأنّني لا أرغب في أن يكون والد أطفالي منافقاً.

وضعت الرسالة في مظروفها ثانيةً، ألصقتها بلاصق، وأعدتها إلى بَدِي، من دون أن أتحمل عناء وضع طابع بريديّ جديد. فكرت أنّ الرّسالة تكلف ثلاثة سنتات.

ثم قرّرت قضاء الصيف في كتابة رواية.

سيكون ذلك بمثابة انتقام من أشخاص كثيرين.

خطوت إلى المطبخ، ثم ألقيت بيضةً نيّئة في مقدار فنجان شاي من لحم البقر المفروم النيء والتهمتها. ثم وضعت طاولة لعب الورق في الممرّ المنزوي الذي يفصل بين المنزل ومرآب السيارات.

كانت أجمة برتقال كثيفة تحجب رؤية الشارع المقابل، أما جدار المنزل والمرآب فقد حجب كل منهما الجهة التي يتواجد فيها. كانت أجمة من شجر البتولا ووشيع يحميانى من نظرات السيدة أوكندن المتلّصة في الخلف.

أحصيتُ ثلاثة مائة وخمسين شريطَ طباعة قابلاً للمحي من بين الأشياء التي تحتفظ بها أمي في خزانة الرواق. كانت تخبّئها تحت كومة من قبّعات لبّاد قديمة وفراشٍ لتنظيف الملابس وأوشحة صوفيّة.

حينما عدت إلى مكاني مرّة أخرى، وضعت شريطاً جديداً في الآلة

الكاتبة المحمولة القديمة، ولففته.

ومن ذهن مغاير مختلف، تخيّلت نفسي جالسة في هذا المكان، تحيط بي جدران من ألواح خشب بيضاء وأجمة برتقال زائفة وأجمة من شجر البتولا ووشيع، صغيرة صغر دمية في منزل دمى.

ملأ جوانحي إحساس بالحنان. سأكون البطلة، ولكن بشكل مقنع. سيكون اسم البطلة إيلين Elaine، إيلين. عددت الحروف على أطراف أصابعي. ثمة ستة حروف في إستِر Esther أيضا. بدا الأمر فألاً حسناً.

كانت إيلين تجلسُ في هذا المكان وقد ارتدت إحدى قمصان نوم أمها، في انتظار أن يحدث شيء ما. كان صباحاً خانقاً من صباحات تموز، وكانت قطرات عرق تنساح على ظهرها، واحدةً تلو الأخرى، كما لو كانت دبيب حشرات صغيرة.

تمددت إلى الوراء، وقرأت ما كتبته.

بدا مُفعماً بالحياة تماماً. كنت فخورة بذلك الجزء الخاصّ بقطرات العرق التي تشبه الحشرات. خامرني إحساس أنّني قد قرأت ذلك، في مكان ما، منذ زمن بعيد.

لم أبرح مكاني زهاء ساعة، محاولة التفكير فيما سيأتي لاحقاً، وفي مخيّلتي الدمية الحافية التي ارتدت قميص نوم أمها الأصفر القديم، وهي جالسة تحدق في الفراغ أيضاً.

«لِمَ، يا حبيبتي. ألا تريدين ارتداء ملابسك؟»

كانت أمي حريصة على ألاّ تخبرني بما ينبغي عليّ القيام به. كانت تجادلني بلطف، كشخص ذكيّ ناضج يناقش شخصاً ذكيّاً ناضجاً.

«تكاد الساعة أن تكون الثالثة عصراً».

«أكتبُ روايةً. ليس لديّ الوقت لتغيير ملابسي».

تمددت على الأريكة في مكاني، وأغمضت جفنيّ. أستطيع سماع أمي وهي تزيح الآلة الكاتبة والأوراق من فوق طاولة لعب الورق، وتضع الأطباق الفضيّة لوجبة العشاء، غير أنّي لم أحرّك ساكناً.

كان الكسل يتسرّب، كدبس السكر، عبر أطراف إيلين. لا بُد أنّها الملاريا، خمنت.

إن واصلت الكتابة على ذلك النحو، سأكون محظوظة بكتابة صفحة في كل يوم.

ثم تنبّهت إلى جوهر المشكلة.

تنقصني التجربة.

كيف أكتب عن الحياة، فيما لم يسبق لي أن عشت قصّة حبّ، أو أنجبت طفلاً، أو شاهدت شخصاً يفارق الحياة؟ كانت فتاة أعرفها قد فازت للتو بجائزة عن قصّة قصيرة كتبتها حول مغامراتها بين أقزام أفريقيا. كيف لي أن أجاري ذلك؟.

أقنعتني أمي، بعد العشاء، بضرورة تعلم لغة الاختزال مساءً. حينئذ، سأقتل عصفورين بحجر واحد: أكتب رواية، وأتعلم شيئاً عمليّاً، على حد سواء. كما سأدخر مالاً كثيراً.

في ذلك المساء، أخرجت أمي سبّورة قديمة من القبو، ووضعتها في المكان الذي أجلس فيه منذ الصباح. ثم وقفت بجوارها، وخطت بضع علامات صغيرة بطبشورة بيضاء، فيما كنت أتابعها وأنا جالسة على كرسيّ.

شعرت، بدايةً، بأملٍ يغمرني.

شعرت بقدرة على تعلم لغة الاختزال في وقت وجيز، وحين تسألني تلك السيدة التي تعمل في مكتب المنح، عن السبب الذي منعني من العمل في شهري تموز وآب لكسب بعض المال، على شاكلة المستفيدات الأخريات، فسأخبرها أنّني التحقت- عوضاً عن ذلك- بدورة مجانية لتعلم لغة الاختزال، لأستطيع إعالة نفسي مباشرة بعد التخرُّج.

لعل الشيء الذي يعتريني، عندما أحاول تخيّل نفسي في وظيفة ما، أن أخط بخفّة سطراً من تلك العلامات تلو آخر، فيصير ذهني فارغاً. لا توجد وظيفة واحدة، ضمن الوظائف التي أرغب فيها، تتطلب استخدام لغة الاختزال. هكذا، وأنا قابعة، هناك، أتابع أميّ، اضطرب منظر العلامات المكتوبة بالطبشورة البيضاء أمام ناظريّ، فصارت ضبابية من دون معنى.

أخبرت أمي أنّني أعاني من صداع رهيب، فرجعت إلى السرير.

بعد ساعة، انفتح الباب قليلاً، فانسلت أمي إلى الغرفة. سمعت حفيف الثياب، وهي تنضوها عنها. صعدت إلى السرير. ثم صار تنفّسها بطيئاً ومنتظماً.

في أضواء مصباح الشارع الخافتة، والتي تتسرّب عبر مصراع النافذة المغلقة، لمحت لفافات شعرها وهي تلمع كصفّ من حربات صغيرة.

قرّرت تأجيل كتابة الرواية حتى أذهب إلى أوروبّا، وأعيش مغامرة عاطفيّة، كما أنّني لن أتعلم حرفاً واحداً من لغة الاختزال. إن لم أتعلم هذه اللغة، فلن يتوجب عليّ استخدامها.

فكرت بقضاء الصيف في قراءة Finnegans Wake، وكتابة أطروحتي.

سأكون— حين يبدأ العام الدارسي، في نهاية أيلول— قد قطعتُ أشواطاً، وأكون قادرة على الاستمتاع بسنتي الأخيرة، بدل الدراسة بجد، بشعر لزج ومن دون مساحيق تجميل، متبعة نظام حمية يقتصر على القهوة و[عقار] البِنزِدرِين Benzedrine، شأني شأن معظم طالبات السنة الأخيرة، اللواتي يحصلن على نتائج متميّزة، حتى ينهين أطروحاتهنّ.

ثم خطر ببالي أن أرجئ الكليّة لسنة أخرى كي أتعلم أصول صناعة الخزف.

أو أذهب إلى ألمانيا لأعمل نادلة حتى أتكلم الألمانيّة بطلاقة.

هكذا، راح مخطط إثر مخطط يقفز إلى ذهني كعائلة من الأرانب.

رأيت سنوات عمري ممدة على طول الطريق في شكل أعمدة، تجمعها خيوط الهاتف. شرعت في العد: واحد، اثنان، ثلاثة . . . تسعة عشر عموداً، ثم تشابكت الأعمدة في الأفق، ولم أستطع تميز عمود آخر بعد ذلك، رغم محاولاتي المتكرّرة.

بدت الغرفة مُشرّبة بالزرقة، فتساءلتُ أين اختفى الليل. استحالت أمي من كتلة ضبابيّة إلى امرأة نائمة في منتصف العمر. كان فمها مفتوحاً على نحو ما، والشخير ينبعث من حلقها. أزعجني هذا الصوت الأقرب إلى صوت الخنزير، ثم خطر ببالي أنّ الطرّيقة الوحيدة لوقف تلك الضوضاء، هي أن أمسك العصب والعضلة معاً، حتى تقع أمي، هامدةً، بين يديّ.

تظاهرت بالنوم حتى غادرت أمي إلى المدرسة، ومع ذلك لم تقو جفوني على حجب وهج الضوء. كانت تُعلق الحجاب الأحمر لأورتدها البالغة الصغر أمامي كجرح. زحفت بين الفِراش وهيكل السرير المُبطَن، وتركت الفِراش يقع

عليّ كشاهدة قبر. شعرت بالظلام والأمان هناك، بيد أن الفراش لم يكُن ثقيلاً بما يكفي.

كان ينبغي أن يكون الفِراش أكثر ثقلاً كي أخلد إلى النوم.

جرت مياه النّهر، متجاوزة [كنيسة] حواء وآدم، من مُنجَرف شاطئٍ إلى مُنعَطف خليج، تعدينا عبر شريان عريض إلى قلعة هوث وما جاورها . . .[34]

خلف الكتاب الضخم فراغاً هائلاً في داخلي.

جرت مياه النهر، متجاوزة منزل حواء وآدم . . .

فكرت أنّ الحرف الصغير small letter، الذي في [كلمة] البداية[35]، قد يعني أن لا شيء يبدأ من جديد، (بخلاف كتابتها بحرف كبير capital letter)، وإنّما يتدفق مما سبقه. فكنيسة حواء وآدم[36] كانت هي [منزل] آدم وحواء، ولكنّها قد تدل على شيء آخر أيضاً.

ربّما يتعلق الأمر بحانة في دبلن.

غرقت عيناي في ضباب الحروف الرقيق، حتى وصلت الكلمة الطويلة التي في منتصف الصفحة.

أحصيت الحروف. كان ثمة مائة حرف تحديداً. فكرت لا بُد أن يكون

34- مفتتح القسم الأول من رواية Finnegans Wake. (المراجع)

35- تقصد، هنا، كلمة riverurn التي افتتح بها جويس روايته، حيث لم يكتبها بحرف استهلاليّ كبير— كما هي العادة في الكتابة— وإنّما بحرف استهلاليّ صغير. (المراجع).

36- اسم كنيسة في دبلن. (المراجع).

ذلك مهماً.

لِمَ مائة حرف؟

بجهد جهيد، حاولت نطق الكلمة عالياً.

بدت كشيء خشبيّ ثقيل يقع أسفل الدرج، بوووم بوووم بوووم، درجة إثر درجة. تركت صفحات الكتاب– وأنا أقلبها– تتحرّك، ببطء، كمروحة أمام عينيّ. كانت الكلمات أليفة بشكل باهت، لكنّها تتخذ أشكالاً منحرفة، كوجوه في مرآة معرض أشياء غريبة، تمرّ سراعاً، من دون أن تخلف أيّ أثرٍ على صفحة دماغي الزّجاجية.

حدقتُ في الصفحة.

نبتت للحروف أشواك وقرون أكباش. شاهدتها، وهي تنفصل عن بعضها، مهتزّةً صعوداً وهبوطاً . . . ثم التحمت في أشكال رائعة لا يمكن ترجمتها، كحروف عربيّة أو صينيّة.

قرّرت التخلي عن أطروحتي.

قرّرت التخلي عن البرنامج الشرفي برمته، وأصير طالبة عاديّة متخصّصة في الأدب الإنجليزيّ. ذهبت إلى كليتي لأتقصّى شروط التخصص العاديّ في اللغة الإنجليزيّة.

كانت هنالك العديد من المتطلبات، ولم تكُن لديّ نصفها. كان أحد الشروط الالتحاق بحلقة في [أدب] القرن الثامن عشر. كنت أكره فكرة [آداب] القرن الثامن عشر في حد ذاتها، حيث يكتب جميع المتأنّقين مقاطع شعريّة مكونة من بيتين couplets، ويحرصون، كل الحرص، على المبادئ العقلانيّة، فعزفت عنها. كانوا يسمحون لنا بهذا الترف في البرنامج الشرفي،

حيث نتمتع بحريّة أكبر. كانت مساحة الحريّة كبيرة لأقضي معظم وقتي في قراءة أعمال ديلان توماس.

لم تستطع صديقة لي في البرنامج الشرفي أن تقرأ كلمة واحدة من شكسبير، لكنّها كانت خبيرة في رباعيّات أربع[37].

بدت محاولة الانتقال من البرنامج الحُرّ إلى برنامج آخر أكثر انضباطاً أمراً مستحيلاً، ومصدر قلق بالنسبة إليّ. لذلك استقصيت شروط دراسة الإنجليزيّة بكليّة المدينة حيث تعمل أمي.

كانت الشروط أسوأ.

على الطالب أن يلم بالإنجليزيّة القديمة وتاريخها ومقتطفات من كل ما كتب منذ بيوولف Beowulf إلى الحاضر.

استغربت الأمر. فقد كنت، على الدوام، أنظر بتعالٍ إلى الكليّة التي تدرّس فيها أمي. لم يتمكن الملتحقون بها من الحصول على منحة للدارسة في الجامعات الشرقيّة الكبيرة.

أدركت الآن أنّ أكثر أشخاص هذه الكليّة بلاهةً يلم بأشياء تفوق إدراكي. بدا واضحاً أنّهم لن يسمحوا لي أن أتخطى الباب، أو الحصول على منحة كبيرة، كتلك التي حصلت عليها من كليتي.

فكرت من الأفضل أن أشتغل لسنة، ومن ثَم أُفكر في أمر الدراسة من جديد. ربّما أدرس، خفية، [آداب] القرن الثامن عشر.

وما عساي أفعلُ وأنا لا أعرف لغة الاختزال؟.

أستطع العمل نادلةً أو كاتبة.

37- إشارة إلى العمل الشهير لتي. إس .إليوت (المراجع).

لكنّني لا أطيق فكرة أن أعمل بهاتين المهنتين.

«ألم تقولي أنّك لن تحتاجي مزيداً من الأقراص المنومة؟».

«بلى».

«ولكنّ الأقراص التي أعطيتك إيّاها في الإسبوع الماضي قويّة جداً».

«لم تعُد تحدث أيّ أثر».

كانت عينا تريزا Teresa المظلمتان الواسعتان تحدقان فيّ بتفكير. بإمكاني أن أسمع أصوات أبنائها الثلاثة، في الحديقة، أسفل نافذة غرفة الفحص. كانت خالتي ليبي Libby قد تزوجت إيطاليّاً، وتريزا هي أخت زوج خالتي، وطبيبة العائلة.

كنت أحبّ تريزا، فهي تتمتع بلمسة بَدَهيّة رقيقة.

أظنّ سبب ذلك يعود إلى كونها إيطاليّة.

عم صمت قليل.

«ما الأمر»، قالت تريزا.

«لا أستطيع النّوم. لا أستطيع القراءة».

حاولت التكلم بطريقة هادئة، لكنّ الصوت المرعب تعالى في حلقي وخنقني. قلبتُ راحتَيّ يديّ.

مزّقت تريزا ورقة بيضاء من دفتر وصفاتها الطبية ودونت اسماً وعنواناً.

«من الأفضل أن تزوري طبيباً آخر أعرفه. سيكون قادراً على مساعدتك أكثر منّي».

حدقتُ في الورقة، لكنّني لم أستطع قراءتها.

«الدكتور غوردن Gordon»، قالت تريزا. «إنّه طبيب أعصاب».

(11)

كانت غرفة الانتظار بعيادة الدكتور غوردن هادئة ومطليّة بلون البيج.

كانت الجدران والسجاجيد والكراسي المنجدة والأرائك مطليّة هي الأخرى بلون البيج. لم تكن ثمة مرايا أو صور، بل شهادات من كليات طبيّة مختلفة، تحمل اسم الدكتور غوردن، معلقة على الجدران. كانت سراخس خضراء باهتة متهدلة، وأوراق بنيّة شائكة، تملأ الأصص الخزفيّة، على طاولة الزاوية، وطاولة القهوة، وطاولة المجلات.

في البدء، تساءلتُ: لِمَ بدت الغرفة آمنة إلى حد بعيد. ثم أدركت أنّ سبب ذلك عائد إلى خلوها من النوافذ.

جعلني تكييف الهواء أرتعش.

ما زلت مرتدية بلوزة بِتسِي وتنّورتها الفضفاضة. بديتا مرتخيتن قليلاً، لأنّني لم أغسلهما منذ عودتي إلى البيت قبل ثلاثة أسابيع. كانت تنبعث من القطن المبلل بالعرق رائحة ودودة حامضة.

كما أنّني لم أغسل شعري منذ ثلاثة أسابيع.

ولسبعِ ليالٍ لم يغمض لي جفن.

أخبرتني أمي لا بُد أنّني قد نمت، فمن المستحيل ألا أنام طيلة ذلك الوقت؛ ولكن إن فعلت، فبعينين مفتوحتين على اتساعهما، ذاك أنّي لاحقت بعينيّ عقرب ثواني الساعة التي في طرف السرير، وعقربَي دقائقها وساعاتها، في حركتها الدائريّة ونصف الدائريّة، كل ليلة، لسبعِ ليالٍ،من دون أن أسهو

عن ثانية أو دقيقة أو ساعة.

ولأنّي وجدت الأمر في غاية السُخف، لم أغسل ثيابي وشعري.

رأيت أيّام السنة، ممددة أمامي، كسلسلة من صناديق بيضاء برّاقة، وكان النوم يفصل الصندوق عن الآخر، كظل أسود. كان المنظر الطويل للظلال التي تفصل صندوقاً عن الآخر، بالنسبة إليّ، قد تلاشى فجأة، فرأيتُ الأيّام تلمعُ أمامي، يوماً إثر يوم، مثل جادة بيضاء واسعة لا تنتهي.

بدا الأمر سخيفا؛ أن أغتسل يوماً، فيما يتوجب عليّ الاغتسال، ثانيةً، في اليوم التالي.

كان مجرّد التفكير في الأمر يجعلني أشعر بالتعب.

كنت أرغب في القيام بكل شيء، دفعة واحدة، وأنتهي من الأمر.

عبث الدكتور غوردن بقلم رصاص فضيّ.

«أخبرتني أمك أنّك قلقة».

إنكفأتُ في الكرسيّ الجلديّ الغائر، وواجهت الدكتور غوردن، عبر مساحة من مكتب شديد الصقل.

انتظر الدكتور غوردن. نقر بقلمه الرّصاص، نقرات خفيفة متواصلة، على طول دفتره الأخضر.

كانت رموش عينيه طويلة وكثيفة، فبدت غير حقيقيّة. قَصَبٌ بلاستيكيّ أسود يحيط ببركتين خضراوين جليديّتين.

كانت ملامح الدكتور غوردن مثاليّة، فكاد أن يكون وسيماً.

كرهته حين دخلت إلى الغرفة.

تخيّلت رجلاً عطوفاً، قبيحاً، ذا بصيرة، ينظر إليّ، ويقول «آه!» على

نحو مشجع، كما لو كان يرى شيئاً لا أستطيع رؤيته. حينئذ، سأجد الكلمات لأخبره كيف كنت مرتعبة، كما لو حُشرت في كيس أسود خانق لا مخرج منه.

سيتمدد، حينئذٍ، في كرسيّه، ويجعل أطراف أصابعه تلامس بعضها على شاكلة برج كنيسة صغير، ويخبرني سببَ عجزي عن النوم والقراءة والأكـل، ولِمَ يبدو كل ما يقوم به النّاس سخيفاً ما دام الموت هو مصيرهم المحتوم.

ثم فكرت أن بإمكانه مساعدتي، خطوة خطوة، لأكون نفسي ثانية.

بيد أنّه لم يكن كمثل ذلك إطلاقاً. كان شابّاً ووسيماً، ويمكنني أن أرى، على الفور، أنّه معتد بنفسه.

كان الدكتور غوردن يضع صورة فوتوغرافيّة على مكتبه، في إطار فضيٍّ، يواجه وجهه نصفها، فيما يواجه نصفها الآخر الكرسيّ الجلديّ الذي أجلس فيه. كانت صورة عائليّة تظهِر امرأة جميلة ذات شعر داكن (والتي يمكن أن تكون شقيقته) وهي تبتسم فوق رأسَي طفلين أشقرين.

أظنّ أحدَ الطفلين كان صبيّاً والآخر بنتاً، وربّما كانا صبيّين أو بنتين، فمن الصّعب معرفة ذلك حين يكون الأطفال صغاراً. وأظنّ أن ثمة كلباً في الصّورة أيضاً، في الجهة السفليّة— من فصيلة الأَرديِل أو كلب صيد ذهبيّ— وربّما هو شكل تنورة المرأة، ليس إلاّ.

جعلتني الصورة، لسبب ما، أستشيط غضباً.

لم أدر السبب الذي جعل الدكتور غوردن يدير نصف الصورة نحوي إن لم يكن يحاول إعلامي، مباشرة، أنّه متزوج بامرأة فاتنة، كي لا تتبادر إلى ذهني أفكار غريبة.

ثم فكرت، كيف يمكن لهذا الطبيب مساعدتي على أيّة حال، وهو المحاط بزوجة جميلة وطفلين جميلين وكلب جميل، يطوقونه بهالة، كهالة الملائكة في بطاقات أعياد الميلاد؟

«حاولي أن تخبريني بما يكدر صفوك».

قلبت الكلمات بريبة، مثل حصىً مدور صقلته مياه البحر، والذي قد يُنشب مخالبَ، فجأة، ويصير شيئاً آخر.

ما الذي يعكر صفوي؟

بدت تلك الصياغة وكأن لا شيءَ عكر صفوي فعليّاً، لكنّني اعتقدت ذلك.

وبصوت رتيبٍ خفيض- كي أُظهِر أنّني لم أقع تحت سحر ملامحه الجميلة، أو صورته العائليّة- أخبرت الدكتور غوردن حول عجزي عن النوم والأكل والقراءة. لم أخبره عن خط يدي، أكثر الأشياء التي أزعجتني.

في ذلك الصباح، حاولت كتابة رسالة إلى دورين، التي كانت تتواجد في ڤرجينيا الغربيّة، سائلةً إمكانيّةَ العيش معها، وربما أعمل نادلةً في [مقصف] كليّتها، أو شيء من هذا القبيل.

ولكنّي حين أخذت قلمي، طفقت يدي تخط حروفاً ملتوية ضخمة، كتلك التي يخطها طفل صغير، وكانت الخطوط تنحدر أسفل الصفحة، من اليسار إلى اليمين، على نحو مائل تقريباً، كما لو كانت عُقد خيوط تتمدد على الورقة، حتى جاء شخص ما، فعبث بها، ثم جعلها تتخذ أشكالاً منحرفة.

كنت أعلم أنّني لا أستطيع إرسال رسالة كتلك، فمزّقتها مِزَقاً ووضعتها في حقيبة الجيب، قرب العلبة الصغيرة المتعددة الوظائف، في حال سأل الطبيب النّفسي عنها.

لكنّ الدكتور غوردن لم يسأل عنها، ولم أذكرها له، فسرّني ذكائي. فكرت بقول ما أريد، وأنني أستطيع التحكُم بالصورة التي رسمها لي، بإخفاء هذا الشيء، والكشف عن ذاك، فيما يعتقد أنّه حاذق.

وطيلة الوقت الذي تحدثت فيه، كان الدكتور غوردن يحني رأسه، كما لو كان يصلي. لم تكن الضجة الوحيدة، بعيداً عن الصوت الرتيب الخفيض، سوى نقرات قلم رصاص الدكتور غوردن الخفيفة على ذات البقعة في الدفتر الأخضر، مثل عِصيّ المشي الطويلة.

وحين أنهيت كلامي، رفع الدكتور غوردن رأسه.

«بأيّة كلية التحقت؟»

محتارةً، أخبرته. لم أرَ علاقةً للكلية بالأمر.

«آه!»، أسند الدكتور غوردن ظهره إلى ظهر الكرسيّ، محدقاً في الفضاء فوق كتفيّ بابتسامة مثيرة للذكريات.

ظننت أنّه سيخبرني بنتيجة التشخيص، وأنّني ربّما تسرّعت في الحكم عليه وكنت فظة معه. لكنّه اكتفي بالقول: «أتذكر كليّتك جيّداً. كنت هناك خلال الحرب. كانت لديهم محطة تابعة لفيلق النساء WAC، أليس كذلك؟ أو لعلها كانت تابعة لفرقة المتطوعات في البحريّة WAVES؟»[38].

أخبرته أنّني لا أدري.

«بلى، كانت محطة تابعة لفيلق النساء، أتذكر الآن. كنت الطبيب المقيم

38- WAC اختصار لِـ The Women's Army Corps (1945-1978)؛ وWAVES اختصار لِـ Women Accepted for Volunteer Emergency Service، وهي فرقة قُصرت على النساء كانت تابعة للبحريّة الأميركيّة إبّان الحرب العالميّة الثانية. (المراجع).

هناك، قبل أن يرسلوني إلى ما وراء البحار. يا إلهي! كانت هنالك مجموعة جميلة من الصبايا».

ضحك الدكتور غوردن.

ثم نهض على قدميه، بحركة رشيقة واحدة، وراح يخطو حول زاوية المكتب. لم أكن متأكدة مما كان سيقدم عليه، فانتصبت واقفة أنا الأخرى.

مد الدكتور غوردن يده إلى اليد المعلقة في جهتي اليمنى وحرّكها.

«أراك في الأسبوع القادم، إذن».

كانت أشجار الدردار المتفتحة قد أقامت نفقاً من ظلال فوق واجهات القرميد الأصفر والأحمر على طول جادة كُمُنوِلث Commonwealth، وكانت عربة ترولي تشقّ طريقها، نحو بوسطن، أسفل سكتها الفضيّة الرفيعة. أنتظرت حتى مرّت الترولي، ثم عبرت نحو الشيفروليه Chevrolet عند الحاجز الحجريّ المقابل.

أستطيع رؤية وجه أمي، قلقاً وأصفر مثل قطعة ليمون، تحدق فيّ عبر حاجب الريح الأماميّ.

«حسناً، ماذا قال لكِ؟».

سحبت باب السيّارة وأغلقته. لكنّه لم ينغلق. فدفعته، وأغلقته — بقوة — مرّة أخرى.

«أخبرني أن أزوره في الأسبوع المقبل».

تنهّدت أمي.

كان الدكتور غوردن يتقاضى خمسة وعشرين دولاراً في الساعة.

«أنتِ، هناك، ما اسمكِ؟»

«إلي هِغنبَتِم».

لحقني البحار، ثم ابتسم.

لا بُد أنّ عدد البحارة في [متنزّه] كُمُن Common بعدد الحمام. يبدو أنّهم كانوا يخرجون من مركز قاتمٍ للتجنيد في الجهة القصيّة، ترتفع من حوله، وعلى جدرانه الداخليّة، ملصقاتٌ على لوحات إعلانيّة كُتِب عليها: «انضموا إلى البحريّة».

«من أين أنتِ، يا إلي؟».

«شيكاغو».

«لم أذهب إلى شيكاغو من قبْل، لكنّني أعرف شابّاً أو اثنين التحقا بجامعة شيكاغو، وقد بدت لي أنّها من نوع تلك الأمكنة التي يخرج منها أشخاص غريبو الأطوار.

«لا بُد أنّك بعيدة عن الديار».

طوق البحار خصري بذراعه، ومشينا حول [متنزّه] كُمُن، على تلك الشاكلة، طويلاً. فرك البّحار وركي عبر التنّورة المتهدلة، فيما كنت أبتسم على استحياء محاولة ألاّ أقول شيئاً يدل على أنّي من بوسطن، فربّما أصادف السيّدة ويلارد– أو إحدى صديقات أميّ– في أيّ لحظة، وهي تعبر [المتنزّه] بعد تناول الشاي بِبيكِن هِل Beacon Hill[39]، أو التسوُق لدى [مخازن] فِيلينز بِيسمَنت Filene's Basement.

خطر ببالي لو أتمكن من الذهاب إلى شيكاغو يوماً ما، قد أغيّر اسمي ليصبح «إلي هِغنبَتِم» إلى الأبد. لن يعرف أحدٌ أنّي تخليت عن منحة لأدرس

39– حيّ تاريخيّ شهير ببوسطن، يقع شمال متنزّه كُمُن Common (المراجع).

بإحدى الكليّات الشرقيّة الكبيرة المخصّصة للبنات، وقضيت شهراً في نيو يورك، ورفضت الزّواج بطالب مثاليّ يدرس الطب، والذي سيصبح- ذات يوم- عضواً بالجمعيّة الطبية الأميركيّة، ويجني أموالاً طائلة.

في شيكاغو، سيقبلني الناس مثلما أنا.

سأكون مجرّد إلِي هِغِنبَتِم، اليتيمة. سيحبّني الناس لطبيعتي اللطيفة، الهادئة. لن يلحوا عليّ لأقرأ الكتب، وأكتب دراسات طويلة حول التوأم في [رواية] جيمس جويس[40]. وقد أتزوج- ذات يوم- ميكانيكيّاً فحلاً رقيقَ المشاعر، وأحظى بعائلة كبيرة مثل دُودُو كَنواي.

هذا لو وجدت الرغبة في نفسي للقيام بذلك.

«ماذا تريد أن تعمل بعد مغادرة البحريّة؟» سألتُ البحار فجأةً.

كانت تلك هي أطول جملة قلتها، فبدا كمن أُخِذ على حين غِرّة. دفع قبعته البيضاء، التي تُشبه كعكةً مُكوَبةً[41]، جانباً، وحكَ رأسه.

«حسناً، يا إلِي، فأنا لا أعرف شيئاً»- قال. «قد ألتحق بالجامعة، مستفيداً من المنح التعليميّة التي تقدم لمن حارب في الحرب العالميّة الثانية.»

صمتُ برهةً. ثم قلت مقترحةً: «هل فكرت في فتح ورشة لتصليح السيّارات؟»

«كلاّ»، قال البحار. «لم يخطر ببالي أبداً».

نظرت إليه شَزراً. بدا أنّه لم يتجاوز السادسة عشرة بيوم واحد.

«أتدري كم عمري؟» قلتُ بنبرةٍ تتوعّد.

40- إشارة إلى رواية Finnegans Wake. (المراجع).

41- Cupcake: كعكة صغيرة تخبز في قالب كوبيّ الشكل. (المراجع).

كشر البحار في وجهي. «كلاّ، ولا يعنيني ذلك أيضاً».

خطر ببالي أنّ هذا البحار وسيم على نحو لافت للنظر. بدا من أصول جرمانيّة، ولم يسبق أن مارس الجنس من قبْل. أحسست أنّي ساذجة، فقد بدا الأمر كأنّني لا أثير اهتمام سوى المهذبين الوسيمين.

«حسناً، أنا في الثلاثين»، قلتُ، وانتظرت.

«مستحيل، إلِي، لا يبدو عليكِ ذلك». قرص البحار وَرِكي.

ثم ألقى نظرة مسرعة، ذات الشمال، وذات اليمين. «اسمعي إلِي، إن صعدنا نحو تلك السلالم، هناك، أسفل النُّصُب التذكاريّ، أستطيع تقبيلكِ».

لمحتُ— في تلك اللحظة— هيئةً بُنيّةً، تنتعل حذاء بنيّاً مُفلطحاً، تمشي بخطىً واسعة، عبر [متنزّه] كُمُن، تتجه صوبي. لم أستطع، من بعيد، تمييز ملامح الوجه الذي كان بحجم دَايم dime، غير أنّني أدركت أنّها السيدة ويلارد.

«هل لك أن تدلني على الطريق إلى المترو؟»، قلتُ إلى البحار بصوت عال.

«ماذا؟»

«المترو الذي يذهب إلى سجن جزيرة الغزلان Deer Island؟»

سأتظاهر، حين تأتي السيدة ويلارد، أنّني كنت أسأل البحار عن الاتجاهات، وأنّي لا أعرفه أبداً.

«أبعد يديك عنّي»، قلت من بين أسناني.

«ما الخطب يا إلِي؟»

اقتربت المرأة ومرّت من دون أن تنظر أو تومئ. لم تكن السيدة ويلارد.

فالسيدة ويلارد في كوخها بالأديرونداكس.

حملقتُ، مغتاظة، في ظهر المرأة المتراجعة.

«ما الأمر، إِلي . . .»

«ظننت أنّي أعرفها»، قلتُ. «سيّدة من دار الأيتام بشيكاغو».

طوقني البحار بذراعه ثانيةً.

«أتقصدين أن لا أب لكِ، ولا أم؟»

«كلاّ». ذرفت دمعة بدت حقيقيّة. تركت خطاً صغيراً ساخناً فوق خدي.

تكلمي، يا إِلي، لا تبكي. هل كانت هذه السيدة وضيعةً معكِ؟»

«لقد كانت . . . كانت فظيعة!»

انثالت الدموع مدرارةً، وفيما كان البحار يضمني ويمسح الدموع بمنديل كتانيّ كبيرٍ نظيفٍ أبيض، في ظل شجرة دردار أميركيّة، فكرت أيّ امرأة فظيعة كانتها السيدة ذات البزّة البنيّة، وكيف أنّها (أعرفت ذلك أم لم تعرف) كانت مسؤولة عن اتخاذي لمنعطف خاطئ هنا، وطريق خاطئة هناك، وعن كل الأمور السيئة التي تلت ذلك.

«حسناً، إِستِر، كيف تشعرين هذا الأسبوع؟»

أمسك الدكتور غوردن قلمه الرصاص مثل طلقة فضيّة رفيعة.

«لا جديد».

«لا جديد؟» لوى حاجبه، كما لو أنّه لا يصدق ذلك.

ولهذا أخبرته مرّة أخرى، وبذات الصوت الخفيض الرتيب، ولكن بنبرة أكثر حدة وغضباً هذه المرّة– لأنّه بدا بطيء الفهم– كيف لم أستطع النوم

لأربع عشرة ليلة، وكيف لم أستطع القراءة أو الكتابة أو التهام الطعام بشكل جيّد.

بدا الدكتور غوردن غير متأثر.

أقحمت يدي في محفظتي وعثرت على مِزَق رسالتي إلى دورين. أخذتها وجعلتها ترفرف فوق الدفتر الأخضر النظيف للدكتور غوردن. ثم سَكَنَت هناك، بكماء كبَتَلاتِ أقحوانة في مرج صيفيّ.

«ما رأيكَ بهذا؟»

لا بُد أنّ الدكتور غوردن قد لاحظ على الفور كم كان خطي سيئاً، ولكنّه اكتفى بالقول: «أعتقد أنّني راغب في الحديث إلى أمك. أتمانعين؟»

«كلاّ». لم ترُق لي فكرة أن يتحدث الدكتور غوردن إلى أمي أبداً. فقد يخبرها بضرورة وضعي في إحدى المصحات. التقطت جميع مزَق رسالتي إلى دورين خشية أن يقوم الدكتور غوردن بتجميعها، فيكتشف أنّني كنت أخطط للهروب، وخطوت خارج مكتبه من دون كلمة أخرى.

راقبتُ أمي، وهي تزداد صِغَراً، حتى تلاشت عبر باب بناية مكتب الدكتور غوردن. ثم راقبتها، وهي تزداد كِبَراً، حين عادت إلى سيّارتها.

«حسناً؟» أظنّها كانت تبكي.

لم تنظر أمي إليّ. أدارت محرّك السيارة.

ثم قالت، والسيّارة تنزلق بنا تحت الظلال الكثيفة لأشجار الدردار: «يظنّ الدكتور غوردن أنّك لم تتحسني بتاتاً. يعتقد بضرورة خضوعك لعلاج بالصّعقة الكهربائيّة بمستشفاه الخاصّ في والتِن Walton».

شعرتُ بوخزة فضول حادة، كما لو قرأت، للتو، عنواناً مرعباً لمقال

في إحدى الصحف، يتحدث عن شخص آخر.

«هل يقصد أن أقيم هناك؟»

«كلاّ، قالت أمي، وذقنها يرتعش.»

لا بُد وأنّها كانت تكذب.

«أخبريني بالحقيقة»– قلتُ– «وإلاّ لن أخاطبك ثانيةً».

«ألا أخبرك بالحقيقة دوماً؟»، قالت أمي، ثم انفجرت باكية.

إنقاذ شخص حاول الانتحار من حافّة الطابق السابع!

بعد ساعتين من الوقوف على حافّة الطابق السابع الضيقة فوق موقف سيارات من الكونكريت وحشدٍ من الناس، قام الرّقيب ويل كِلمَارتن Will Kilmartin من شرطة شارع تشارلز، عبر نافذة قريبة، بإقناع السيد جورج بيلوتشي Pollucci بالعدول عن الانتحار.

كسرت قشرة حبّة فول سودانيّ سحبتها من الكيس الذي اشتريته لإطعام الحمام، والذي كلفني عشرة سنتات، وأكلتها. بدا طعمها تَفِهَاً، مثل طعم لحاء شجرة عجوز.

قرّبت الصحيفة إلى عينيّ حتى أنظر، عن كثب، إلى وجه جورج بيلوتشي، الذي كانت تغمره الأضواء، مثل قمر في تربيعه الأخير[42] قُبالة سماء

42– أي عندما يكون القمر قد أتم ثلاثة أرباع دورته حول الأرض. (المراجع).

قرميديّة سوداء. شعرت أنّه يريد إطلاعي علي شيء مهم، ومهما يكُن ذلك الشيء، فهو مكتوب على وجهه.

لكنّ الخطوط الضبابيّة لملامح جورج بيلوتشي ذابت حين نظرت إليها، وصارت نقطاً سوداء ورماديّة، فاتحة وغامقة، منتظمة في نسَق واحد.

لم تُشِر فقرة الصحيفة المحبَّرة بالأسود لمَ كان السيّد بيلوتشي على الحافّة، وماذا فعل له الرقيب كِلمَارتِن حين تمكن أخيراً من إدخاله عبر النافذة.

كانت مشكلة القفز تكمن في أنّك إن لم تختر العدد الصّحيح من الطوابق، فإنّك قد تظل علي قيد الحياة عندما ترتطم بالأرض. أظنّ أن سبعة طوابق مسافة آمنة.

طويت الجريدة، وحشرتها بين قِدَد مقعد الحديقة الطويل. كانت جريدة مما تطلق عليها أمي اسم جرائد الفضائح، مليئة بالجرائم وحوادث الانتحار والضرب والسرقة، وثمة امرأة نصف عارية، في كل صفحة تقريباً، وقد اندلق نهداها من فوق حافّة ثوبها، وعدلت من وضعيّة سيقانها، فيستطيع المرء رؤية أعلى جوربيها.

لم أعرف لمَ لم أشترِ أيّاً من تلك الجرائد من قبل. كانت هي الشيء الوحيد الذي أستطيع قراءته. كانت فقرات العناوين، التي بين الصور، تنتهي قبل أن تحظى الحروف بفرصة أن تغدو متلوية ومزهوة بنفسها. كانت [صحيفة] كريستاين صاينص مونيتور Christian Science Monitor هي الصحيفة الوحيدة التي أراها في المنزل، والتي تظهر على عتبة البيت في الخامسة من كل يوم، إلاّ يوم الأحد، وتعالج حوادث الانتحار والجرائم الجنسيّة وتحطم الطائرات، كما لو أنّها حوادث لا تقع أبداً.

اقترب من مقعدي قارب كبير، في شكل إوزّة بيضاء، مليء بالأطفال الصغار، انعطف حول جزيرة صغيرة مكسوة بآجام تعج بالبط، ثم جدف عائداً، أسفل القوس المعتم للجسر. يبدو كل شيء أنظر إليه مشعّاً، وفي غاية الصِّغَر إلى حد بعيد.

رأيتُ، كما لو عبر ثقب مفتاحِ بابٍ لم أستطع فتحه . . رأيتُنِي وأخي الأصغر بقامته التي تصل إلى ركبتيّ، وهو يحمل بالونات بآذان كآذان الأرانب، نصعد إلى ظهر قارب في شكل إوزّة، ونكافح من أجل مقعد في الزاوية التي تطل على المياه المرصوفة بقشر الفول السودانيّ. كان لفمي طعم النّقاء والنعنع الفُلفليّ. كانت أمي تأخذنا— حين نُحسن التصرُّف في عيادة طبيب الأسنان— في جولة على متن القارب الذي يشبه الإوزّة.

درت حول Public Garden [الحديقة العامة]- فوق الجسر، وأسفل النُّصُب التذكاريّة الزرقاء المخضرة، مارّة بالمدخل وحوض زهور العلم الأميركيّ، حيث بوسع المرء أن يحظى بصورة على خلفيّة مخططة بالبرتقاليّ والأبيض لقاء خمسة وعشرين سنتاً— ورحتُ أقرأ الأسماء المحفورة على الأشجار.

كانت شجرتي المفضلة هي شجرة العالِم الباكي Weeping Scholar Tree[43]. لا بُد أنّها قدمت من اليابان. فهم يدركون أحوال الرّوح في اليابان.

كانوا يبقرون بطونهم حين تسوء الأمور.

حاولت تخيُّل كيف يقومون بذلك. لا بُد من وجود سكين قاطعة.

43- وهي شجرة الباغودا Pagoda اليابانيّة الضخمة النُّواسيّة المتهدِلة، والتي تزرع في الشوارع. (المراجع).

كلاّ، ربّما سكينتان قاطعتان. ثم يجلسون القرفصاء، ممسكين بسكين واحدة في كل يد. ثم يصالبون أياديهم ويشقّون بطونهم. لا بُد أن يكونوا عراة وإلاّ علقت السكين بثيابهم.

ثم، كلمح بالبصر، وقبل أن يفكروا في الأمر ثانيةً، يطعنون بطونهم بالسكاكين ويديرونها، واحدةً في الشق الهلاليّ العلويّ، والأخرى في الشق الهلاليّ السفلي، حتى يكملوا الدائرة. ثم يرتخي جلد بطونهم، مثل طبق، فتندلق أحشاؤهم ويموتون.

لا بُد أن الموت على تلك الشاكلة يتطلب شجاعة فائقة.

مشكلتي أنّني أكره منظر الدم.

خطرت ببالي فكرة البقاء في الحديقة طوال الليل.

كانت دُودُو كنواي، في صبيحة اليوم التالي، تقلني وأمي بسيارتها إلى والتِن Walton، وإن كنت سأهرب قبل فوات الأوان، فهذا هو الوقت المناسب. بحثت في محفظتي، فوجدت بها دولاراً واحداً وتسعة وسبعين سنتاً من مختلف القطع النّقديّة.

لم تكُن لديّ أدنى فكرة عما سيكلفه السفر إلى شيكاغو، ولم أجرؤ على الذهاب إلى البنك لسحب كل نقودي، فقد يكون الدكتور غوردن قد حذر موظف البنك، طالباً منه أن يعترض سبيلي إن أقدمت على شيء من ذلك القبيل.

فكرت أن ألوح للسيّارات، بيد أنّه لم تكُن لديّ أدنى فكرة عن الطريق التي تؤدي إلى شيكاغو. من السهل معرفة الاتجاهات على الخريطة، غير أنّي عادة ما أخفق في تحديد الاتجاهات حين أعلق وسط مكان ما. وفي كل مرّة

حاولت فيها تخمين جهة الشرق أو الغرب، يكون الوقت ظهراً، أو يكون الجو ملبّداً بالغيوم، فتذهب محاولاتي أدراج الرياح، أو يكون الوقت ليلاً، فلا تسعفني معرفتي الضحلة بالنجوم (والتي تقتصر على الدب الأكبر وذات الكرسيّ) في شيء أبداً، وهو أمر كان- بالنسبة إلى بَدِي ويلارد- مثبّطاً للهمة.

قرّرت أن أمشي إلى محطة الحافلات، وأسأل عن ثمن التذكرة إلى شيكاغو. ومن ثَم قد أذهب إلى البنك لأسحب المبلغ المطلوب تحديداً، الأمر الذي لن يثير الشكوك أبداً.

كنتُ، للتو، قد مررت عبر الأبواب الزجاجيّة للمحطة، وأنا أتفحص الكتيّبات الملونة وجداول مواعيد الانطلاق، حين تنبّهت إلى أنّ البنك الذي في بلدتي سيكون قد أغلق أبوابه، ذاك أنّ الوقت قد جاوز منتصف ما بعد الظهيرة، ولن أستطيع الحصول على أيّة نقود حتى اليوم التالي.

كان موعدي بِوَالتن في الساعة العاشرة.

في تلك اللحظة، عادت الحياة إلى مكبّر الصوت، فراح يعلن عن محطات توقُّف حافلة تستعد للمغادرة في موقف الحافلات في الخارج. واصل الصوت في المكبّر إعلانه، كما هو ديدنه دائماً- بحيث تلتبس الكلمات وتستعصي على الفهم- ثم، حينئذٍ، وفي غمرة ذلك السكون، سمعت اسماً مألوفاً، واضحاً مثل نغمة عالية على البيانو وسط الآلات الإيقاعيّة لأوركسترا ما.

كانت محطة توقّف لا يفصلها عن منزلي سوى حارتين.

هرعتُ إلى الخارج، في الأصيل الحارّ المغبرّ لنهاية شهر تموز، أتفصّد عرقاً، وذرّات الرمل تملأ حلقي، كما لو إنّني تأخرت عن مقابلة صعبة،

وركبت الحافلة الحمراء التي كان محرّكها يهدر.

سلمت السائق الأجرة، ثم بصمت، وعلى مفاصل مغلفة، انطبق الباب ورائي.

(12)

توج المستشفى الخاص بالدكتور غوردن قمة مرتفع عشبي عند نهاية طريق خاصّ مُنعزلٍ، بُيِّضَ بأصدافِ بَطْلينوس مكسورة. كانت الألواح الخشبيّة الصّفراء للمنزل الكبير، بشرفته التي تحيط به من كل جانبٍ، تلمعُ في الشمس، غير أن لا أحد كان يتمشى فوق قُبّة المرجِ الخضراء.

وحين اقتربتُ وأمي، لفح حرّ الصيف رأسينا، وأزّت [حشرة] زِيز حصادٍ، كجزّازة عشب هوائيّة، في قلب شجرة زان حمراء في الخلف. لم يعمل صوت زيز الحصاد سوى على تأكيد الصمت الهائل.

قابلتنا ممرّضة عند الباب.

«هلاّ تنتظران في غرفة الجلوس، من فضلكما. سيأتي الدكتور غوردن بعد قليل».

ما أزعجني هو أنّ كل شيء في المنزل يبدو طبيعيّاً، رغم أنّني أعلم أنّه يغصّ بالمجانين. لم يكن ثمة قضبان على النوافذ، ولا أصوات مسعورة أو مزعجة. وازنت أشعّة الشمس نفسها في مستطيلات منتظمة على السجادات الحمراء الناعمة، وفاحت في الهواء رائحة عشب جُزّ للتو.

وقفت في مدخل حجرة الجلوس.

اعتقدتُ، لبرهةٍ، أنّها مشابهة لردهةِ منزل ضيافةٍ زرته مرّة في جزيرة بعيدة عن ساحل مِين Maine. سمحت الأبواب الفرنسيّة لضياء أبيض يخطف الأبصار بالدخول، واحتل بيانو كبير الزاوية القصيّة من الغرفة، وكان أُناسٌ

بثياب صيفيّة يجلسون على طاولات لعب الورق، وفي كراسي مُملَدة متمايلة، كتلك التي يجدها المرء غالباً على شواطئ المنتجعات الخَرِبة.

ثم أدركت أن لا أحد يتحرّك. حدقت أكثر، محاولة التوصل إلى دليل من خلال وضعيّات أجسادهم المتيبسة. رأيت رجالاً ونساءً، وأولاداً وبناتاً في مثل عمري، لكنّ مسحة متماثلة كانت تعلو وجوههم، كما لو رقدوا طويلاً على رفٍّ، بعيداً عن أشعّة الشمس، وتحت نثار غبار شاحب.

ثم رأيت بعض الناس يتحرّكون فعلاً، ولكن بإيماءات صغيرة، مثل حركات العصافير، فلم أنتبه إليهم أولاً.

كان رجلٌ كئيب يعد مجموعة من ورق اللعب، واحدة، اثنتان، ثلاث، أربع . . . ظننته يحاول معرفة إن كانت مجموعةً كاملة، غير أنّه ما إن انتهى من العد حتى بدأ من جديد. وإلى جانبه، كانت سيّدة بدينة تعبث بخيط من خرز خشبيّ. كانت تدفع الخرز، دفعة واحدة، إلى طرف الخيط. ثم تتركها تتساقط فوق بعضها، واحدةً تلو الأخرى.

على البيانو، كانت صبيّة تتصفّح بضع أوراق نوتات موسيقيّة، ولما رأتني أحدق فيها، أحنت رأسها على نحوٍ نزق، ومزّقت الأوراق نصفين.

جست أمي ذراعي، فتبعتها إلى الغرفة.

جلسنا، من دون كلام، على أريكة تصرّ كلما تحركنا.

ثم تحول نظري تدريجيّاً إلى الأعلى، إلى بريق أخضر خلف الستائر الشفافة، فشعرت كما لو أنّي جالسة في نافذة عرض متجر ضخم. لم تكُن الأشكال التي من حولي بشراً، بل تماثيل لعرض الثياب، طُليت لتشبه الناس، وفي وضعيّات تشي أنّها على قيد الحياة.

صعدتُ السلالم أتعّقب خطى الدكتور غوردن الذي كان يرتدي سترة غامقة.

وأسفل الدرج، في الردهة، حاولت الاستفسار عن طبيعة العلاج بالصعقة الكهربائيّة، لكنّني حين فتحت فمي أَبَـتِ الكلمات أن تخرج، جحظت عيناي وحدقت في الوجه الحميم المبتسم الذي يعوم أمام ناظريّ مثل صفحة من التطمينات.

وفي أعلى السلالم، توقّفت السجادة التي بلون العقيق الأحمر. تَعرَّجَ على الأرض، مكانها، مشمع بنيّ عاديّ، ممتداً على طول رواق ترتصف على جنباته أبواب بيضاء. وأنا أتبع الدكتور غوردن، فُتح بابٌ في مكان ما في المسافة، فسمعت امرأة تصرخُ.

فجأةً، أطلت ممرّضة عند زاوية الرواق أمامنا، وهي تقود امرأة في بُرنس حمام أزرق، ولها شعر أشعث يتدلى حتى خصرها. تراجع الدكتور غوردن إلى الخلف، فيما التصقتُ بالجدار.

وفيما كانت تُجَرُّ المرأةُ، ملوحةً بذراعيها، محاولةً الإفلات من قبضة الممرّضة، كانت تقول: «سأقفز من النافذة، سأقفز من النافذة، سأقفز من النافذة».

قصيرةً، بدينةً، ونامية العضلات، في زيّها الملطخ من الأمام، كانت ممرّضة ذات عين بيضاء[44]، ترتدي نظارة سميكة، فتطلعت فيِّ أربع عيون من خلف العدستين الدائريتين التوأمين. كنت أحاول تمييز أيّ العيون حقيقيّة وأيّها مزيّفة، وأيّ العينين الحقيقيّتين كانت هي البيضاء وأيّهما كانت السليمة، حين

44- كعين الفرس؛ ذات حدقة ضاربة إلى البياض. (المراجع).

قرّبت وجهها من وجهي بتكشيرة تآمريّة، ثم همست، كما لو تريد طمأنتي: «تظنّ أنّها ستقفز من النافذة، لكنّ ذلك مستحيل، فثمة قضبان على جميع النّوافذ».

وحين قادني الدكتور غوردن إلى غرفة خالية في الجانب الخلفيّ من المنزل، رأيت أنّ النوافذ التي في ذلك الجزء كانت بقضبان فعلاً، وأنّ باب الغرفة وباب الخزانة وأدراج المكتب وكل شيء يفتح ويغلق مجهّز بثقب مفتاح حتى يمكن إقفاله.

تمددت على السرير.

عادت الممرّضة ذات العين البيضاء. فكت ساعة يدي وألقت بها في جيبها. ثم راحت تقرص الدبابيس من شعري.

كان الدكتور غوردن يفتح الخزانة. سحب طاولة على عجلات تتربّع عليها آلةٌ، ثم جرّها خلف مقدمة السرير. راحت الممرضة تمسح صدغيّ بمادة زيتيّة كريهة الرائحة.

وحين مالت فوقي لتصل إلى الجهة التي يتواجد فيها رأسي قرب الجدار، لفّ ثديها الممتلئ الكبير وجهي كغمامة أو وسادة. فاحت من جلدها رائحة دوائيّة غامضة نَتنة.

«لا تقلقي»، كشرت الممرضة في وجهي. «كلهم فزعوا، في المرة الأولى، إلى حد الموت».

حاولت الابتسام، لكنّ جلدي تيبّس، مثل رقّ.

كان الدكتور غوردن يضع صفيحتين معدنيّتين على كل جهة من رأسي. شدها برباط بَعَج جبيني، ثم أعطاني سلكاً معدنيّاً رفيعاً لأعض عليه.

أغمضتُ عينيّ.

ران صمت قصير، كأنفاس حُبِسَت.

ثم انحنى عليّ شيءٌ وأمسكني ورجني كأنّها نهاية العالَم. وِي— ي— ي— ي، زعق، عبر هواء يتفرقع وميضاً أزرق، ومع كل ومضة كانت رجة قويّة تهزُّني حتى خِلتُ عظامي تتكسر والدم يشخب منّي مثل نبته مشطورة.

تساءلت أيّ شيء مرعب كنت قد اقترفته.

كنت أجلس في كرسيّ مملد، أحمل كأساً صغيرة من عصير الطماطم. كانت الساعة قد أعيدت إلى رسغي، لكنّها بدت غريبة. ثم أدركت أنّها رُبِطت رأساً على عقب. أشعر بالطريقة الغريبة التي وُضعت فيها الدبابيس في شعري.

«كيف تشعرين؟».

طفا في ذهني مصباحُ أرضيّة معدنيّ عتيق. كان أحد الأشياء القليلة التي خلفها والدي في مكتبه، كان محاطاً بناقوس نحاسيّ يحمل اللمبة التي يتدلى منها سلك متهرّئ، بلون جلد النمر، يمتد على طول قاعدة معدنيّة، موصول بقابس في الجدار.

قرّرت، ذات يوم، أن أحرّك هذا المصباح من زاوية سرير أمي إلى مكتبي في الطرف الآخر من الغرفة. كان الحبل طويلاً بما يكفي، لذا لم أنزعه من القابس. أطبقت كلتا يديّ على المصباح والسلك الأجعد، وشددت عليهما بقوة.

حينئذٍ، لمع من المصباح شيء في شكل وميض أزرق ورجني حتى اصطكت أسناني. حاولت سحب يديّ، لكنّهما كانتا عالقتين، فصرخت، أو لعلها كانت صرخةً شقّت حنجرتي، لأنّني لم أميّزها، بل سمعتها تعلو وتتهدج

في الهواء كروح تحرّرت، بعنف، من أصفاد الجسد.

ثم تحرّرت يداي مُرتجّةً، فهويتُ على ظهري في سرير أمي. كان ثقب صغير مُسوَد– كما لو بقلم رصاص– قد انحفر في منتصف راحة يدي اليمنى.

«كيف تشعرين؟»

«بخير».

لكنّني لم أكُن بخير، كان ينتابني شعور فظيع.

«ما اسم الكليّة التي قُلتِ أنّك درست فيها؟»

أخبرته باسمها.

«آه!». أشرق وجه الدكتور غوردن بابتسامة متراخية، تكاد تكون مصطنعة.

كانت لديهم محطة تابعة لفيلق النساء خلال الحرب، أليس كذلك؟».

كان كاحلا أمي أبيضين بلون العظام، كما لو انسلخ عنهما الجلد في ساعة الانتظار. نظرت مباشرة إلى الدكتور غوردن، ولا بُد أنّه أومأ، أو ابتسم، لأنّ علامات الارتياح ارتسمت على محيّاها..

«بضع جلساتٍ أخرى من العلاج بالصعقة، سيّدة غرينوود»، سمعتُ الدكتور غوردن، «وأظنّك ستلاحظين تحسناً رائعاً».

لم تبرح الفتاة مكانها عند البيانو، وكانت أوراق النّوتات الموسيقيّة منثورة عند قدميها كطائر ميّت. حدقت فيّ، فحدقتُ فيها. ضاقت عيناها. وأخرجت لسانها من فمها.

كانت أمي تتبع الدكتور غوردن إلى الباب. تلكأت إلى الوراء، وحين

أوليا ظهريهما لي، استدرتُ إلى الفتاة وقرصتُ أذنها. أدخلت لسانها في فمها، وصار وجهها قاسياً كالحجر.

خطوت إلى الخارج في الشمس.

مرقّطةً بظلال شجرة، مثل نمر، تنتظر السيارة العائليّة السوداء لِدُودُو كَنواي.

كانت السيارة، أصلاً، قد طلبتها سيّدة مجتمع ثريّة: [سيارة] سوداء، بلا كرُوم، مقاعدها منجدة بجلد أسود؛ وحين وصلت أصابها منظرها بالإحباط. قالت السيدة أنّها تبدو مثل عربة نقل الموتى– وقد شاركها الآخرون الرأي– فلم يرغب أحد في شرائها، حتى قادها آل كنواي إلى المنزل بسعر مخفض، موفرين مائتي دولار.

شعرتُ– وأنا جالسة في المقعد الأمامي، بين دودو وأمي– بالقهر والعجز عن الكلام. وكلما حاولت التركيز، ينزلق ذهني، مثل مُتزلِج، في فضاء رحيب فارغ، ثم يُدوِم، ذاهلاً، هُناك.

«لقد سئمت أفعال الدكتور غوردن»، قلتُ، بعد أن تركنا دُودُو وسيارتها السوداء خلف أشجار الصنوبر. «تستطيعين مهاتفته، وإخباره أنّني لن آتي في الأسبوع المقبل».

تبسمت أمي. «أعلم أنّ صغيرتي ليست كذلك».

نظرتُ إليها. «مثل ماذا؟»

«مثل أولئك البغيضين. أولئك البغيضين الكئيبين في ذلك المستشفى».

ثم صمتت برهةً. «أعلم أنّك ستقررين العودة إلى حالتك الطبيعيّة مرة أخرى».

ستَارلِت تفارق الحياة بعد غيبوبة دامت ثماني وستين ساعة.

راحت يدي تفتش بين مِزَق الأوراق والعلبة وقشور الفول السوداني والقطع النقديّة والصندوق الأزرق الذي يحتوي على تسع عشرة موسى حلاقة من ماركة جيليت Gillette، حتى أخرجتُ الصّورة الفوتوغرافيّة التي التقطتها، في ذلك الأصيل، في الكشك المخطط بالبرتقاليّ والأبيض.

وضعتها إلى جانب الصورة الضبابية للفتاة الميّتة. كانت الصورتان متشابهتين؛ الفم كالفم، والأنف كالأنف. كان الفارق الوحيد يكمن في العينين. كانت العينان في الصورة الفوتوغرافية شاخصتين، وفي صورة الجريدة مُغمضتين. ولكنّي أدركت لو أنّ أحدهم قد فتح عينيّ الفتاة على اتساعهما، بإبهاميّ يديه، لنظرتا إليّ بذات التعبير الكئيب الفارغ الذي للعينين في الصورة الفوتوغرافيّة.

أعدت الصورة مرة أخرى إلى محفظتي.

«سأجلس هنا في الشمس على مقعد الحديقة خمسَ دقائق أخرى قرب الساعة التي على ذلك المبنى هناك»، قلتُ لنفسي، «ثم سأذهب إلى مكان آخر وأقوم بذلك».

استحضرت جوقة أصواتي الصغيرة:

«أَلا يعنيك عملُكِ، إِسترِ؟»

«ومثلما تعرفين، يا إِسترِ، فإنّ لديك الهيئة المثاليّة لعُصابيّة حقيقيّة».

«لن تبلغي مرادك إن بقيت على هذا الحال، لن تبلغي مرادك إن بقيت على هذا الحال، لن تبلغي مرادك إن بقيت على هذا الحال».

قضيت، ذات ليلة صيف قائظة، ساعةً وأنا أُقبّل طالباً أَشعر، يشبه القرد، يدرس القانون بجامعة ييل، لأنّني شعرت بالأسى نحوه، فقد كان ذميماً للغاية. وحين فرغت، قال: «لقد عرفتُ طبيعتك، يا عزيزتي. ستكونين متحشمة في الأربعين».

«مُتكلِفة!» خربش أستاذ الكتابة الإبداعيّة على قصّة كتبتها بعنوان «عطلة نهاية الأسبوع الكبيرة».

لم أدرِ ما معنى «متكلفة»، فبحثت عنها في القاموس.

مُصطنع، زائف، صُوريّ.

«لن تبلغي مرادك إن بقيت على هذا الحال».

لم يغمض لي جفن لإحدى وعشرين ليلة.

لا بُد أن الظلال أجمل شيء في الوجود؛ ملايين الظلال التي في أشكال متحرّكة أو مُضخَمة. كانت ثمة ظلال في أدراج الخزانة السفليّة وفي حقائب السفر، وظلال تحت البيوت وفي الأشجار والحجارة، وظلال خلف عيون الناس وابتساماتهم، وظلال، لأميال وأميال، على الجانب المعتم من الكرة الأرضيّة.

نظرتُ إلى الضمادين، اللذين بلون الجِلد، وهما يشكلان صليباً على رَبْلَة ساقي اليُمنى.

في ذلك الصباح، قمتُ بمحاولةٍ أولى.

أوصدت باب الحمام دوني، وملأت الحوض بماء دافئ، ثم أخذت موسى حلاقة من ماركة جيليت.

حين سألوا أحد فلاسفة الرومان القدماء كيف يريد أن يموت، قال إنه

سيقطع شرايينه في حوض ماء دافئ. حسبت أنّ ذلك سيكون سهلاً، أن أتمدد في حوض، وأنظر إلى الحُمرة وهي تتدفّق من رُسغي في شكل زهور، دفقةً إثر دفقةٍ، عبر الماء الصافي، حتى أغرق في النوم تحت سطح مُبهرَجٍ كأزهار الخشخاش.

ولكن، حين أَزِفت الساعة، بدا جلد رسغي شديد البياض، بلا حول ولا قوة، فلم أتمكن من فعل ذلك. كما لو أنّ الذي رغبت في قتله لم يكُن في ذلك الجِلد، أو في الشريان الرفيع الأزرق، الذي ينبض تحت إبهامي؛ بل في مكان آخر، أعمق، أكثر سريّة، ويصعب الوصول إليه.

يلزمني القيام بحركتين. الرسغ الأول، ثم الآخر. ثلاث حركات، لو أخذنا بالحسبان نقل موسى الحلاقة من يد إلى أخرى. ثم سأنزل إلى الحوض وأتمدد هناك.

تحرّكت أمام خزانة الأدويّة. لو نظرت في المرآة وأنا أفعل ذلك، لكان الأمر مثل مراقبة شخص آخر، في كتاب أو مسرحيّة.

لكنّ الشخص الذي في المرآة كان مشلولاً وأحمق ليقدم على تلك الفِعلة.

ثم فكرت أنّه ربّما يجدر بي أن أسفك بعض الدم على سبيل التمرين، فجلست على حافّة الحوض واضعة كاحلي الأيمن فوق ركبتي اليسرى. ثم رفعت يدي اليمنى التي تحمل موسى الحلاقة، وتركتها تسقط من تلقاء نفسها، مثل مقصلة، على رَبْلَة ساقي.

لم أشعر بشيء. ثم شعرت برعشة قصيرة عميقة، وتدفّق عِرق أحمر زاهٍ من طرف الجَرح. تجمع الدم أسود، مثل ثمرة، وانزلق على طول كاحلي إلى جوف حذائي الجلديّ الأسود.

فكرت، حينئذٍ، بالنهوض من الحوض، لكنّني أدركت أنّ توانيِّ قد بدد جل وقت النهار، وقد تعود أمي إلى البيت، فتجدني قبل أن أنتهي.

فضمدت الجرح، وأغلقت علبة أمواس الحلاقة، وركبت حافلة الحادية عشرة والثلث، المتوجهة إلى بوسطن.

«عُـذراً، يا عزيزتي، فلا مِترو إلى سجن جزيرة الغزلان، إنّـه على جزيرة».

«كلاّ، ليس على جزيرة، كان في السابق على جزيرة، ولكنّهم ملأوا المياه بالقاذورات، فصارت الجزيرة جزءاً من البرّ الرئيس.

«لا يوجد مترو».

« عليّ أن أصل إلى هناك».

«أنتِ»، حدق فيّ الرجل البدين الذي في كشك التذاكر عبر الحاجز المُشبّك، «لا تبكِ. مِن لكِ هناك، يا عزيزتي، قريب ما؟»

كان الناس يدفعوني، ويصطدمون بي، في الظلام المضاء بأنوار الكهرباء، وهم يحثون الخطى نحو القطارات، التي كانت تدمدم، وهي داخلة في الأنفاق المتشابكة تحت ساحة سكولاي Scollay Square، وخارجة منها. كنت أستطيع أن أشعر بالدموع، وهي تتدفق من مقلتيّ.

«إنّه أبي».

تفحص الرجل البدين رسماً بيانيّاً على جدار كشكه. «هكذا تستطيعين الوصول إلى هناك»، قال، «عليك أن تستقلي سيّارة من تلك الطريق هناك وتنزلي عند Orient Heights [مرتفعات الشرق[45]] ثم تركبين الحافلة المُتجهة إلى

45- جزء تاريخيّ من بوسطن الشرقيّة، وهو حيّ يقع على تلة تسمى «مرتفعات الشرق». (المراجع)

[متنزّه] پوينت The Point. ثم أشرق وجهه بابتسامة وهو ينظر إليّ. «ستأخذك الحافلة إلى بوابّة السجن مباشرة».

«أنتِ، هناك!» لوح شابٌ في بزّة زرقاء من الكوخ.

لوحت له وواصلت السير.

«أنتِ، هناك!»

توقّفت، ثم سرت على مهلي نحو الكوخ الذي يجثم، كغرفة معيشة دائريّة، فوق قَفْر الرمال.

«أنتِ، لا يمكنك الذهاب أبعد. هذه ممتلكات تابعة للسجن، لا يُسمح لأحد أن يتخطاها».

«كنت أظنّ أن المرء باستطاعته الذهاب إلى أيّ مكان على الشاطئ»، قلتُ. «إلى أيّ مكان ما دام لا يتجاوز خط المد».

فكر الشابّ لبرهة.

ثم قال: «ليس هذا الشاطئ».

كان له وجه نَضِر جذاب.

«لديكم مكان جميل هنا»، قلتُ. «يبدو كمنزل صغير».

نظر إلى داخل الغرفة، بسجادتها المجدولة وستائرها القطنيّة المُطبَّعة. ثم ابتسم.

«كما لدينا إبريق قهوة».

«اعتدت العيش بالقرب من هنا»

«كفاك مزاحاً. وأنا ولدت وترعرت في هذه البلدة أيضاً».

نظرت عبر الرمال إلى موقف السيارات والبوابة المُزَجة، ثم إلى ما وراء

البوابة المُزلَجة، إلى الطريق الضيّقة التي يحتضنها المحيط من كلتا الجهتين، والتي تفضي إلى ما كان جزيرةً ذات يوم.

بدت بنايات السجن، ذات القرميد الأحمر، حميمةً، مثل بنايات كليّة على شاطئ البحر. أستطيع رؤية بقعٍ بيضاء صغيرة، وأخرى ورديّة أكبر منها، تتحرّك فوق رابية المرج الخضراء التي على يساري. سألت الحارس عنها، فقال: «إنّها خنازير ودجاج».

كنتُ أفكر لو أنّني عِشت بتلك البلدة العتيقة، لكُنت التقيت حارس السجن هذا في المدرسة وتزوجته وأنجبت دزّينة أطفال. سيكون جميلاً العيشُ قرب البحر رفقةَ أعداد وافرة من الأطفال والخنازير والدجاج، مرتديةً ما كانت تطلق عليها جدتي «ثياب الغسيل»، جالسةً، بذراعين سمينتين، في مطبخ ذي مشمع برّاق، أحتسي أباريق من القهوة.

«كيف يدخل المرء ذلك السجن؟»

«يتوجب عليك الحصول على إذن للدخول».

«كلاّ، كيف يُحبَس في الداخل؟».

«آه، ضحك الحارس، «تسرقين سيّارةً، تسطين على متجر . . »

«أثمة قتلة هناك؟»

«كلاّ. يذهب القتلة إلى مكان أكبر تابع للدولة».

«مَن غير ذلك هناك؟»

«حسناً، قَدِم إلينا، في أوائل الشتاء، أولئك المتشرّدون السكارى من بوسطن. ألقوا بحجر من النافذة، فأُلقي القبض عليهم، ليقضوا الشتاء بعيداً عن البرد، في مكان بتلفاز وطعام كثير ومباريات كرّة السلة في نهاية الأسبوع».

«جميل».

«جميل إن أحببته»، قال الحارس.

ودعته وانطلقت في طريقي. لم أُلق نظرة من فوق كتفيّ سوى مرّة واحدة. كان الحارس لا يزال واقفاً في مدخل برج المراقبة، وحينما التفت رفع ذراعه ملوحاً.

كان زَند الخشب الذي أجلس عليه ثقيلاً تفوح منه رائحة القطران. وكان المرتفع الرمليّ ينعطف نحو البحر، أسفل الأسطوانة الصلبة الرماديّة لبرج الماء الذي يعتلي تلاً مُشرِفاً. وحين يكون المد مرتفعاً، تغمر المياه المرتفع تماماً.

تذكرت ذلك المرتفع الرمليّ جيّداً. كان يخفي، في مُنحنَاه الداخليّ، صدفةً خاصّة لا تُوجَد في أيّ مكان آخر على الشاطئ.

كانت الصدفة سميكةً، ملساء، وكبيرة كمفصل الأصابع. كانت بيضاء عادةً، رغم تلونها بالزهري أو القرنفلي الضارب إلى الصفرة أحياناً. كانت تشبه محارة عاديّة.

«أمي، لا تزال تلك الفتاة جالسةً هناك».

رفعتُ ناظريّ متكاسلةً، فرأيتُ طفلاً تغطيّه الرمال وقد جرّته من حافّة البحر امرأة نحيلة، تتلفّت بسرعة، وترتدي سروالاً أحمر قصيراً وصُدَيرة من قماش مُنقَّط بالأحمر والأبيض.

لم يخطر ببالي أنّ الشاطئ مكتظ بالمصطافين. فخلال السنوات العشر التي غبتها، ظهرت أكواخ فاخرة ذات ألوان زرقاء وقرمزيّة وخضراء فاتحة على الرمال المنبسطة لمتنزّه پوينت، مثل محصول فطر تَفِه، كما أنّ الطائرات النفاثة التي تحلق فوق أسطح البيوت، من المطار حتى الخليج، قد حلت محل الطائرات

الفضيّة ومناطيد المراقبة الصغيرة بشكلها الذي يشبه السيجار.

كنتُ الوحيدةَ على الشاطئ بتنّورة وحذاء عالي الكعبين، فخطر ببالي أن أصمد. ثم خلعت حذائي الجلديّ الذي انغرز في الرمل. سرّني التفكير أنّ الحذاء سيجثم، هناك، على الزّند الخشبيّ الفضيّ، مشيراً إلى البحر، مثل بوصلة الروح، بعد موتي.

تلمست علبة أمواس الحلاقة التي في محفظتي.

ثم أدركت مدى غبائي. لديّ أمواس حلاقة، ولا حمامَ دافئاً.

فكرت في استئجار غرفة. لا بُد أن يكون ثمة مَثوَى بين كل تلك الأماكن الصيفيّة. غير أن لا أمتعة لديّ. سيثير ذلك الأمر الشكوك. ناهيك عن أن نزلاء المَثوى يرغبون عادةً في استخدام الحمام. فلا وقتَ كافياً لأنزل في الحوض حين يكون ثمة من يطرق الباب.

ماءت النوارس فوق ركائزها الخشبيّة عند حافّة الحانة مثل قطط. ثم رفرفت بأجنحتها، واحدة تلو الأخرى، بريشها الذي بلون الرماد، محومة فوق رأسي وتصرخ.

«سيّدتي، من الأفضل ألاّ تجلسي هنا، فمنسوب مياه المد آخذ بالارتفاع».

قرفص الصبيّ على بُعد خطواتٍ منّي. التقط حجراً أرجوانيّاً مدوراً وقذفه إلى المياه. ابتلعت المياه الحجر بصوت رنّان. ثم راح يعبث بالرمال، فسمعت الأحجار الجافّة، وهي تخشخش مثل قطع النقود.

ثم قذف حجراً مسطحاً فوق سطح الماء الأربد الأخضر، فقفز سبع مرّات قبل أن يتلاشى. .

«لَمَ لا تذهبُ إلى البيت؟»، قلتُ.

قذَف الصبيّ حجراً آخر، حجراً أثقل. فغرق بعد الوثبة الثانية.

«لا أرغب في ذلك».

«أمُك تبحث عنك».

«كلاّ». بدا قلقاً.

«إن ذهبت إلى البيت، سأعطيك بعض الحلوى».

اقترب الصبيّ منّي. «ما نوعها؟»

كنتُ أعلم،من دون أن أنظر في محفظتي اليدويّة، أنّ كل ما هنالك هو قشور الفول السوداني.

«سأعطيك بعض النّقود لشراء بعض الحلوى».

«آر . . . ثَر Ar–thur !»

كانت امرأة تنزلق فوق المرتفع الرملي. لا بُد أنّها كانت تلعن في سرّها، لأنّها كانت تحرّك شفتيها بين كل نداء آمرٍ وآخر.

«آر . . . ثَر!»

حجبت عينيها بإحدى يديها، كما لو أنّ ذلك يساعدها على تبيان موقعنا عبر غسق البحر المتعاظم.

لاحظتُ عدم اكتراث الصبي كلما علا صوت أمه. راح يتظاهر أنّه لا يعرفني. ركل عدة أحجار، كما لو يفتش عن شيء، ثم انطلق.

اعترتني هِزّةٌ.

كانت الحجارة ثقيلة وباردة تحت قدميّ الحافيتين. اشتقت إلى حذائي الأسود الذي على الشاطئ. تراجعت موجةٌ، مثل يدٍ، ثم تقدمت ولامست

قدميّ.

بدا الماء الذي غمر قدميّ قادماً من قعر البحر، حيث كانت أسماك بيضاء عمياء تتنقّل، مستعينة بضوئها الخاصّ، عبر البرد القُطبيّ العظيم. رأيت أسنان أسماك قِرش وعظام آذان حيتان منثورة، هناك، كشواهد قبور.

انتظرتُ، كما لو أنّ البحر سيقرّر نيابة عنّي.

انهارت موجةٌ ثانية فوق قدميّ، لاعقةً إيّاها بزبد أبيض، فقبض البرد على كاحليّ بألم قاتل.

جفل جسدي، خائفاً، من ميتة كهذه.

التقطت حقيبتي اليدويّة وحدقتُ في الحجارة الباردة حيث كان حذائي سهرانَ في الضوء البنفسجي.

(13)

«بالطبع، لقد قتلته أمه».

نظرتُ إلى فم الشاب الذي رغبت جُودِي في أن أقابله. كانت شفتاه غليظتين ووردّيتين، وله وجه طفوليّ يرتسم أسفلَ حريرِ شعرٍ أشقر أبيض. كان اسمه كَال Cal، والذي ظننت أنّه لا بُد أن يكون اختصاراً لشيء ما، لكنّني لم أستطع التفكير في ما يرمز إليه، إلاّ إذا كان إشارة إلى كاليفورنيا.

«كيف لكَ التأكد من أنّها قتلته؟» قلتُ.

كان من المفترض أن يكون كال في غاية الذكاء، وقد أخبرتني جُودي على الهاتف أنّه جذاب وسينال إعجابي. ثم تساءلت إن كنت سأُعجب به لو بقيت على حالي.

كان من الصعب عليّ الإجابة على ذلك.

«حسناً، في البداية قالت لا لا لا، ثم قالت نعم».

«لكنّها قالت لا لا ثانيةً».

تمددنا– كَال وأنا– قرب بعضنا على منشفة مخططة بالبرتقاليّ والأخضر على شاطئ مُوحِل في الجانب الآخر من السبخات الممتدة من [مدينة] لِنّ Lynn. كانت جُودي ومارك (الشاب الذي كانت ملتصقة به) يسبحان. لم يرغب كَال في السباحة، رغبَ في الكلام، وكنّا نتجادل حول المسرحيّة التي يكتشف فيها شابٌّ أنّه مصاب بلوثة في الدماغ نتيجة عبث أبيه مع الساقطات،

وفي النهاية ينهار دماغه (الذي كان يَضعف طيلة الوقت) تماماً، فتتساءل أمه إن توجب عليها قتله أم لا.

ساورتني شكوك أنّ أمي قد هاتفت جُودِي وتوسلت إليها أن تدعوني للخروج، حتى لا أجلس في غرفتي، طيلة اليوم، والستائر مُسدلة. لم أرغب في الخروج بدايةً، لاعتقادي أنّ جودي ستلاحظ التغيير الذي طرأ عليّ، وأنّ أيّ أحد بنصف عين سيلاحظ أن لا عقل في رأسي.

غير أنّ جُودِي لم تكف— طيلة ذهابنا في السيارة شمالاً، ثم جنوباً— عن الهَزل والضحك واللغو غير مكترثة بردود أفعالي التي اقتصرت على: «ربّاه!» أو «مُحال!» أو «غير ممكن!».

شوينا الأَسجَاق hot dogs على الشوَايات العموميّة التي على الشاطئ. تمكنت– بعد مراقبة جُودِي ومارك وكَال بانتباه شديد– من طهي سجقي في وقت مناسب؛ لم أحرقه، أو أسقطه في النّار، حيث كنت أخشى حدوث ذلك. ثم– وحين لم يكُن ثمة من ينظر إليّ– طمرته في الرمال.

بعد تناول الطعام، شبكت جُودِي يدها في يد مَارك وانطلقا جرياً نحو المياه. تمددتُ، محدقةً في السماء، فيما واصل كَال حديثه عن تلك المسرحيّة.

كان السبب الوحيد الذي دفعني لتذكر تلك المسرحيّة أنّها تضم شخصاً مجنوناً، فكل ما قرأته عن المجانين قد علق في ذهني، فيما تلاشى أيّ شيء آخر.

«لكنّ «نعم» هي التي تهم»، قال كَال. «إنّها «نعم» التي سوف تنطقها في النهاية».

رفعت رأسي وحدقت بعينين نصف مُغمضتين في صفحة البحر

الزرقاء المشعة— صفحة زرقاء مشعة ذات حافّة داكنة. كانت صخرة دائريّة رماديّة كبيرة، مثل النّصف العلويّ لبيضة، تظهر من الماء على بُعد نحو ميل من الرأس[46] الحجريّ.

«بمَ كانت ستقتله؟ لقد نسيت».

لَم أَنسَ. كنت أتذكر جيّداً، لكنّني رغبت في سماع ما سيقوله كَال.

«مسحوق المورفين».

«هل تعتقد بوجود مسحوق المورفين في أميركا؟»

أطرق كَال دقيقةً. ثم قال: «لا أظنّ ذلك. الأميركيّون محافظون».

ملتُ على بطني وحدقتُ بعينين نصف مغمضتين في الاتّجاه الآخر، صوب لِن. كان سديم شاحب يتماوج من نار الشوايات وحرّ الطريق. أبصرت، عبر السديم، كما لو عبر ستار من ماء صافٍ، صورةً ظِلِيةً ضبابيّة لصهاريج غاز ومداخن مصانع وروافع وجسور.

بدتِ الصورةُ فوضى عارمة.

تمددتُ مرّة أخرى، ثم قلتُ بنبرة لا مبالية: «إن كنت ستقتل نفسك، كيف ستفعل ذلك؟».

بدا كَال مسروراً. «لطالما فكرت بذلك. سأفجر رأسي بمسدس».

شعرت بالإحباط. بدا هذا الأسلوب الطريقة المثالية بالنسبة إلى الرجال. أنّى لي أن أحظى بفرصة أن أقبض على مسدس؟. حتى وإن فعلت، فلن أعرف على أيّ أعضائي سأطلق النار.

كنت قد قرأتُ في الجرائد عن أُناس حاولوا إطلاق النار على أنفسهم،

46– headland: قطعة من الأرض داخلة في البحر. (المراجع).

لكنّهم انتهوا بإطلاق النار على عصب مهم فَشُلوا، أو فجروا وجوههم، ولم ينقذهم من الموت الفوريّ المُحتم سوى الجراحين أو معجزة ما.

بدت مخاطر المسدس هائلة.

«أيّ نوع من المسدسات؟»

« بندقيّة الصيد الخاصّة بأبي. فهو يبقيها محشوة. ليس عليّ سوى الدخول إلى مكتبه ذات يوم»، ثم أشار كَال بإصبعه إلى صُدغه، مُقطباً ما بين عينيه على نحو هَزليّ، «طَق!»، ثم جحظني بعينيه الرماديّتين الشاحبتين.

«أيقطن أبوك قرب بوسطن؟» سألته بكسل.

«كلاّ. إنّه بـ [قرية] كلاكتِن الساحليّة Clacton-on-Sea. إنّه إنجليزيّ».

ركضت جُودِي ومارك، يداً بيد، ينفضان عنهما الماء المتقاطر مثل جروين متحابيّن. ظننت أنّه سيكون هنالك أُناس كثيرون، فانتصبتُ متظاهرةً أنّي أتثاءب.

«أظنّني سأسبح».

بدأ وجودي مع جُودِي ومارك وكَال يرهق أعصابي، مثل قطعة خشبيّة على أوتار بيانو. كنت خائفة من فقداني السيطرة على نفسي في أيّة لحظة، فأشرع بالهذيان كيف أنّني لم أستطع القراءة ولا الكتابة، وكيف لا بُد أنّني الوحيدة التي ظلت مستيقظة لشهر كامل من دون أن تقع ميّته من التعب.

بدا أنّ دخاناً يتصاعد من أعصابي كالدخان المتصاعد من الشوايات والطريق المنقوعة بالشمس. اهتزّ المنظر الطبيعيّ كله- الشاطئ والرأس الأرضيّ والبحر والصخرة- أمام عينيّ، كستارة مسرح خلفيّة.

تساءلت عند أيّة نقطة في الفضاء استحال أسودَ أزرقُ السماءِ السخيفُ

الزائف.

« لا بُد أن تسبح يا كَال».

وقامت جُودِي بدفع كَال دفعة صغيرة لعوبة.

«أوووه». غطى كَال وجهه بالمنشفة. «إنّ الماء بارد جداً».

رحتُ أمشي صوب الماء.

كان الماء يبدو في شمس الظهيرة لطيفاً ومُرحباً على نحو ما.

لا بُد أنّ الغرق أرحم طريقة للموت، وأنّ الاحتراقَ الطريقةُ الأسوأ. قال بَدِي أن ثمة أَلغَادٌ لبعض تلك الأجنّة المحفوظة في الجرار التي أراني إيّاها. لقد مرّت بمرحلة كانت تشبه فيها الأسماك تماماً.

طوقت قدمي مُوَيجَة قذرة، مليئة بلفافات قطع الحلوى وقشر البرتقال والطحالب.

سمعتُ حركات مكتومة في الرمل ورائي، فنهض كَال.

«لنسبح إلى تلك الصخرة هناك». أشرتُ إليها.

«هل أنت مجنونة؟ إنّها تبعد ميلاً».

«ما طينتك؟» قلتُ. «جبان؟»

شدني كَال من مرفقي ودفعني إلى الماء. وحين بلغ الماء خصرينا، دفعني إلى الأسفل. نهضت وأنا أضرب الماء بيديّ والملح يحرق عينيّ. كان الماء أخضر، في الأسفل، ونصف معتم، كقطعة كبيرة من الكوارتز.

رحت أسبح، على شاكلة الكلاب، ميممة وجهي شطر الصخرة. كان كَال يتقدم ببطء. ثم رفع رأسه، وراح يشقّ عباب الماء.

«لا أستطيع القيام بذلك». كان يلهث بقوة.

«حسناً. عُد إلى الشاطئ».

اعتقدت أنّي سأسبح حتى تخور قواي، فلا أقدر أن أعود إلى الشاطئ. وكلما تقدمتُ، تصاعد وجيب قلبي، كمحرّك مُزعج، في أذنيّ.

أنا أنا أنا.

حاولتُ، في ذلك الصباح، شنق نفسي.

أخذت الحبل الحريريّ لبُرنس الحمام الأصفر الخاصّ بأمي حين غادرت إلى العمل، وفي الظل الكهرمان لحجرة النّوم، ربطته في شكل عقدة مُنزلقة. استغرقت وقتاً طويلاً للقيام بذلك، فأنا لا أُتقن ربط العقد، وليس لديّ أدنى فكرة عن كيفيّة صنع واحدة ملائمة.

ثم بحثت عن مكان لتعليق الحبل.

كانت المعضلة تكمن في أنّ سقف منزلنا من النوع غير المناسب. كانت أسقف الغرف واطئة، بيضاء ومكسوة بجصّ أملس،من دون عارضة خشبيّة أو مكان لتعليق المصابيح. غمرني حنين إلى المنزل الذي كانت تملكه جدتي قبل أن تبيعه وتأتي للعيش معنا، ثم ترحل لتسقرّ مع خالتي لِبي Libby.

كان منزل جدتي مشيّداً وفقاً لنمط العمارة الرائع للقرن التاسع عشر، بحجرات عالية وحاملات ثريّات قويّة وخزانات عالية تخترقها قضبان متينة وعليّة لم يذهب إليها أحدٌ قط، مليئة بصناديق الثياب وأقفاص البغاوات وتماثيل عرض الملابس وروافد خشبيّة كأنّها فوق الرؤوس أضلاع سفينة.

ولكنّه كان منزلاً قديماً، فباعته، ولم أعرف شخصاً آخر يمتلك منزلاً مثله.

وبعد وقت مخيّب للآمال، وعدم عثوري على مكان لتعليق الحبل

الحريريّ، الذي يتدلى من عنقي كذنب قطة صفراء، جلست على حافّة سرير أمي، محاولةً شد الحبل بقوة.

وكلما شددت الحبل، شعرت بحركة سريعة في أذنيّ وبتدفّق الدم في وجهي، تضعف يداي ثم تتراخى، فأصير على ما يرام مرّة أخرى.

تنبّهت، حينئذٍ، أنّ جسدي يمتلك كل أنواع الحِيَل الصغيرة، كجعل يديّ ترتخيان في اللحظة الحاسمة، فينقذ نفسه من الموت، مرّة تِلوَ أُخرى، ولو كانت زمام الأمور بيدي لكنتُ ميّتة في أيّة لحظة الآن.

كان عليّ أن أتحايل عليه بكل حِس تبقّى لديّ، وإلاّ سيحبسني في قفصه السخيف لخمسين سنة من دون أيّ معنىً أبداً. وحين يكتشف الناس أنّني قد فقدت عقلي، مثلما يتوجب عليهم، عاجلاً أم آجلاً، رغم تكتُم أمي، فإنّهم سيقنعوها بوضعي في مصحة نفسيّة حتى أُشفَى.

غير أنّ حالتي كانت عصيّة على الشفاء.

كنتُ اشتريت بضعة كتب ورقيّة الغلاف في علم النفس من متجر لبيع الأدوية، وقارنت بين الأعراض التي أعاني منها وتلك التي تذكرها الكتب، ومما لا شك فيه أنّ ما أعاني منه قد تطابق مع أعراض الحالات الميئوس منها.

كانت تلك الكتب، رفقة جرائد الفضائح، هي الشيء الوحيد الذي أستطيع قراءته. بدا الأمر كما لو أنّ كُوة صغيرة قد تُركت مفتوحةً لأعرف كل ما أحتاج إلى معرفته حول حالتي، لأُنهيها على الوجه الصحيح.

تساءلت، بعد إخفاقي التام في شنق نفسي، إن توجب عليّ الاستسلام وعرض نفسي على الأطباء، ثم تذكرت الدكتور غوردن وآلة الصعق الخاصة التي يمتلكها. فما إن أُحبَس هناك، حتى يخضوعني لتلك الآلة، ليلَ نهار.

كما فكرت بأمي وأخي وأصدقائي، وكيف أنّهم سيقومون بزيارتي، يوماً بعد يوم، آملين في أن أتعافى. ثم ستخفّ زياراتهم، وتتبدد آمالهم. سيكبرون، وأصبح نسياً منسيّاً. ويصبحون فقراء أيضاً. سيرغبون، بادئ الأمر، في أن أحظى بأفضل علاج، فينفقون كل ما لديهم من نقود على علاجي في مستشفى خاص، كمستشفى الدكتور غوردن. ثم أُنقَل، حين تنفد نقودهم، إلى مستشفى عموميّ، فأُوضَع- رفقة المئات ممن يشاركوني الأعراض ذاتها- في قفص كبير في القبو. وكلما كانت حالة المريض ميئوساً منها، أمعنوا في حجبه عن الأنظار.

كان كَال قد استدار سابحاً إلى الشاطئ.

راقبته وهو يسحب نَفْسه، ببطء، من البحر الذي تصل مياهه إلى عنقه. ثم- وفي خلفيّة الرّمل الخاكيّ ومويجات الساحل الأخضر- انشطر جسده، في لحظة واحدة، إلى جزءين، كدودة بيضاء. ثم دبّت الدودة على بطنها خارج الإطار الأخضر، لتصل إلى الجزء الخاكيّ، ثم اختفت ضمن عشرات من ديدان أخرى كانت تتلوى، أو ربّما تتدلى بين البحر والسماء.

حرّكت يديّ في الماء وضربت بقدميّ. لم تَبْدُ الصخرة التي تشبه البيضة أقرب مما كانت عليه حين نظرنا إليها- كَال وأنا- من على الشاطئ.

ثم رأيت أنّ السباحة حتى تلك الصخرة ضرب من العبث، ذاك أنّ جسدي سيتحايل عليّ كي يصعد إلى الصخرة ليتمدد في الشمس، مستجمعاً قواه ليعود إلى الشاطئ.

كان الشيء الوحيد الذي أقدر على القيام به هو أن أغرق الآن هناك. فتوقّفتُ عن السباحة.

رفعت يديّ إلى صدري، وغمرت رأسي في الماء، مُبعدةً الماء عن جانبيّ بيديّ. كان ضغط الماء شديداً على طبلة أذنيّ وعلى قلبي. كنت أدفعُنِي إلى الأسفل، غير أنّ الماء– وقبل أن أدرك أين أنا– كان قد لفظني إلى الشمس، فأشرق العالم من حولي كحجارة شِبْه نفيسة؛ حجارة زرقاء وخضراء وصفراء.

دفعتُ الماء عن عينيّ.

كنتُ ألهث، كما لو بعد جُهدٍ عنيف، لكنّني كنت أطفو من دون جُهد.

غطست ثم غطست، لكنّني كنت أطفو، في كل مرّة، كقطعة فلين.

كانت الصخرة الرماديّة تسخر منّي، وأنا طافية بسهولة كقارب نجاة.

كنتُ أعرف نفسي حين أُهزَم.

التفتُ إلى الوراء.

حنت الورود هاماتها، كأطفال أذكياء عارفين، وأنا أدفعها بعربة صغيرة ذات دواليب على طول الممرّ.

شعرت بالبلادة في بزّة المتطوعين التي بخضرة المريميّة، وأن لا ضرورة لي، بخلاف الممرّضات والأطباء الذين كانوا يرتدون بزّات بيضاء، والخادمات في بزّاتهنّ البنيّة، واللواتي مررن بي، وهنّ يحملن مماسح ودلاء ماء وسخ، دون أن ينبسن ببنت شفة.

لو تقاضيت أجراً، حتى ولو كان قليلاً، لاعتبرت ما أقوم به عملاً مناسباً، غير أنّ كل ما أحصل عليه مقابل توزيع المجلاّت والحلوى والورود طيلة الصباح هو وجبه غداء مجانيّة.

قالت لي أمي إنّ أفضل علاج للتفكير كثيراً في نفسي هو أن أساعد شخصاً يعاني أكثر منّي، فقامت تِريزا Teresa بترتيب الأمور لأحصل على

هذا العمل كمتطوعة في المستشفى المحليّ. كان أمر العمل كمتطوعة في هذا المستشفى أمراً عسيراً، فهو العمل الذي رغبت فيه كل نساء «العُصبة الصغرى»؛ لكنّني كنت محظوظة إذ كان معظمهنّ في إجازة.

كنت آمل أن يرسلوني إلى جناحٍ يضم بعض الحالات الرهيبة فعلاً، حالات يمكنها أن ترى عبر وجهي الصامت الخَدِر أنّني أريد أن أُسدي لها معروفاً، فتشعر بالامتنان نحوي. غير أنّ رئيسة المتطوعات، وهي سيّدة مجتمع بكنيستنا، جحدتني قائلةً: «ستعملين في جناح الولادة».

هكذا، أخذت المصعد إلى جناح التوليد الذي يوجد في الطابق الثالث، واثبتُ حضوري أمام رئيسة الممرضات. أعطتني عربة الورد. كان يتوجب عليّ وضع المزهريّات المناسبة عند الأسرّة المناسبة في الغرف المناسبة.

لاحظت، قبل بلوغي باب الغرفة الأولى، أنّ كثيراً من الورد ذابل، حوافّه داكنة. سيكون الأمر محبطاً، بالنسبة إلى امرأة وضعت للتو، أن ترى مَن يضع إلى جانبها باقة كبيرة من الورود الميّتة، فانحرفت بالعربة إلى حوض الغَسل في مُختلَىً مُظلَلٍ في الرّواق، ورحت أزيل كل الورود الميّتة.

ثم التقطتُ كل الورود التي على وشك الذبول.

لم تكُن ثمة سلة للمهملات في الجوار، فكومت الورد ثم وضعته في حوض عميق أبيض. كان الحوض بارداً كقبر. ابتسمت. لا بُد أنّهم يضعون الموتى على هذه الشاكلة في مشرحة المستشفى.

كانت لَفْتتي البسيطة صدىً لِلَفتة الكبرى التي يقوم بها الأطباء والممرضات.

دفعت باب الغرفة الأولى، وأنا أسحب العربة، ثم دخلت. وثبت

ممرّضتان من مكانهما، ثم انتابني شعور مشوش إزاء الرفوف وخزائن الأدوية.

«ماذا تريدين؟» سألت ممرّضةٌ بصرامة.

لم أستطع تمييز الواحدة من الأخرى، فقد كانتا تشبهان بعضهما تماماً.

«إنّي أوزّع الورود».

وضعت الممرضة التي كانت تحدثني يداً على كتفي، ثم اقتادتني إلى خارج الغرفة، فيما كانت تجرّ العربة بيدها الخبيرة الأخرى. فتحت الأبواب الدوارة للغرفة المجاورة ودفعت بي إلى الداخل. ثم اختفت.

أنصت إلى قهقهات في المسافة حتى انبطق الباب فتلاشت.

كانت ستة أسرّة في الغرفة، وفي كل سرير امرأة ما. كُنّ جالسات يحبكن بالصنارة، أو يقلبن صفحات المجلات، أو يضعن الدبابيس في شعورهنّ، ويهذرن كببغاوات في قفص كبير.

كنتُ أظنهنّ نائمات، أو مستلقيات في هدوء وشاحبات، فأمشي على رؤوس أصابع قدميّ من دون إزعاج، ثم أقارن أرقام الأسرّة مع الأرقام المكتوبة على الشريط اللاصق لكل مزهريّة. ولكن، وقبل أن أتهيّأ للمهمة، أومأت إليّ امرأة شقراء ذات وجه وضاء، حاد التقاسيم، مفعم بالحيويّة.

اقتربت منها، تاركةً العربة وسط الغرفة، لكنّها أتت بحركة عصبيّة، فاستنتجت أنّها تريدني أن أجرّ العربة أيضاً.

دفعت العربة إلى جانب سريرها وابتسامة على وجهي تشي برغبتي في مساعدتها.

«أنتِ، أين أزهار الدِلفنيُون[47] خاصّتي؟» كانت امرأة ضخمة مترهّلة

47- larkspur: الدلفنيون، رجل القنبرة، العائق: نبات جميل الزهر مختلف الألوان ما بين أبيض

ترمقني من الجهة الأخرى للجناح بنظرات حادة.

انحنت المرأة الشقراء ذات الوجه الحاد على العربة.

«ها أزهـاري الصفراء»، قالت، «لكنّها اختلطت ببضع سوسنات وسخة».

انضمت أصوات أخرى إلى صوتيّ المرأتين. بدت أصوات غاضبة وعالية ومتذمرة. وحين هممت بفتح فمي لأفسر لهنّ أنّي قد ألقيت مجموعة من أزهار الدلفنيون الذابلة في المغسلة، وبما أنّ بعض المزهريّات كانت تبدو قليلة، ولم تَبْقَ سوى أزهار قليلة، فقد قمت بدمج بضع باقات أزهار أخرى لملئها— انفتحت الأبواب الدوارة ودخلت إحدى الممرضات.

«اسمعي أيّتها الممرضة، كانت لديّ تلك الباقة الكبيرة من أزهار الدلفنيون التي حملها إليّ لَارِي Larry ليلةَ أمس».

«لقد أتلفت أزهاري الصفراء».

فككت أزرار بزّتي الخضراء وأنا أركض، ثم حشرتها، وأنا أعبر، في حوض الغَسل الذي يضم أوساخ الأزهار الميّتة. ثم توجهت إلى السلالم الجانبيّة المنزوية التي تفضي إلى الشارع، ورحت أهبط درجتين بعد درجتين،من دون أن أصادف أحداً في طريقي.

«أيّ الطُرُق إلى المقبرة؟»

توقّف الإيطاليٌّ الذي يرتدي سترة جلديّة سوداء، مشيراً إلى زقاق خلف الكنيسة المِيثُودِيّة[48] البيضاء. تذكرتُ الكنيسة الميثوديّة. فقد كنت مِيثُودِيّةً في

وأحمر وأزرق، وله أوراق بشكل الكَفّ ذات الأصابع الممدودة. (المراجع).

48- Methodist: كنيسة أنجيليكانيّة بروتستانتيّة تأسست بإنجلترا في القرن الثامن عشر على يد جون

أول تسع سنين من حياتي، قبل أن يموت والدي ونتحول إلى الكنيسة المُوحِدة.

كانت أُمي كاثوليكيّة قبل أن تصبح مِيثُودِيّةً. وكانت جدتي لا تزال كاثوليكيّة، وكذلك كان جدي وخالتي لِبي. تحولت خالتي لِبِي عن الكنيسة الكاثوليكيّة في الوقت نفسه مع أمي، لكنّها وقعت في غرام إيطاليّ كاثوليكيّ بعد ذلك، فعادت إلى الكنيسة الكاثوليكيّة مرّة أخرى.

فكرتُ، في الآونـة الأخـيرة، الالتحاق بالكنيسة الكاثوليكيّة أنا الأخرى. كنت أعلم أنّ الكاثوليكيّين يعدون قتل المرء لنفسه خطيئة مرعبة. ولكن إن كان الأمر كذلك، فقد تكون لديهم طريقة جيّدة لإقناعي بالعدول عن قتل نفسي.

لا شك أنّني لم أكن مؤمنة بالحياة بعد الموت، ولا بعقيدة الحَبَل بلا دَنَس، ولا بالاستنطاق، ولا بعصمة ذلك البابا ذي الوجه الذي يشبه وجه القرد، أو أيّ شيء آخر، ولكن لا يتوجب عليّ أن أدع القسيس يلاحظ ذلك، يمكنني أن أركز على خطيئتي فقط، وسيساعدني على التكفير عن ذنبي.

كانت المعضلة الوحيدة تكمن في أنّ الكنيسة– بما في ذلك الكنيسة الكاثوليكيّة– لا تستنفد حياة المرء بأكملها. فمهما جثا المرء على ركبتيه مُصليّاً، لا بُد أن يتناول ثلاث وجبات في اليوم، وأن يعمل، ويحيا حياته في العالم.

فكرت بالوقت الذي يلزمني لأصير راهبة، فسألتُ أمي، معتقدةً أنّها تعرف أفضل السبل إلى ذلك.

ضحكت حين أخبرتها. «أتعتقدين أنّهم سيقبلون بشخص مثلك، هكذا تماماً؟ ينبغي عليكِ، أولاً، الإلمام بكل الشعائر والعقائد والإيمان بها،

ويزلي، تدعو إلى الإيمان وفقاً لنظام (method) يقوم على التأمُل. (المراجع).

جملةً وتفصيلاً. فتاة بذكائك!».

تخيّلت نفسي، رغم ذلك، وأنا أقصد قسيساً في بوسطن— لا بُد أن يكون في بوسطن، فلا أود أن يعرف أيّ قسيس في بلدتي أنّني كنت أفكر في الانتحار. فالقساوسة يثرثرون كثيراً.

سأكون— بوجهي الأبيض الشاحب— متشحة بالسواد، ثم أُلقي بنفسي عند قدميّ هذا القسيس، قائلةً له: «آه يا أبتِ، ساعدني».

ولكنّ هذا كان قبل أن يبدأ النّاس في النظر إليّ بطريقة مضحكة، على شاكلة الممرضات في المستشفى.

كنت متأكدة أنّ الكاثوليك لن يقبلوا أيّة راهبات مجنونات. فقد كان زوج خالتي الإيطاليّ يقصّ حكاية مسليّة عن راهبة أرسلها الدير إلى تِريزا لتفحصها. كانت هذه الراهبة تسمع في أذنيها نغمات قيثارة وصوتاً يقول، المرّة تلو الأخرى: «هاليلويا!». إلاّ أنّها لم تكُن متأكدة تماماً، حين تم استنطاقها، ما إذا كان الصوت يقول «هاليلويا Alleloia» أو «أريزونا Arizona». فقد وُلدت الرّاهبة بأريزونا. وأظنّها انتهت في إحدى المصحات النفسيّة.

سحبت وشاحي الأسود إلى ذقني، وسرت بخطىً واسعة عبر بوابات الحديد المُطاوِع. بدا لي أمرُ عدم زيارتنا لأبي مُذ دُفِن في تلك المقبرة أمراً غريباً. لقد منعتنا أمنا من حضور الجنازة لحداثة سنّنا، وحيث أنّه لفظ أنفاسه الأخيرة في المستشفى، فإنّ المقبرة— وحتى موته— كانت، بالنّسبة إليّ، غير حقيقيّة، دوماً.

اعتراني، في الآونة الأخيرة، حنين جارف لأعوض أبي عن كل سنين الإهمال تلك، وأن أشرع في الاعتناء بقبره. كنت طفلة أبي المُدللة، فبدا أمرُ أن

أعيش فترة الحداد، التي لم تتجشم أمي عناءها، أمراً مناسباً.

لو لَم يمُت أبي، لعلمني كل ما يتعلق بالحشرات، حقلِ تخصّصه في الجامعة. وكان سيعلمني الألمانيّة واليونانيّة واللاتينيّة التي كان يعرفها أيضاً، وربّما كنت سأصبح لُوثَرِيّةً. كان أبي لُوثَرِيّاً في وِسكَنسِن **Wisconsin**، لكنّ [اللوثريّة] كانت موضة قديمة في نيُو إنغلاند **New England**، فارتد عن اللوثريّة، مثلما قالت أمي، ليصبح مُلحِداً.

أصابتني المقبرة بالإحباط. كانت تقع في ضواحي البلدة، على أرض وطيئة تشبه مكبّاً للنفايات، فكنت أشتم، وأنا أذرع الممرات المفروشة بالحصى، رائحة السبخات الملحيّة الراكدة وهي تعبق في المسافة.

كان الجزء القديم من المقبرة، بحجارته المُسطحة المتآكلة ونُصُبه التي تغطيها الأُشنة، في وضع جيّد. لكنّني سرعان ما أدركت أنّ أبي لا بُد دُفِن في الجزء الحديث الذي يعود إلى أربعينيّات القرن الماضي.

كانت الحجارة في الجزء الحديث بسيطة ورخيصة، وكان مرمرٌ يحفّ بقبر هنا، وبآخر هناك، كحوض استحمام مستطيل مليء بالوحل، كما كانت صناديق معدنيّة صدئة تظهر في الموضع الذي تكون فيه سُرّة الميّت، مليئة بورود بلاستيكيّة.

ثم رَذَتِ السماء الرماديّة، فزادت كآبتي.

لم أستطع العثور على [قبر] أبي في أيّ مكان.

مرّت سحب وطيئة ملبّدة فوق ذلك الجزء من الأفق حيث يترامى البحر، خلف السبخات ومستوطنات أكواخ الشاطئ، فسودت قطرات المطر المعطف الشتويّ الأسود، الذي كنت اشتريته في ذلك الصباح. تسرّبت رطوبة

باردة عبر جِلدي.

كنتُ قد سألت البائعة: «أَهُوَ ضد الماء؟».

فقالت: «لا معطفاً شتويّاً يمنع الماء تماماً. إنّه ضد زخات المطر». وحين سألتها ما معنى «ضد زخات المطر»، نصحتني بشراء مظلة.

لكنّني لا أمتلك المال الكافي لشراء مظلة. فبعد دفع ثمن تذكرة الحافلة من بوسطن وإليها، وشراء الفول السوداني والجرائد وكتب علم النفس المرضيّ، وثمن تذاكر رحلاتي إلى مسقط رأسي عبر البحر، كان المال الذي ادخرته في نيو يورك على وشك أن ينفد.

كنتُ قرّرت القيام بذلك حين لا يعود ثمة مال في حسابي البنكيّ، فأنفقت في ذلك الصباح آخر النقود على المعطف الشتويّ الأسود.

ثم رأيت شاهدة قبر أبي.

كانت تزاحمها المكان شاهدة قبر آخر، الرأس جانب الرأس، مثلما تكتظ دار خيريّة بالناس ولا متسع لهم.

كانت الشاهدة مرمراً ورديّاً مُنقّطاً، كالسلمون المعلَب، ولم يكُن عليها سوى اسم والدي، وتاريخين– في أسفلها– تفصلهما شَرطةٌ صغيرة.

رتبتُ، أسفل الشاهدة، أزهار الأَزَاليَّة المُخضلة بالمطر، والتي كنت قطفتها من أجمة عند بوابة المقبرة. ثم انثَنَت قدماي تحتي، فجلستُ في العشب المُبتل. لم أُدرك سبب إجهاشي بالبكاء.

ثم تذكرت أنّني لم أبكِ حين مات أبي.

ولم تبكِ أمي أيضاً. تبسمت، وقالت إنّ الموت رحمة له، فلو عاش لكانَ مُقعداً ومريضاً، وما كان ليطيق ذلك، سيفضل الموت على تلك الحياة.

وضعت وجهي على صفحة المرمر الملساء، وأجهشت بنحيب الفقدان في المطر المالح البارد.

كنت أعرف كيف أقوم بذلك.

حين تحرّكت عجلات السيارة على الممشى، وتلاشى صوت المحرّك، وثبت من السرير هارعةً إلى بلوزتي البيضاء وتنّورتي المُزدانة برسوم خضراء ومعطفي الشتويّ الأسود. ما زال المعطف رطباً من مطر الأمس، لكنّ ذلك سوف يصبح بلا أهميّة عما قريب.

هبطتُ السلالم إلى الطابق السفليّ، والتقطت مظروفاً أزرق شاحباً من طاولة غرفة الطعام، ثم خربشتُ جاهدةً على ظهره، بحروف كبيرة: «سأذهب في نزهة طويلة.»

وضعت الرسالة حيث يمكن لأمي أن تراها فور عودتها.

ثم ضحكت.

لقد نسيت الشيء الأكثر أهميّة.

صعدت السلالم، وسحبت كرسيّاً إلى خزانة أمي. ثم صعدت على الكرسيّ ومددت يدي إلى الصندوق المعدنيّ الأخضر الصغير في الرف العلويّ. كدتُ أن أمزّق الغلاف المعدنيّ بيديّ العاريتين، فالقفل كان ضعيفاً، لكنّني رغبت في إنجاز الأشياء بطريقة منظمة هادئة.

سحبت دُرج الخزانة الخفيضة الذي يوجد في الجهة اليمنى العليا وزلقتُ علبة الحليّ الزرقاء من مخبئها تحت المناديل الأيرلنديّة الكتانيّة المعطرة. ثم عزلت المفتاح الصغير عن المُخمَل الداكِن. فتحتُ العُلبة وأخذت علبة الأقراص الجديدة. كانت [الأقراص] أكثر مما كنت آمل.

نحو خمسين قرصاً على الأقل.

لو انتظرتُ حتى تعطيني إيّاها أمي، ليلةً إثر ليلةٍ، لقضيت خمسين ليلةً كي أدخرها جميعها. ستكون الكلية- خلال تلك الفترة- قد فتحت أبوابها، ويكون أخي قد عاد من ألمانيا، ويكون الوقت قد فات.

أرجعتُ المفتاح إلى مكانه في صندوق الحليّ بين ركام السلاسل والخواتم الرخيصة، ثم أرجعت علبة الحليّ إلى الدُرج تحت المناديل؛ ثم أعدتُ الصندوق المعدنيّ إلى رفّ الخزانة، ووضعت الكرسيّ على السجادة في الموضع الذي سحبته منها تماماً.

هبطت السلالم إلى المطبخ. فتحتُ الصنبور وملأت كأساً طويلةً ماءً. ثم أخذت كأس الماء وعلبة الأقراص ونزلت إلى القبو.

كان ضوء معتم، مثل ضوء قاع البحر، يرشح عبر شقوق نافذة القبو. ثم ظهرت، خلف قنديل الزّيت، فجوة معتمة في الجدار بارتفاع الكتف تقريباً، ثم انسلت مسرعةً أسفل الرواق المسقوف، متواريةً عن الأنظار. كان الرواق المسقوف قد أُضيف إلى المنزل بعد حفر القبو، وشُيّد فوق هذا الصدع الأرضيّ السريّ.

كانت بضعة أزناد خشبيّة متعفنة، تستخدم لقدح النار في الموقد، تسدُ مدخل الفجوة تماماً. دفعتها إلى الخلف قليلاً. ثم أجلستُ كأس الماء وعلبة الأقراص، جنباً إلى جنب، فوق السطح الأملس لأحد الأزناد، ورحتُ ادفع نفسي.

مر وقت مديد قبل أن أتمكن من دفع جسدي إلى الفجوة، لكنّني- وبعد عدة محـاولات- تمكنت من ذلك، في نهاية الأمـر، فجثوت عند فم

الظلام، كطُعم في خيط صنّارة.

بدت الأرض ودودةً تحت قدميّ الحافيتين، ولكن باردة. تساءلت كم من الوقت مضى مُذ رأت الشمسَ هذه الأرضُ.

ثم سحبتُ الأزناد الثقيلة المُعفَّرة، واحداً تلو الآخر، عبر مدخل الفجوة. كان الظلام كثيفاً كمُخمَلٍ. مددت يدي نحو الكأس والعلبة، ثم، منحيةَ الرأس، زحفتُ على ركبتيّ إلى الجدار الأقصى.

لمست بيوت العناكب وجهي بنعومة العَث. مُلتفَّةً بمعطفي الأسود كأنّه ظلي الجميل، فتحت علبة الأقراص ورحتُ أبلعها بسرعة خاطفة، بين جرعات من الماء، واحداً واحداً.

لم يحدث شيء أول الأمر، غير أنّني حين اقتربت من قاع العلبة، أخذت أضواء حمراء وزرقاء تلمع أمام عينيّ. انزلقت العلبة من بين أصابعي، فتمددت على الأرض.

عم صمتٌ، كاشفاً عن حصى حياتي وصدفها وكل حطامها المتهالك. ثم احتشد، عند شفير الرؤية، في فيض جارف، دافعاً إيّاي إلى النّوم.

(14)

كانت العتمة حالكة.

شعرت بالعتمة، ولا شيء سواها، فأحسست رأسي وهو يرتفع مثل رأس دودة. كان ثمة من يتأوه. ثم ارتطم بوجنتي ثِقَل عظيم قاس كجدار حجريّ فتوقّف الأنين.

هادئاً ساد الصمتُ ثانيةً، مثلما يستعيد ماءٌ أسود هدوء صفحته إثر سقوط حجر.

اندفعت ريحٌ هادئة. كنتُ أُنقَل، بسرعة قصوى، عبر نفق إلى جوف الأرض. ثم سَكَنتِ الريحُ. كانت دَمدَمَةٌ، كما لو كانت لأصوات كثيرة، تحتجُ وتعترضُ في المسافة. ثم تلاشت الأصوات.

شقَّ الأرض إزميلٌ فوق عينيّ، فانفرجت كوة من نور، مثل فم أو جرح، حتى سدتها العتمةُ من جديد. حاولتُ أن أتحرّك بعيداً عن جهة الضوء، غير أنّ يديّ كانتا حول أوصالي كيديّ مومياء، فلم أحرّك ساكناً.

لا بُد أنّني في حجرة تحت الأرض، مضاءة بأضواء تخطف الأبصار، وأنّ الحجرة مكتظة بأُناسٍ كانوا يُنزلونني إلى أسفل، لسببٍ ما.

ثم ضرب الإزميلُ ثانيةً، فوثب الضياء إلى رأسي، وصاح صوتٌ في الظلام الحالك الدافئ المُفَرّى.

«أمي!».

تنفّس الهواء فوق وجهي ولعب حواليه.

شعرتُ بما يشبه الحجرة من حولي، حجرة كبيرة بنوافذ مشرعة. أخذت وسادة مكانها تحت رأسي، فعام جسدي، بلا ضغط، بين الملاءات.

ثم شعرت بدفء، كيد على وجهي. لا بُد أنّني مستلقية في الشمس. سأرى، إن فتحتُ عينيّ، ألواناً وأشكالاً تنحني عليّ مثل ممرضات.

فتحتُ عينيّ.

كان ظلامٌ دامس.

كان ثمة من يتنفّس قُربي.

«لا أستطيع أن أرى»، قلتُ.

ثم نطق من العتمة صوتٌ مَرِحٌ: «ثمة عميانٌ كثر في هذا العالم. ستتزوجين رجلاً وسيماً أعمى ذات يوم».

عاد الرجل ذو الإزميل ثانيةً .

«لِمَ تتجشم العناء؟» قلتُ. «لا جدوى من ذلك».

«لا تتكلمي هكذا». تحسست أصابعه النُّدبة الكبيرة المؤلمة فوق عيني اليُسرى. ثم أرخى شيئاً ما، فظهرت فجوةُ ضوءٍ مُثلمة، كثقب في الجدار. كان رأس رجل يحدق من طرف الفجوة.

«هل ترينني؟»

«نعم».

«أترين شيئاً آخر؟»

حينئذٍ تذكرت. «لا أستطيع رؤية أيّ شيء». ضاقت الفجوة وأظلمت. «إنّني عمياء».

«هراء! من أخبرك بذلك؟»

«الممرّضة».

شَخَرَ الرجل. ثم أنهى وضع الضماد على عيني. «أنت فتاة محظوظة جداً. فبصرك سليم تماماً».

«ثمة من يود رؤيتك».

تبسمت الممرضة مبتهجةً، ثم اختفت.

قدمت أمي مبتسمةً عند قدم السرير. كانت في حالة مُزرية، وترتدي ثوباً مُزادناً برسومات دواليب ورديّة.

تبعها صبيٌّ طويل ضخم. لم أستطع، بدايةً، أن أتعرّف عليه، لأنّني لم أفتح عيني إلاّ قليلاً، ثم عرفتُ أنّه أخي.

«قالوا إنّك راغبة في رؤيتي».

جلست أمي على حافّة السرير، واضعةً يدها على ساقي. بدت حنونة وتشعر بالذنب، فرغبت في أن تغادر فوراً.

«لا أعتقد أنّني قد قُلت شيئاً».

«قالوا إنّك طلبت حضوري». كانت على شفا البكاء. تغضن وجهها وارتعش كهُلام شاحب.

«كيف حالُكِ؟» قال أخي.

نظرتُ في عينيّ أمي، ثم قلتُ:

«لا جديد».

«لديكِ زائرٌ».

«لا أريد زواراً».

هرعت الممرضة خارجةً وهمست إلى شخص في الرواق. ثم عادت.

«إنّه يتوق إلى رؤيتك».

نظرتُ إلى الساقين الشاحبتين الناتئتين من المنامة الحريريّة الغريبة البيضاء التي ألبسوني إيّاها. كان الجلد يهتزّ مُترهّلاً كلما تحرّكت، كما لو كان بلا عضلات، يغطيه شعر نامٍ أسود، قصير وكثيف.

«من هو؟»

«شخص تعرفينه»

«ما اسمه؟»

«جورج باكويل George Bakewell».

«لا أعرف شخصاً يُدعى جورج باكويل».

«يقولُ إنّه يعرفك».

ثم خرجت الممرّضة ودخل شابٌّ تبدو ملامحه مألوفة جداً، ثم قال: «أتمانعين إن جلست على طرف سريرك؟».

كان يرتدي معطفاً أبيض، وأستطيع رؤية سماعة طبيب تظهر من جيبه. لا بُد أنّه شخص أعرفه، متنكراً في زيّ طبيب.

راودتني فكرة أن أغطي ساقيّ خوفاً من دخول أحد ما، لكنّني أدركت أن الوقت قد فات، فتركتهما على حالتهما، مُقزّزتين وبشعتين.

«هذه أنا»، فكرت. «هكذا أنا».

«تذكرينني، أليس كذلك، يا إِسترِ؟»

أغمضت عيني السليمة، نصف إغماضة، وحدقت في وجه الشاب. كانت العين الأُخرى لا تزال مغمضة، لكنّ الطبيب قال أنّها ستكون على ما يرام خلال بضعة أيّام.

نظر إليّ الشابُّ كما لو كنتُ حيواناً جديداً مثيراً في حديقة حيوان، وكان على وشك أن ينفجر ضاحكاً.

«تذكرينني، أليس كذلك، يا إِستِر؟» قال على مهله، مثلما يتكلم المرء مع طفل بليد. «أنا جورج باكويل. أتردد على كنيستكم. لقد واعدتني رفيقي في الغرفة بكليّة آمهيرست Amherst ذات يوم».

حسبتني عرفت وجه الشابّ حينئذ. حوم غامضاً عند تخوم الذاكرة— كنّوع تلك الوجوه التي لا أتجشم عناء معرفة اسم صاحبها.

«ماذا تفعل هنا؟»

«أنا طبيب تحت التمرين بهذا المستشفى».

كيف أصبح هذا الجورج باكويل طبيباً فجأة؟ تساءلتُ. كما أنّه لم يكن يعرفني حقّاً. كان يرغب في رؤية كيف تبدو فتاة مجنونة أرادت أن تضع حداً لحياتها.

أشحت وجهي جهة الحائط.

«أُخرج»، قلتُ. «أُخرج من هنا، ولا تعد ثانيةً».

«أريدُ أن أرى مرآة».

كانت الممرضة تدندن بحيويّة، وهي تفتح دُرجاً تلو الآخر، وتحشو الثياب الداخليّة والبلوزات والتنانير والمنامات، التي اشترتها لي أمي، في الحقيبة الجلديّة السوداء العاديّة.

«لمَ لا أستطيع أن أرى مرآة؟»

كانوا قد ألبسوني ثوباً ضيّقاً، مخططاً بالرماديّ والأبيض، مثل قماش أغلفة الفُرُش، ذا حزام عريض أحمر لامع، ثم وضعوني في كرسيّ ذي ذراعين.

«لِمَ لا يمكنني ذلك؟»

«من الأفضل ألاّ تفعلي». أقفلت الممرضة غطاء الحقيبة بحركة مفاجئة.

«لماذا؟»

«لأنّك لا تبدين جميلة جداً».

«أوه، دعيني ألقي نظرة فقط».

تنهّدت الممرضة وفتحت الدُرج العلويّ للخزانة الخفيضة. أخرجت مرآة كبيرة، ذات إطار خشبيّ يتناغم مع خشب الخزانة الخفيضة، وناولتني إيّاها.

لم أتبيّن، بادئ الأمر، مكمن الخلل. لم تكُن مرآة أبداً، بل صورة.

لا تستطيع معرفة ما إذا كان الشخص الذي في الصورة رجلاً أم امرأة، لأنّ الشعر حليق وقد نما في خُصَل كثة، تشبه ريش الدجاج، في كل مكان من الرأس. كان أحد جانبيّ وجه ذلك الشخص أرجوانيّاً، متورّماً حد التشوُه، يميل إلى الخضرة حول الأطراف، ثم إلى أصفر شاحب. وكان فمه بنيّاً شاحباً، بكدمة ورديّة عند طرفيه. وكان الشيء المرعب بشأن الوجه يتعلق بكتلة الألوان البراقة الخارقة للطبيعة.

ابتسمتُ.

تشقّق الوجه الذي في المرآة إلى تكشيرة.

بعد الارتطام هرعت ممرّضة أخرى إلى الغرفة. ألقت نظرةً على المرآة المهشمة، وعليَّ واقفة فوق الشظايا البيضاء العمياء، فدفعتُ الممرضة الشابة خارج الغرفة.

«ألم أخبركِ»، تناهى إليّ صوتها.

«لكنّني كنتُ فقط . . .»

«ألم أخبركِ!»

أنصّتُ إلى حدثيها باهتمام فاتر. يمكن لأيّ شخص أن يُسقط مرآة. لم أرَ سبباً لتوترهم.

عادت أكبر الممرضات سنّاً إلى الغرفة. وقفت هناك، وقد ثَنَت ذراعيها، تحدق فيّ بإمعان.

«سبع سنوات من الحظ السَيِّئ».

«ماذا؟»

رفعت الممرّضة صوتها، كما لو كانت تكلم أصماً: «سبع سنوات من الحظ السَيِّئ».

عادت الممرّضة بمَجْرُودٍ ومكنسة وراحت تكنس الشظايا اللامعة.

«هذه خُرافة»، قلتُ حينئذٍ.

«هَه!» وجهت الممرضة الثانية حديثها إلى الممرضة الجاثية على يديها وركبتيها كما لو كنتُ غير موجودة. «هناك، حيث تعلمين أنّهم سيعتنون بها!».

كنت أستطيع رؤية الشارع، من النافذة الخلفيّة لسيارة الإسعاف، وهو يَتقمَعُ في المسافة الصيّفيّة الخضراء. جلست أمي في طرف، وأخي في الطَرف الآخر.

تظاهرت أنّي لا أعرف سبب نقلي من مستشفى البلدة إلى مستشفىً في المدينة، لأرى ما الذي سوف يقولانه.

«يريدونكِ أن تكوني في جناح خاص»، قالت أمي. «ليس في مستشفى البلدة ذلك النوع من الأجنحة».

«لقد أحببت المكان الذي كنتُ فيه».

ضاق فمُ أمي. «كان يتوجب عليك أن تُحسني التصرف إذن»

«ماذا؟»

«ما كان ينبغي عليك أن تكسري تلك المرآة. ربّما سمحوا لكِ بالبقاء حينئذٍ».

لكنّني كنتُ أعرف أن لا علاقة للمرآة بالأمر.

جلستُ في سرير بملاءات تصل إلى عنقي.

«لِمَ لا أستطيع النهوض؟ لستُ مريضةً».

«جولات التفتيش على الأجنحة»، قالتِ الممرضة. «تستطيعين النهوض عقب انتهاء الجولات». سحبت الستائر المحيطة بالسرير إلى مكانها، كاشفةً عن وجه شابّة إيطاليّة في السرير المجاور.

كانت للمرأة الأيطاليّة كتلة من خُصَل سوداء مشدودة، تبدأ من جبينها، وتصعد في شكل تسريحة پومبادور Pompadour ضخمة، ثم تنساب إلى أسفل ظهرها. وكلما تحرّكت، تتحرّك التسريحة الضخمة معها، كما لو كانت من ورق أسود مُقوى.

نظرت المرأة إليّ وقهقهت. «لِمَ أنتِ هنا؟». لم تنتظر الإجابة. «أنا هنا بسبب حماتي الفرنسيّة-الكنديّة». ثم قهقهت ثانيةً. «يعرف زوجي أنّني لا أطيقها، ورغم ذلك قال إنّ بإمكانها زيارتنا، وحين أتت، خرج لساني من رأسي ولم أَحُل من دون ذلك. ثم أدخلوني إلى جناح الطوارئ ومن ثَم

وضعوني هنا» — أخفضت صوتها — «مع المجنونات». ثم قالت: «ما خطبُكِ؟». أدرتُ نحوها وجهي ذا العين القرمزيّة الخضراء المتورمة. «حاولت قتل نفسي».

حدقت المرأة فِيّ. ثم التقطت، على عجَلٍ، مجلة أفلام من طاولة سريرها، وتظاهرت بالقراءة.

انفتح الباب الدوار المقابل لسريري، ودخلت مجموعة شُبّان وصبايا بمعاطف بيضاء، يرافقهم رجلٌ أشيب. كانوا يبتسمون ابتسامةً برّاقة مصطنعة. تحلقوا عند قدم السرير.

«كيف حالك هذا الصباح، آنسة غرينوود؟».

حاولت معرفة أيّهمُ الذي تكلم. أكره قول أيّ شيء لجماعة من الناس. حين أتحدث إلى جماعة من الناس، أختار واحداً من بينهم وأوجه إليه كلامي، وأثناء ذلك أشعر أنّ الآخرين يحدقون فيّ، ويحظون بامتياز مجحف. كما أنّني أكره الذين يسألونني، بغبطةٍ، عن حالَي، وهم يعرفون أنّني أقاسي الأمرين، متوقّعين أن أقول: «بخير».

«لستُ على ما يرام. أشعر كأنّ القمل يجتاحني».

«قمل. هَممم»، قال أحدهم، ثم أحنى آخر رأسه وابتسامة صغيرة تعلو محيّاه. كان شخص آخر يخربش شيئاً على لوح ما. حينئذ، ارتسمت ملامح الوقار على وجه أحدهم، ثم قال: «لَمَ تشعرين كأنّ القمل يجتاحك؟».

دار في ذهني أن يكون بعض شُبّانَ تلك المجموعة وصباياها أصدقاءً لبَدي ويلارد. سيعلمون أنّي أعرفه، وينتابهم فضول لرؤيتي، ثم ينهمكون في القِيل والقَال عنّي. أردتُ أن أكون حيث لا يأتي إليّ أحدٌ أعرفه.

«لا أستطيع النّوم . . .»

قاطعوني. «ولكنّ الممرضة تقول أنّك نمتِ ليلةَ البارحة». نظرتُ حول هلال الوجوه الغريبة النّضرة.

«لا أستطيع القراءة». رفعتُ صوتي. «لا أستطيع الأكل». خطر ببالي أنّني كنت آكُل بِنَهَمٍ مُذ أتيتُ إلى هنا.

أداروا ظهورهم مبتعدين، وهم يتهامسون فيما بينهم. ثم خطا الرجل الأشيب خارج المجموعة أخيراً. «شكراً، آنسة غرينوود. سيفحصك أحد أطباء المستشفى عما قليل».

ثم توجهت المجموعة إلى سرير المرأة الايطاليّة.

«وكيف تشعرين اليوم، يا سيّدة . . .» قال أحدهم، فبدا الاسم طويلاً ومليئاً باللامات، كاسم السيدة توموليلو Tomolillo.

قهقهت السيّدة توموليلو. «أوه، إنّني بخير، أيّها الطبيب. إنّني بخير». ثم أخفضت صوتها، وهمست بشيء لم أستطع سماعه. نظر واحدٌ أو اثنان من المجموعة نحوي. ثم قال أحدهم: «حسناً، سيّدة توموليلو»، ثم غادر المجموعة شخص ما، وسحب الستارة التي تحيط بالسرير، بيننا، كجدار أبيض.

جلستُ في طرف مقعد خشبيّ طويل في الساحة المعشوشبة التي بين جدران المستشفى القرميديّة الأربعة. جلست أمي، بثوبها المُزدان برسومات لدواليب عربات أرجوانيّة، في الطرف الآخر. كانت تسند رأسها بيدها، واضعة السبابة على خدها، والابهام تحت ذقنها.

كانت السيّدة توموليلو تجالس إيطاليّاً، فاحمَ الشعر، ضاحكاً، في المقعد المجاور. وكلما تحرّكت أمي، تقلدها السيدة توموليلو. وها هي الآن

جالسة وسبّابتها على خدها وإبهامها تحت ذقنها، ورأسها مائل إلى جهةٍ حُزناً.

«لا تتحرّكي»، أخبرت أمي بصوت خفيض. «تلك المرأة تقلدكِ».

استدارت أمي لتنظر من حولها، لكنّ السيدة توموليلو— وفي طرفة عين— ألقت يديها البيضاوين الممتلئتين في حضنها، وراحت تتحدث إلى أصدقائها بحيويّة.

«كلاّ، إنّها لا تفعل ذلك»، قالت أمي. «حتى إنّها لا تعيرنا بالاً». وما إنِ استدارت أمي نحوي ثانيةً، حتى وازت السيدة تومو ليلو أطراف أصابعها مثلما فعلت أمي للتو، ورمقتني بنظرة شريرة ساخرة.

كانت المرجة بيضاء من كثرة الأطباء الذين يفترشونها.

وخلال الوقت الذي قضيته رفقة أمي هناك، في ذلك الركن الضيق، حيث تشرق الشمس بين الجدران القرميديّة العالية، كان الأطباء يأتون إليّ ويقدمون أنفسهم. «أنا الدكتور فلان، أنا الدكتور علاّن».

بدا بعضهم في مقتبل العمر لدرجة يتعذر فيها عليهم أن يكونوا أطباء حقيقيّين فعلاً، وكان لأحدهم اسم غريب يشبه الدكتور سيفليس Syphilis، فشرعتُ أفتش عن الأسماء الملفقة الغريبة، حتى جاء شخص فاحم الشعر، يشبه الدكتور غوردن، باستثناء أنّ سحنته سمراء، فيما سحنة الدكتور غوردن بيضاء، وقال لي: «أنا الدكتور بنكرياس Pancreas»، وهزّ يدي مُصافحاً.

بعد تقديم أنفسهم، وقف الأطباء ضمن مسافة تمكنهم من الاستماع، إلاّ أنّني لم أستطع إخبار أمي أنّهم كانوا يدونون كل كلمة تفوهنا بها، خشيةَ أن يسمعوني، فملت عليها هامسةً في أذنها.

جفلت أمي إلى الوراء بحدة.

«آه، يا إستِر، ليتك تتعاونين. يقولون إنك لا تتعاونين. يقولون إنك لا تكلمين أحداً من الأطباء، ولا تشاركين في المعالجة بالعمل[49] . . .»

«عليّ أن أغادر هذا المكان»، أخبرتها بوضاعة. «حينها سأكون بخير. أنتِ مَن أدخلني إلى هنا»، قلتُ. «أخرجيني».

فكرت لو استطعت اقناع أمي أن تخرجني من المستشفى، فإنّني سأستدرّ عطفها، مثل ذلك الصبيّ، في المسرحيّة، المصاب بلوثة في دماغه، وأقنعها بأفضل شيء يمكنها القيام به.

لكنّني دُهشت حين قالت: «حسناً، سأحاول أن أخرجك من هنا— ولو حتى إلى مكان أفضل. إن حاولت إخراجك من هنا— وضعت يدها على ركبتي— «هل تعدينني بحُسن التصرُّف؟».

استدرتُ مسرعةً ونظرت مباشرة في عينيّ الدكتور سيفليس، الذي وقف عند مرفقي يدون ملاحظاته على وريقات صغيرة بالكاد تُرى. «أَعِد»، قلتُ بصوت عالٍ جليّ.

دفع الزّنجيّ عربة الطعام إلى غرفة طعام المرضى. كان جناح الأمراض النفسيّة بالمستشفى صغيراً جداً— مجرّد رواقين في شكل حرف إِل L، تحفّ بهما غرف من الجهتين، ومُختَليً بأسرّة خلف مختبر العلاج بالعمل— حيث كنتُ— ومساحة صغيرة بطاولة وبضعة مقاعد قرب النافذة في الزاوية التي تتخذ شكل حرف إل، والتي كانت حجرة جلوسنا وطعامنا.

عادةً ما كان يُحضر لنا الطعام عجوز أبيض تعلو وجهه التجاعيد،

49- المعالجة بالعمل Ocupational Therapy: تكليف المريض بأعمال خفيفة مُنتِجة تصرف تفكيره عن الانشغال بنفسه وتساعد على إعاده تأهيله أو شفائه. (المراجع).

أما اليوم فقد حل محله زنجيّ. كان الزنجيّ رفقة امرأة تنتعل حذاء بكعب رفيع أزرق، وكانت تخبره بما يتوجب عليه فعله. واصل الزنجيّ التبسم، والضحك بينه وبين نفسه، بطريقة سخيفة.

ثم حمل إلى طاولتنا صينيّة عليها ثلاث سُلطانيّات قصديريّة مُغطاة، وأخذ يضع السلطانيّات بصوت مسموع. غادرت المرأة الحجرة، مقفلة الباب وراءها. كان الزنجيّ، طيلة الوقت، يضع السلطانيّات والأطباق الفضيّة المبعوجة والخزفيّة البيضاء السميكة، وهو يحدق فينا بعينين كبيرتين تدوران في محجريهما.

أستطيع القول إننا كنّا أول المجانين الذين يشاهدهم.

لم يحرّك أحدٌ من الجالسين على الطاولة ساكناً، ولم يرفع الأغطية عن السلطانيات القصديريّة أحدٌ، فجلست الممرضة في الخلف، لترى إن كان سيرفع الأغطيةَ أيٌّ منّا، قبل أن تقوم هي بذلك. جرت العادة أن ترفع السيّدة توموليلو الأغطية، وتسكب طعام كل واحدة، مثل أُم صغيرة، لكنّهم كانوا قد أرسلوها إلى البيت، ولا أحد راغب في أن يحل مكانها.

كنت أتضور جوعاً، فرفعتُ الغطاء عن السلطانيّة الأولى.

«هذا لُطف منك، يا إسترِ»، قالت الممرضة مبتهجةً. «أترغبين ببعض اللوبياء، ومن ثَم تمرّرين السلطانيّة إلى الأُخريات؟»

سكبتُ لنفسي بعض حبّات اللوبياء الخضراء، واستدرت لأمرّر السلطانيّة إلى المرأة الضخمة ذات الشعر الأحمر التي عن يميني. كانت تلك هي المرّة الأولى التي يُسمَح فيها للمرأة ذات الشعر الأحمر بالجلوس على طاولتنا. كنت قد لمحتها مرّة، في نهاية الرواق الذي في شكل حرف إِل L،

واقفةً أمام باب مفتوح، تغطي نوافذه الداخليّة المربعة قضبان حديديّة.

كانت تصرخ، وتضحك بطريقة وقحة، وتصفع فخذيها كلما مرّ الأطباء، وكان المرافق ذو السترة البيضاء، الذي يعتني بمن في ذلك الركن من الجناح، يميل على مشعاع الممرّ، ضاحكاً بشكل هستيريّ.

خطفت المرأة ذات الشعر الأحمر السلطانيّة منّي وأفرغتها في صحنها. كانت حبّات اللوبياء مكومة أمامها، ومتناثرة في حضنها، وعلى الأرض، مثل قَش أخضر يابس.

«أوه، سيّدة مُول Mole!» قالت الممرضة بصوت حزين. «من الأفضل أن تأكلي في غرفتك اليوم».

ثم أعادت معظم حبّات اللوبياء إلى السلطانيّة، وأعطتها إلى الشخص الجالس قرب السيدة مول، ثم اقتادتها إلى الخارج. وطيلة عبورها الممرَّ المفضي إلى غرفتها، لم تكفّ السيّدة مول عن التلفُّت، والقيام بحركات ساخرة، وإصدار أصوات قبيحة مزعجة.

عاد الزنجي، وقد أخذ بجمع الأطباق الفارغة، التي لم تُسكَب فيها أيّة لوبياء بعد.

«لم نفرغ من طعامنا بعد»، أخبرتُه. «يمكنك الانتظار قليلاً».

«مَه، مَه!» جحظَ الزنجيّ مُتهكماً. ثم ألقى نظرة من حوله. لم ترجع الممرضة التي ذهبت لحبس السيدة مول في غرفتها بعدُ. قام الزنجيّ بانحناءةٍ وقحة. «الآنسة المهمة المتعجرفة»، قال بصوت خافت.

رفعتُ الغطاء عن السلطانيّة الثانية، فبدت معكرونة باردة كالحجر، وملتصقة ببعضها بعجينة لزجة. كانت السلطانيّة الثالثة، والأخيرة، مليئة

بفاصولياء مطهوة.

أدركتُ، الآن تماماً، أنّه لا يمكن تقديم فاصولياء ولوبياء معاً في وجبه واحدة. لوبياء وجزر، أو ربّما فاصولياء وبازلاء، ولكن ليس فاصولياء ولوبياء. كان الزنجي يحاول رؤية كم سنتناول من طعام.

عادت الممرضة، فتنحى الزنجي جانباً. أكلت فاصولياء مطهوة بقدر استطاعتي. ثم نهضت من على الطاولة، عابرة إلى حيث لا يمكن للممرضة أن تراني دون مستوى خصرها، وراء الزنجيّ الذي كان ينظف الأطباق المتسخة. سحبت قدمي إلى الوراء، وسددت له ركلةً قويّة حادة على رَبْلَةِ ساقه.

وثب الزنجيّ صارخاً وأدار عينيه نحوي. «آه، يا آنسة، آه يا آنسة»، تأوه وهو يُمسد ساقه. «ما كان عليكِ أن تفعلي ذلك، ما كان عليكِ، ما كان عليكِ فعلاً»

«هذا جزاؤك»، قلتُ لَهُ، ثم حدقتُ في عينيه.

«ألا تريدين النهوض من سريرك اليوم؟»

«كلاّ». تكورت عميقاً في السرير، وسحبت الملاءة فوق رأسي. ثم رفعت طرف الملاءة، ورحتُ أسترق النظر. كانت الممرضة تهزّ ميزان الحرارة الذي سحبته للتو من فمي.

«أترين، الحرارة طبيعيّة». «أترين، الحرارة طبيعيّة، لِمَ تواصلين قياس الحرارة؟»

كنتُ أود إخبارها أنّه لو كان الأمر يتعلق بأوجاع جسدي لهانت الأمور، فأوجاع جسدي أهون عليّ من علل عقلي، لكنّ الفكرة بدت معقدة ومُضجرة، فلم أنبس ببنت شفة. رحتُ أختبئ أكثر فأكثر في السرير.

ثم شعرتُ، عبر الملاءة، بضغط خفيف مزعج على ساقي. نظرتُ سريعاً. وضعت الممرضة صينية موازين الحرارة فوق سريري، فيما أدارت ظهرها لي، وراحت تقيس نبض التي ترقد بجواري، في مكان السيدة توموليلو.

دب في عروقي شرّ مستطير، مزعج ومثير كألم ضرس على وشك السقوط. تثاءبتُ مُستثارةً، كما لو كنتُ سأتقلب في فراشي، دفعتُ قدمي تحت الصّندوق.

«أوه!» كانت صرخةُ الممرّضة صرخةَ استغاثة، فجاءت ممرّضة أخرى. «أنظري ماذا فعلتِ!»

رفعت رأسي من بين الملاءات محدقة من فوق حافّة السرير. كانت نجمةٌ من شظايا ميزان الحرارة تلمعُ، حول الصّينيّة المقلوبة المطليّة بالمِينَا، وكرات من الزّئبق ترتجف مثل ندىً سماويّ أيضاً.

«آسفة»، قلتُ. «كان حادثاً».

رمقتني الممرضة الثانية بعين تقدح شرراً. «بل قمت بذلك عمداً. لقد رأيتك».

ثم أسرعت خارجةً، فدلف إلى الغرفة مساعدان دفعا سريري، بكل ما عليه، إلى الحجرة العتيقة للسيّدة مول، ولكن ليس قبل أن غرفتُ كرةً من الزّئبق.

استطعتُ، بعد اغلاقهما الباب، رؤية وجه الزنجي، قمراً بلون دِبْس السكر، يلوح بين حاجز النافذة المُشبّك، فتظاهرت أنّي لا أراه.

فتحتُ أصابعي قليلاً، مثل طفل يضمر سرّاً، ابتسمتُ للكرة الفضيّة المُكوَبة في راحتي. ستتشظى— إن أسقطتها— إلى ملايين النّسخ المتشابهة،

وإن دفعتها قرب بعضها بعضاً، فإنّها ستلتحم، من دون أيّ صَدع، في وحدة واحدة من جديد.

ابتسمت وابتسمت للكرة الفضيّة الصّغيرة.

لم أستطع تخيُّل ما الذي فعلوه بالسيّدة مُول.

(15)

شقّت الكاديلاك السوداء، التي تملكها فيلومينا غوينا، طريقها بهدوء وسط حركة المرور الخانقة في الساعة الخامسة بعد الظهيرة، كعربة شعائريّة. عما قليل ستعبر أحد الجسور القصيرة التي تُقنطِر نهر تشارلز؛ سأفتح الباب — دونما تفكير — وأندفع، بتهور، عبر تيّار حركة المرور إلى سياج الجسر. قفزةٌ واحدة، ويكون الماء فوق رأسي.

رحتُ أُبدد الوقت وأنا أفتل محرمة ورقيّة إلى كريّات صغيرة، بحجم أقراص الدواء، بين أصابعي، ورحتُ أراقبها كما لو كنتُ أختبر حظي. جلستُ في وسط مقعد الكاديلاك الخلفيّ، بين أمي وأخي اللذين انحنيا إلى الأمام قليلاً، كعارضتين مائلتين تغلقان الباب المحاذي لكل منهما.

أستطيع أن أرى أمامي الامتداد القرنفليّ البرّاق لرقبة السائق، وهي تنحشر بين قبّعة زرقاء وكتفيّ سُترة زرقاء، وإلى جانبه — مثل طائر غريب مهيض الجناحين — كانت قُبّعة الريش الزمرّديّ والشعر الفضيّ، التي تعتمرها فيلومينا غوينا، الرّوائيّة الشهيرة.

لم أكُن متأكدة من سبب ظهور السيدة غوينيا. كل ما أعرفه هو أنّ حالتي قد استرعت انتباهها؛ وأنّها كانت هي الأخرى، ذات يومٍ، نزيلة مصحة للأمراض النّفسية، وهي في أوج مسيرتها الأدبيّة.

قالت أمي إن السيدة غوينيا قرأت عن حالتي في إحدى الصحف البوسطينيّة، فأبرقت قائلةً: «هل سبب الحالة شابٌّ ما؟».

وإن كان الأمر كذلك، فإنّها لن تستطيع فعل أيّ شيء بتاتاً.

لكنّ أمي أبرقت إليها قائلةً: «كلاّ، إنّ الأمر يتعلق بالكتابة. فَإستِر تعتقد أنّها لن تكتب ثانيةً».

ولهذا عادت السيّدة غوينيا إلى بوسطن بالطائرة، ثم أخذتني من جناح مستشفى المدينة المكتظ، وها هي الآن تقلني بسيّارتها إلى مستشفى خاص يضم حدائق وملاعب للغولف، مثل ناد ريفيّ، حيث ستدفع نفقات علاجي، كما لو أنّني حصلت على منحة ما، حتى أُشفى على يد الأطباء الذين تعرفهم هناك.

أخبرتني أمي بضرورة أن أشعر بالامتنان. قالت إنّني قد استنفدت معظم مالها، ولولا السيدة غوينا لما عرفت أين ستنتهي بي الحال. لكنّني عرفت أين سينتهي بي المطاف. سأكون في المستشفى الحكوميّ الريفي الكبير، المجاور لهذا المكان الخصوصيّ.

كنت أعلم بضرورة أن أشعر بالامتنان تجاه السيّدة غوينا، لكنّني لم أشعر بشيء. لو أنّها منحتني تذكرة إلى أوروبّا، أو رحلة بحريّة حول العالم، لكان الأمر سيّان عندي، فأينما جلستُ— سواءً على ظهر سفينة، أو في مقهىً رصيفيٍّ بباريس أو بانكوك— فإنّني سأكون جالسةً تحت ذات الناقوس الزجاجي، أتصبب عرقاً، في هوائي الفاسد.

فتحت سماءٌ زرقاء قُبّتها فوق النّهر، فتناثرت في النّهر الأشرعة. وما إن هممت بالقفز حتى وضعت أمي يدها على مقبض الباب، وكذلك فعل أخي. أزّت إطارات السيارة، لفترة وجيزة، فوق حاجز القضبان المتصالبة للجسر. لمعت الماء والأشرعة والسماء الزرقاء والنوارس المعلقة في الهواء كبطاقة بريديّة

مستحيلة، فعبرنا الجسر.

غصتُ، ثانيةً، في المقعد الرمادي المخمليّ، وأغمضت عينيّ. طوقني هواء الناقوس الزجاجي، من كل جانب، فلم أتحرّك.

حصلت على غرفتي الخاصّة مرّة أخرى.

لقد ذكرتني بالغرفة التي في مستشفى الدكتور غوردن— سرير، خزانة خفيضة، خزانة ثياب، طاولة وكرسيّ. نافذة بمُنخل بلا قضبان. كانت غرفتي في الطابق الأول، والنّافذة، التي على بُعد مسافة قصيرة من الأرضيّة المغطاة بإبر الصّنوبر، تطلُ على ساحة مُشجرة يحيط بها جدار من الطوب الأحمر. إن قفزتُ فلن أجرح حتى ركبتيّ. بدا السطح الداخليّ للجدار الطويل صقيلاً كالزّجاج.

أرهقت الرحلة فوق الجسر أعصابي.

لقد ضيّعتُ فرصة مثاليّة. مرّت مياه النهر قربي كشراب لم يُلمَس بعد. ساورتني ظنونٌ أنّني لم أكُن لأجرؤ على القفز، حتى وإن لم تكُن أمي موجودة، هناك، رفقة أخي.

وحين أكملتُ إجراءات الدخول بالمبنى الرّئيس في المستشفى، جاءت فتاة نحيلة وقدمت نفسها: «اسمي الدكتورة نُولان Nolan. سأكون الطبيبة المكلفة بإِسترِ».

دهشتُ لأنّها امرأة. لم يخطر ببالي أن يكون لديهم طبيبات نفسانيّات. كانت تلك المرأة مزيجاً من ميرنا لُوي Myrna Loy[50] وأمي. كانت ترتدي بلوزة بيضاء، وتنّورة طويلة يزمها، عند الخصر، حزام جلديّ عريض، ونظارات أنيقة

50– ممثلة أميركيّة. (المراجع).

في شكل هلال.

ولكن، بعد أن اقتادتني الممرّضة عبر المَرجة إلى بناية كئيبة من الآجرّ، تُدعى كاپلان Caplan، حيث سأقيم، لم تأت الدكتورة نُولان لزيارتي، وإنّما مجموعةٌ غريبة من الرّجال.

استلقيتُ على سريري تحت الملاءة البيضاء السميكة، فدخلوا حجرتي، واحداً واحداً، وقدموا أنفسهم. لم أُدرك سبب وجود هذا العدد الكبير، أو لَمَ رغبوا في تقديم أنفسهم، فتبادر إلى ذهني أنّهم يختبرونني، ليروا إن كنتُ قد انتبهت إلى عددهم الكبير، فازددتُ حذراً.

أخيراً، جاء طبيبٌ وسيم، ذو شعر أبيض، وقال إنّه مدير المستشفى. ثم راح يتحدث عن المهاجرين[51] والهنود [الحُمر] ومَن استولى على الأرض من بعدهم، وعن الأنهار التي تجري بالجوار، ومَن شيّد أول مستشفى، وكيف احترق، ومن شيّد الثاني، حتى اعتقدتُ أنّه ينتظر متى سأقاطعه، لأخبره أنّ كل شيء تفوه به عن الأنهار والمهاجرين كان مجرّد هراء.

لكنّني اعتقدتُ، حينئذٍ، أنّ بعض حديثه قد يكون صحيحاً، فحاولتُ تبيان أيُّه صحيح وأيُّه ليس كذلك، وقبل أن أفعل، قال وداعاً.

انتظرتُ حتى سمعت أصوات جميع الأطباء وهي تتلاشى بعيداً. ثم ألقيتُ عنّي الملاءة البيضاء، وانتعلت حذائي خارجةً إلى الرّواق. لم يوقفني أحدٌ، فواصلت المسير حول زاوية جناح الرّواق الذي أنزل فيه، ثم في رواق آخر، رواق أطول، عابرةً غرفة طعامٍ مُشرعة أبوابها.

51- Pilgrims: المهاجرون الإنجليز الأوائل الذين أنشأوا أول مستعمرة في نيو إنغلاند سنة 1620. (المراجع).

كانت خادمة بزيٍّ أخضر تُعد الطاولات للعشاء. كانت ثمة سُمُطٌ كتانيّة بيضاء وكؤوس ومناديل ورقيّة. وكما يفعل السنجاب، حين يحفظ حبّة بندق، حفظتُ في ذهني حقيقةَ أنّ الكؤوس حقيقيّة. كنّا نشرب، في مستشفى المدينة، من أكواب ورقيّة، ولم تكُن لدينا سكاكينُ نقطع اللحم بها. دائماً ما كانوا يطهون اللحم، أكثر مما ينبغي، حتى نستطيع تقطيعه بشوكات طعامنا.

وصلتُ، أخيراً، إلى رَدهةٍ كبيرة تضم أثاثاً بالياً وسجادة رثّة. كانت فتاة ذات وجه مستدير، وشعر قصير أسود، تجلس في كرسيّ ذي ذراعين، وتقرأ مجلة. ذكرتني بإحدى قائدات فرقة الكشافة التي كنت عضوة فيها ذات مرّة. نظرتُ إلى قدميها، فكانت تنتعل حذاءً جلديّاً بُنيّاً مُسطحاً، ذا شراريب تتدلى من الأمام. كان من المفترض أن يكون الحذاء رياضيّاً، فكانت أطراف القِيطَان معقودة في شكل جَوزة بلوط.

رفعت الفتاة عينيها وابتسمت. «أنا ڤاليري Valerie. مَن أنتِ؟»

تظاهرتُ أنّي لم أسمعها، فخطوت خارج الرَّدهة إلى نهاية الجناح التالي. عبرت، في طريقي، باباً في عُلوِ الخَصْر، فلمحتُ، من خلفه، بعض الممرّضات.

«أين الجميع؟»

«في الخارج». كانت الممرّضة تكتب شيئاً ما، مرّة تِلو أخرى، على قطع صغيرة من شريط لاصق. انحنيتُ، عبر بوابة الباب، لأرى ما الذي كانت تكتبه، فكان: إِ. غرينوود، إِ. غرينوود، إِ. غرينوود.

«أين؟».

«أوه، هناك، في ميدان الغولف، يلعب فريقُ المعالجة بالعمل تنسَ الرّيشة».

لاحظتُ كومة ثياب على كرسيّ قرب الممرّضة. كانت ذات الثياب التي وضعتها الممرّضة، التي في المستشفى الأول، في الحقيبة الجلديّة الفاخرة حين كسرت المرآة. أخذت الممرّضات بوضع العلامات اللاصقة على الثياب.

عدتُ أدراجي إلى الرَّدهة. لم أستطع إدراك ما الذي كان يفعله هؤلاء النّاس؛ يلعبون تنس الرّيشة والغولف. لا بُد أنّهم ليسوا مرضى بتاتاً، ليقوموا بذلك.

جلستُ قرب ڤاليري، وراقبتها بحذر. أجل! لا بُد أنّها كانت في مخيّم كشفيّ للبنات. كانت تقرأ نسختها المهترئة من مجلة ڤُوغ Vogue، باهتمام شديد.

«ما الذي تفعله هنا بحقّ السماء؟» تساءلتُ. «لا يبدو أنّها تعاني من شيء».

«أتمانعين إن دخنت؟» مالت الدكتور نُولان إلى الخلف في الكرسيّ ذي الذراعين قرب سريري.

أخبرتها أن لا مانع لديّ، فلقد أحببت رائحة الدخان. ظننتُ إن دخنت الدكتورة نُولان، فإنّها ستمكث فترة أطول. كانت تلك هي المرّة الأولى التي تأتي فيها للحديث معي. وحين تغادر سأغرق في الفراغ القديم تماماً.

«أخبريني عن الدكتور غوردن»، قالت الدكتور نُولان فجأةً. «هل أحببته؟»

رمقتُها بنظره حَذِرة. ظننتُ أنّ جميع الأطبّاء متورّطون في الأمر، وأنّه، في مكان ما من المستشفى، وفي زاوية سريّة، ترقد آلةٌ تشبه آلة الدكتور غوردن تماماً، جاهزةٌ كي ترجني لأخرج من جلدي ثانيةً.

«كلاّ»، قلتُ. «لم أُحببه قط».

«هذا مثير للاهتمام. لماذا؟»

«لم يَرُق لي ما كان يفعله بِي».

«ما الذي فعله؟»

أخبرتُ الدكتورة نُولان عن الآلة والوميض الأزرق والرَّج والضوضاء. وفيما كنتُ أحكي لها، غدت هادئةً جداً.

«كان ذلك خطأً»، قالت حينئذٍ. «ليس من المفترض أن تكون الأمور على ذلك النّحو».

حدقتُ فيها.

«إن استُعمِلت كما ينبغي»، قالت الدكتورة نُولان، «فإنّه كالذهاب إلى النّوم».

«سأقتلُ من يخضعني لذلك مجدداً».

قالت الدكتورة نُولان بحزم: «لن تخضعي لأيّة صّعقات كهربائيّة هنا. وإن توجب ذلك»— قالت مُصححةً— «فسأخبركِ بذلك مُسبقاً، وأعدك أنّها ستكون مختلفة عن المرّة السابقة. لماذا؟»— أتمت كلامها— «لأنّ بعض النّاس يحبّونها».

بعد ذهاب الدكتورة نُولان، وجدتُ علبة ثقاب على حافّة النّافذة. لم تكُن علبةً من الحجم العاديّ، ولكن بالغةَ الصّغر. فتحتها، فوجدتُ صفَّ عيدان بيضاء صغيرة، ذات رؤوس ورديّة. حاولتُ إشعال عُودٍ، فانكمش في يدي.

لم أدرك لِمَ تركت لي الدكتورة نُولان مثل ذلك الشيء المُمل. لعلها

أرادت أن تعرف إن كنتُ سأعيدها. وضعتُ علبةَ الثقابِ—اللعبةَ، بحذرٍ، في هُدب بُرنس حمامي الصّوفيّ الجديد. سأخبرها— إن سألتني عنها— أنّني ظننتها مصنوعة من الحلوى، فأكلتها.

- انتقلت امرأة جديدة إلى الغرفة المجاورة لي.

لا بُد أنّها آخر من وصل إلى المستشفى من بعدي، لذا فإنّها لن تعرف مدى تردي حالتي، كما يعلم الآخـرون. فكرت بالدخول إلى حجرتها والتعرُّف إليها.

كانت المرأة مستلقيةً في سريرها وهي ترتدي فستاناً أرجوانيّاً، ينعقد عند عنقها بدبّوس من حجر كريم، ويصل إلى ما بين ركبتيها وحذائها. كان لها شعرٌ أحمر مُصفَّر معقودٌ في شكل كعكة، مثل مُدرّسة متزمتة، ونظارة رفيعة فضيّة الإطار مربوطة بجيب صداريتها بمطاط أسود.

«مرحباً»، بادرتها بالحديث، وأنا جالسة على حافّة السرير. «اسمي إِستِر، ما اسمكِ؟».

لم تحرّك المرأة ساكناً، وظلت تحدق في السقف. شعرتُ بالإساءة. خطر ببالي أن تكون ڤاليري أو شخص آخر قد أخبرها، حين وصلت إلى المستشفى؟ كم أنا غبيّة.

أطلت ممرّضة برأسها من الباب.

«أوه، ها أنـتِ»، قالت لِي. «تزورين الآنسة نوريس Norris. يا للرّوعة!» ثم اختفت ثانية.

لا أعرف كم قضيتُ من الوقت جالسة هناك، أراقب المرأة المتشحة بالأرجوانيّ، متسائلةً إن كانت شفتاها الورديّتان ستنفرجان، وإن انفرجتا،

فماذا ستقولان.

أخيراً، ومن دون أن تتكلم أو تنظر إليّ، أرجحت الآنسة موريس قدميها في فردتيّ جزمتها السوداء، ذات الخِيطان المعقودة، فوق الطرف الآخر من السرير، ثم غادرت الغرفة. ظننتُ أنّها تحاول التخلص منّي بطريقة مهذبة. بهدوء، وعلى بُعد مسافة قريبة، تبعتها عبر الممرّ.

وصلت الآنسة نوريس باب غرفة الطعام ثم تلكأت. وطيلة طريقها إلى غرفة الطعام، كانت تسير بخطىً مضبوطة، واضعةً قدميها وسط أزهار الكُرنب التي جُدِلت بالنّسق الذي حيكت فيه السجادة. انتظرت، برهةً، ثم رفعت قدميها، واحدة تلو الأخرى، فوق العتبة، ومن ثَم إلى غرفة الطعام، كما لو كانت تخطو فوق مَرقَىً غير مرئيٍّ، يرتفع حتى قصبة الساق.

جلست على إحدى الطاولات الدائريّة المغطاة بأغطية كتانيّة وفردت منديلاً فوق حجرها.

«لن يُقدم العشاء قبل ساعة من الآن»، صاح الطباخ من المطبخ.

لكنّ الآنسة نوريس لم تُجِب. أطرقت رأسها بطريقة مهذبة.

سحبتُ كرسيّاً في الجهة المقابلة لها على الطاولة وفردتُ منديلاً. لم نتكلم، لكنّنا جلسنا هناك، يغشانا صمتٌ بالغ الرّفق والحنان، حتى دقّ جرس العشاء عبر الممرّ.

«تمددي»، قالتِ الممرّضةُ. «سأحقنك مرّة أخرى».

تقلبتُ على بطني فوق السرير ورفعتُ تنّورتي. ثم سحبت مناmتي الحريريّة إلى أسفل.

«يا إلهي! ما الذي تحت هذه الثياب؟»

«منامة. حتى لا اضطر إلى ارتداء ثيابي، في كل مرّة، وخلعها من جديد».

أصدرت الممرّضة صوتاً، كالقَرقِ، قصيراً. ثم قالت: «في أيّة جهةٍ؟».

كان ذلك مجرّد دعابة قديمة.

رفعتُ رأسي، ناظرةً إلى مؤخرتي العارية. كانت ثمة رضوض أرجوانيّة وبنيّة وزرقاء، جرّاء الحقن السابقة. بدت الجهة اليسرى أكثر دُكنَةً من اليمنى.

«اليُمنى».

«كما تشائين».

حقنتني الممرّضة، فجفلت، متلذذة بالألم القليل. حقنتني الممرضات ثلاث مرّات كل يوم؛ وكُنّ يمنحنني، عقب كل حقنة، كوباً من عصير فاكهة مُحلى، ثم يقفن بالجوار، يرقبنني، وأنا أشربه.

«أنتِ محظوظة»، قالت ڤاليري. «ها أنتِ تخضعين للعلاج بالإنسولين».

«لا شيء يحدث».

«أوه، سيحدث. لقد جرّبته. أخبريني حين تشعرين بردة الفعل».

بَيدَ أنّني لم أشعر بأيّ رد فِعل أبداً. كان وزني يزداد ويزدادُ، ليس إلاّ. لقد ضاقت عليّ ثيابي الفضفاضة التي اشترتها لي أمي، وحين نظرت إلى بطني الممتلئة ووركيّ العريضين، حمدتُ الله أنّ السيّدة غوينا لم ترني على هذه الشاكلة، لأنّني بدوت كحبلى.

«أرأيتِ نُدبَتي؟»

أزاحت ڤاليري الشعر الأسود المُدلى على جبينها، فظهرت علامتان شاحبتان،

واحـدة في كل طرف من جبينها، كما لو كانت بقرنين، ذات يـوم، ثم استأصلتهما.

كنّا نمشي سويّة، رفقة المعالج الرّياضيّ، في حدائق المصّحة. أحظى الآن بامتيازات التنزُّه أكثر من السابق. لم يسمحوا للآنسة نوريس بالخروج أبداً.

قالت ڤاليري أنّه لا يتوجب على الآنسة موريس أن تكون في [جناح] كَاپْلان، بل في بنايةِ الحالات المستعصية، والتي يطلقون عليها اسم وَاي مَارك Wymark.

«أتدرينَ ما هاتان النُّدبتان؟»، قالت ڤاليري بإصرار. «كلاّ. ما هما؟»

«أُجريت لي عمليّة جراحيّة في الفصّ الأماميّ للدماغ».

نظرتُ برهبةٍ إليها، مُعجبةً، لأول مرّة، بهدوئها البارد الدائم.

«كيف تشعرين؟»

«بخير. لم أعُد غاضبة. كنتُ، في السابق، غاضبة دوماً. كنتُ في وَاي مَارك، والآن في كَاپْلان. أستطيع الذهاب إلى البلدة الان، أو إلى التسوُق، أو لمشاهدة فيلم رفقة ممرّضة ما».

«ماذا ستفعلين حين تغادرين؟»

«أوه، لن أغادر»، ضحكت ڤاليري. «أحبّ هذا المكان».

«يوم المغادرة!»

«لمَ يتوجب عليّ أن أغادر؟»

كانت الممرّضة تفتح الأدراج وتغلقها بسرور، طاوية أمتعتي في حقيبة سوداء عاديّة.

لا بُد أنّهم سينقلونني إلى وَاي مَارك.

«أوه، إنّهم ينقلونك إلى الجانب الأماميّ من البناية»، قالت الممرّضة مبتهجةً. «ستحبّين المكان. فثمة شمسٌ كثيرة هناك».

وحين خرجنا إلى الممرّ، رأيتُ الآنسة نوريس تنتقل هي الأخرى. كانت ممرّضة شابّة ومرحة، على شاكلة التي ترافقني، تقفُ بباب غرفتها، وتساعدها على ارتداء معطف أرجوانيّ ذي ياقة من فرو سنجاب أعجف.

قضيت الساعة تلو الأخرى مرابطة بجانب سرير الآنسة نوريس، رافضة اللهو والتنزّه ومباريات تنس الرّيشة، وحتى مشاهدة الأفلام الأسبوعيّة، التي استمتعت بها، والتي لم تشاهدها الآنسة نوريس أبداً، كي أتملى حلَقة شفتيها الصّغيرة الشاحبة الصّامتة.

فكرتُ كم سيكون الأمر مثيراً إن فتحت فمها ونطقت، وكيف سأهرع، حينئذٍ، إلى الممرّ وأخبر الممرّضات. سَيُكِلنَ لي المديح لتشجيعي الآنسة نوريس، وقد يُسمح لي بامتيازات التسوُق ومشاهدة الأفلام في وسط البلد، وبذلك يكون هروبي أكيداً.

ولكنّ الآنسة نوريس لم تنبس ببنت شفة طيلة ساعات سهري عليها.

«إلى أين يأخذونكِ؟»، سألتُها.

لمست الممرّضة مرفق الآنسة نوريس، فاهتزّت كما لو كانت دمية بعجلات.

«إنّها ذاهبة إلى وَاي مَارك»، أخبرتني الممرّضة بصوت خفيض. «أخشى ألاّ تكون الآنسة نوريس تستجيب للعلاج مثلك».

شاهدتُ الآنسة نوريس وهي ترفع قدماً، ثم الأخرى، فوق المَرقى

اللامرئيّ الذي سد عتبة الباب الأماميّة.

«لديّ مفاجأة لكِ»، قالت الممرّضة وهي تدخلني إلى غرفة مشمسة في الجناح الأماميّ الذي يُطل على ملاعب الغولف الخضراء. «شخصٌ تعرفينه حل هنا اليوم».

«شخص أعرفه؟».

ضحكت الممرّضة. «لا تنظري إليّ هكذا. ليسَ شرطيّاً». حينئذٍ— وعندما لم أقُل شيئاً— أضافت: «تقولُ إنّها صديقة قديمة لكِ. تقيمُ في الغرفة المجاورة. لمَ لا تزورينها؟»

ظننتُ الممرّضة تمازحني، وأنّني إن طرقتُ باب الغرفة المجاورة فلن أسمع جواباً. وإن دخلتُها، فسأجد الآنسة نوريس تفك أزرار معطفها الأرجوانيّ بياقته التي من فرو سنجاب أعجف، وهي مستلقية في سريرها، وفمها يتفتح من مزهريّة جسدها الهادئة كبرعم ورد.

ورغم ذلك، خرجتُ وطرقتُ باب الغرفة المجاورة.

«تفضلي!» نادى صوتٌ مَرِح.

فتحتُ الباب قليلاً، وحدقتُ في الغرفة. كانت الفتاة الضخمة، التي تشبه الفرس، ترتدي بنطالاً مخصّصاً لركوب الخيل، جالسةً قرب النّافذة وتنظر إليّ بابتسامة عريضة.

«إسترِ!» قالت لاهثةً، كما لو ركضت لمسافة طويلة ثم تعثرت. «كم جميل أن أراكِ. أخبروني أنّكِ هنا».

«جوَان؟» قلتُ بتردد، ثم نطقت الاسم مرّة أخرى، وقد انتابتني مشاعر الاضطراب وعدم التصديق.

تبسمت جْوَان، كاشفة عن أسنانها الكبيرة اللامعة الجليّة.

«إنّها أنا. ظننتكِ ستفاجئين».

(16)

كانت غرفة جوَان، بخزانتها ومكتبها وطاولتها وكرسيّها وملاءتها البيضاء وحرف سِي C الكبير الأزرق الذي عليها، مشابهة تماماً لغرفتي. خطر ببالي أن تكون جْوَان، حين سمعت بوجودي هنا، قد استأجرت غرفة في المصحة متظاهرة بالمرض، على سبيل الدعابة، ليس إلاّ. لعل هذا ما يفسر إخبارها الممرّضة أنّني صديقتها. كانت علاقتي بجوان سطحيّة، لم تتجاوز حدوداً معيّنة.

«كيف وصلتِ إلى هنا؟» جلستُ متكورةً في سرير جوَان.

«لقد قرأتُ عنكِ»، قالت جوَان.

«ماذا؟»

«قرأتُ عنكِ، فلذتُ بالفرار».

«ماذا تقصدين؟» قلتُ بحزم.

«حسناً»، مالت جوان إلى الوراء في كرسيّ المصحة ذي الذراعين المُزيّن بقماش قطنيّ مُورَد، «كنتُ أشتغل، خلال الصّيف، لدى رئيس أخويّة— على شاكلة الماسونيّين، كما تعلمين، ولكنّها ليست ماسونيّة— فشعرتُ بألم فظيع. كانت لديّ أورام ملتهبة في مفاصل أصابع قدميّ، فلم أستطع المشي تماماً؛ ارتديت، في آخر أيّامي هناك، جزمة مطاطيّة لمزاولة العمل، عوضاً عن الحذاء العاديّ، ولكِ أن تتخيّلي أثر ذلك على معنويّاتي . . . .»

خطر ببالي إما أن تكون جوان مجنونة— لارتدائها جزمة مطاطيّة

أثناء العمل— أو أنّها كانت تحاول معرفة مدى جنوني، إن صدق المرء كل ما تقوله. ناهيك عن أنّ أورام المفاصل لا تصيب سوى الطاعنين في السن. قرّرت التظاهر أنّها مجنونة، وأنّني كنتُ أُسايرها، ليس إلاّ.

«أتكدر حين لا أنتعل حذاء عاديّاً»، قلتُ بابتسامة غامضة. «هل آلمتك قدماك كثيراً ؟».

«جداً. كما كان رئيسي— الذي انفصل للتو عن زوجته، ولم يستطع الحصول على الطلاق، لأنّ ذلك ضد مبادئ الأخويّة— يلاحقني في كل مكان ويضايقني، وكلما حرّكت قدميّ كان الألم عظيماً، وحين كنتُ أجلس إلى مكتبي، كانت المضايقات تتوالى، كما لو أنّه يريد أن يتحرّر مما يُثقل صدره . . . .».

«لماذا لَم تستقيلي؟»

«أوه، لقد استقلت، إلى حد ما. تغيّبت عن العمل في إجازة مرضيّة. لم أبارح غرفتي. ولم أرَ أحداً. حشرت الهاتف في أحد الأدراج، ولم أُجب على أيّة مكالمة . . . .»

«ثم أرسلني طبيبي إلى طبيب نفسانيّ في هذا المستشفى الكبير. كان موعدي معه في الثانية عشرة ظهراً، وكنتُ في حالة مُزرية. أخيراً، وفي الثانية عشرة والنّصف، جاءت موظفة الاستقبال، وأخبرتني أنّ الطبيب قد غادر لتناول الغداء. ثم سألتني إن كنت أود الانتظار، فقلتُ لها نعم».

«وهل عاد؟». بدت القصّة أبعد من أن تختلقها جوان، لكنّني تركتها تسترسل، لأرى ما تسفر عنه الأحداث.

«أوه، بالطبع. كنتُ على وشك أن أقتل نفسي. قلتُ: «إن لم يقُم هذا

الطبيب بعمله، فستكون النّهاية». حسناً، قادتني موظفة الاستقبال عبر ممرّ طويل، وحين وصلنا إلى الباب، استدارت نحوي قائلةً: «لا تمانعين إن رافق الطبيب بضعة طُلاّب، أليس كذلك؟». ما عساي أن أقول؟. «أوه، كلاّ»، قلتُ لها. دخلتُ، فوجدتُ تسعة أزواج من العيون تحدق فِيّ! تسعة أزواجٍ! ثماني عشرة عيناً منفصلة.

«لو أخبرتني موظفة الاستقبال تلك، أنّه سيكون في الغرفة أحد عشر شخصاً، لغادرتها على الفور. لكنّ الوقت تأخر على فعل أيّ شيء. حسناً، كنتُ، في ذلك الوقت، أرتدي معطفاً من فرو . . . .»

«في آب؟»

«أوه، كان يوماً من تلك الأيّام الباردة الرّطبة، وكان أول طبيب نفساني أتردد عليه— تعلمين كيف يكون الأمر. على أيّة حال، أخذ الطبيب يحدق في معطف الفرو طيلة حديثي إليه، وكان بإمكاني أن أرى بسهولة ما الذي دار في خلده، حين سألته أن أدفع له الرَّسم المخفّض، الخاصّ بالطلبة، بدلاً من الأجر كاملاً. كنت أستطيع رؤية علامات الدولار في عينيه. حسناً، أخبرته أنّني لا أعرف شيئاً عن أيّ شيء: عن أورامي، وهاتفي الذي في الدُرج، وكيف أردت قتل نفسي. حينئذٍ، سألني أن أنتظر في الخارج، فيما ناقش حالتي مع الآخرين، وحين دعاني مرّة أُخرى إلى الغرفة، أتعرفين ماذا قال لي؟».

«ماذا؟»

«شبك يديه، ثم نظر إليّ قائلاً: «آنسة غِلِنغ، قرّرنا أن تستفيدي من برنامج العلاج الجماعيّ».

«العلاج الجماعيّ؟» لا بُد أنّ صوتي بدا مصطنعاً كصدى غرفة، لكنّ

جوان لم تنتبه.

«هذا ما قاله. هل تتخيّلينني راغبة في قتل نفسي، ومِن ثَم أتحدث عن ذلك مع غرباء لا يختلف معظمهم عنّي . . . .»

«جنونٌ ذلك». شعرتُ أنّي منهمكة في الأمر رغماً عنّي. «حتى إنّه ليس فعلاً إنسانيّاً».

«هذا ما قلته بالضبط. ذهبت مباشرة إلى المنزل وكتبت رسالة إلى ذلك الطبيب. كتبتُ له رسالة جميلة أشرح فيها كيف أنّ شخصاً مثله غير جدير بمساعدة المرضى . . . .»

«هل تلقّيت جواباً ؟»

«لا أدري. كان ذلك في اليوم الذي قرأت فيه عنكِ».

«ماذا تقصدين؟»

«أوه!»— قالت جوان— «كيف اعتقدت الشرطة أنّك ميّته وكل تلك الحكاية. أحتفظ بكومة من القصاصات في مكان ما». سحبت نفسها من السرير، فزكمت أنفي نشقة هواء قويّة، تشبه رائحة الخيل. كانت جوان بطلة في القفز بالخيول عن الحواجز في مهرجان الفروسيّة gymkhana السنويّ بالكليّة، فتساءلت إن كانت تنام في إسطبل.

فتشت جوان حقيبتها المفتوحة وعادت بحفنة من قصاصات الجرائد.

«هاكِ، ألقِ نظرةً».

أظهرتِ القصاصة الأولى صورة فوتوغرافيّة مُكبّرة لفتاة ترتسمُ حول عينيها ظلالٌ سوداء، وتكشيرةٌ تلعو شفتيها السوداوين. لم أستطع تخيُّل أين أُلتقطت تلك الصّورة حتى لاحظتُ القرطين والقلادة، التي تحمل علامة

بلُومنغدَال، وهي تومض بأنوار ساطعة، كأنّها نجوم مزيّفة.

طالبةٌ جامعيّة مفقودةٌ
أُمٌ قلقة

تحدثت المقالة التي في أسفل الصّورة عن فتاة اختفت من منزلها في 17 آب، وهي ترتدي تنّورة خضراء، مخلفة وراءها رسالة قصيرة تقول فيها إنها خرجت في نزهة طويلة. وحين لم تَعُد الآنسة غرينوود بحلول منتصف الليل— قالتِ المقالةُ— اتصلت أمها بشرطة البلدة.

أظهرتِ القصاصة الثانية صورة لي مع أمي وأخي، ونحن جالسون، مبتسمين، في ساحة منزلنا الخلفيّة. لم أستطع تخمين من التقط تلك الصّورة، حتى لاحظتُ أنّني كنت مرتدية بنطالاً قطنيّاً، وأنتعل حذاءً خفيفاً، فتذكرت أنّها الأشياء التي كنتُ أرتديها وأنتعلها خلال صيفِ قَطْف السبانخ، وكيف أنّ دُودُو كَنوَاي كانت قد مرّت بنا، ذات أصِيل قائظٍ، والتقطت بضع صور عائليّة لنا، نحن الثلاثة. طلبت السيّدة غرينوود نشر هذه الصّورة على أمل أن تُحفّز ابنتها على العودة إلى المنزل.

قلقٌ حول فقدان أقراص منومة مع فتاة

صورةٌ معتمة، في منتصف الليل، لمجموعة من النّاس يترقرق القمرُ

على وجوههم في غابة ما. بدا الذين في نهاية الصّف غريبي الأطوار، وقصيري القامة على نحو غير عاديّ، حتى تنبّهت إلى أنّهم ليسوا بشراً، بل كلاباً. أُستخدمت الكلاب البوليسيّة في البحث عن فتاة مفقودة. يقول رقيب الشرطة بيل هِندلِي Bill Hindly: لا تبعث الأمور على الرّاحة.

العثور على فتاة لا تزال على قيد الحياة!

أظهرتِ الصّورة الأخيرة الشرطة وهي ترفع بطانيّة طويلة مُرتخية يتدلى من أحد جانبيها رأسُ كُرنب، بلا ملامح، في مؤخرة سيّارة الإسعاف. ثم تحدثت المقالة كيف سمعت أُمي، وهي تغسل في القبو، أنيناً خافتاً ينبعث من فجوة مهجورة . . . .

وضعتُ القصاصات على البياض الممتد للسرير.

«احتفظي بها»، قالت جوان. «يتوجب عليك لَصْقها في سجلِ قصاصات».

طَويتُ القصاصات وزلقتها في جيبي.

«لقد قرأتُ عنكِ»، واصلت جْوان حديثها. «ليس عن الطريقة التي عثروا بها عليك، وإنّما عن كل ما يتعلق بذلك، ثم جمعت كل نقودي وركبت أول طائرة إلى نيو يورك».

«لَم نيو يورك؟».

«أَوه، ظننتُ أنّ قتلي لنفسي سيكون أسهل في نيو يورك».

«ماذا فعلتِ؟»

تبسمت جوان بخجل، ثم مدت يديها، رافعةً راحتيها إلى الأعلى. ومثل سلسلة جبال مُصغّرة، ظهرت آثار كدمات حمراء كبيرة عبر لحم رسغيها الأبيض.

«كيف فعلتِ ذلك؟» خطر ببالي، بدايةً، أنّ شيئاً مشتركاً بيني وبين جوان.

«دفعتُ رسغيّ عبر نافذةِ رفيقةِ غرفتي».

«أيّة رفيقة؟»

«رفيقتي القديمة، أيّام الكليّة. كانت تعمل في نيو يورك، ولم أستطع التفكير في مكان آخر أقيم فيه، ناهيك عن أنّ مالي قد أوشك على النّفاد، فقصدتها كي أقيم معها. وجدني والداي هناك— كانت قد كتبت إليهما قائلةً إنني كنت أتصرّف بسخافة— فركب أبي الطائرة، على الفور، وأعادني إلى البيت».

«لكنّكِ الآن على ما يرام». قلتُ على نحو تقريريّ.

نظرت إليّ جوان بعينيها اللتين بلون الحصى الرّماديّ. «أعتقدُ ذلك»، قالت. «ألستِ كذلك؟»

غرقتُ في النّوم بعد وجبة العشاء.

أيقظني صوت عالٍ. سيّدة بَانستَر Bannister، سيّدة بانستر، سيّدة بانستر، سيّدة بانستر. وحين صحوتُ، وجدتُني وقد كنت أضرب عمود السرير بيديّ وأنادي. هرعت السيّدة بانستر، الممرّضة الليليّة، إلى الغرفة، بملامحها الحادة المُشمئزّة. .

«أنتِ هناك، لا نريدكِ أن تكسري هذه».

ثم فكت حزام ساعة يدي.

«ما الأمر؟ ماذا جرى؟»

اختلج وجه السيّدة بانستر بابتسامة سريعة. «لقد تعرّضت إلى ارتِكاسٍ».

«ارتكاس؟»

«نعم، كيف تشعرين؟»

«ينتابني شعور غريب. خفيفة، أحلق في الهواء، على نحوٍ ما».

ساعدتني السيّدة بانستر على الجلوس.

«ستكونين أفضل الآن. ستكونين أفضل في التوِ والحال. أترغبين بشيء من الحليب الساخن؟»

«نعم»

وحين رفعت السيّدة بانستر الكوب إلى شفتيّ، نفختُ على الحليب الساخن، وهو ينساب على لساني إلى جوفي. كنت أتلذذ بتذوقه، كما يتذوق الطفل حليب أمه.

«أخبرتني السيّدة بانستر أنّكِ تعرّضت إلى ارتكاس». أجلست الدكتور نُولان نفسها على الكرسيّ ذي الذراعين قرب النّافذة، وأخرجت علبة ثقاب بالغة الصّغر. بدت العلبة كالتي خبّأتُها في هدب برنس حمامي تماماً، فخطر ببالي أن تكون إحدى الممرّضات قد عثرت عليها هناك، وأعطتها إلى الدكتورة نُولان من دون أن تخبر أحداً.

حكت الدكتورة نُولان عود ثقابٍ على طرف العلبة. وثب لهيب

أصفر حام، فراقبتها وهي تشعل به سيجارتها.

«تقول السيّدة بِي .B إنك شعرت بتحسُن».

«لبرهة. والآن كما كنتُ في السابق».

«لديّ أخبار لكِ».

انتظرتُ. قضيتُ كل صباحات تلك الأيّام التي لا أذكر عددها، وكل آصالها ومساءاتها — مُلتفّةً بملاءتي البيضاء على كرسيٍّ طويل، قابل للطيّ، في المُختَلَى المُظلَل، متظاهرة بالقراءة. راودتني فكرة غامضة أنّ الدكتورة نُولان تمنحني بضعة أيّام، ومِن ثَم ستقول ما قاله الدكتور غوردن: «آسفة، لا يبدو أنّك تتحسنين، من الأفضل أن تخضعي للعلاج بالصّدمة الكهربائيّة . . . .»

«حسناً، أَلا تُريدين أن تعرفيها؟»

«ماذا؟» قلت بصوت خافت، ثم هيّأتُ نفسي.

«لن تستقبلي زواراً لفترة ما».

حدقت، مندهشةً، في الدكتورة نُولان. «حسناً، هذا رائع».

«ظننتُكِ ستُسرّين لذلك». وابتسمت.

ثم نظرتُ — ونظرت الدكتورة نُولان — إلى سلة المهملات التي قرب مكتبي. كانت تظهر من السلة البراعمُ القانية لمجموعة ورود ذات سيقان طويلة.

في ذلك الأصيل، جاءت أمي لزيارتي.

كانت أمي واحدة من طابور زوار طويل: مُستخدِمتي السابقة، والسيّدة العضوة بالجمعيّة العلميّة المسيحيّة، والتي مشيت معي في المرجة، وحدثتني عن السديم الذي ينبعث من الأرض في الإنجيل، وأنّ السديم كان خطأ، وأنّ مشكلتي تكمن في إيماني بالسديم، وحين أتوقّف عن الإيمان به،

فإنّها ستنتهي وأدرك أنّني كنت دائماً بخير، إضافة إلى مُدرّس الإنجليزيّة في المدرسة الثانويّة، والذي جاء محاولاً تعليمي لعبة تركيب الكلمات، معتقداً أنّها قد تستعيد اهتمامي بالكلمات، وفيلومينا غوينا التي لم تكن راضية عما يفعله الأطباء، فظلت تقول لهم ذلك.

ضقت ذَرعاً بتلك الزّيارات.

سأكون جالسة في المُختلى المُظلَل، أو في غرفتي، فتظهر ممرّضة مبتسمة معلنة قدوم هذا الزّائر أو ذاك. وذات مرّة، أحضروا قس الكنيسة المُوحِدة، والذي لم يَرُق لي بتاتاً. كان في غاية التوتُر طيلة الوقت، وأستطيع القول إنه ظنّ أنّني كنت مجنونة تماماً، لأنّني آمنت بالجحيم، وكيف يتوجب على أُناس بعينهم— مثلي— أن يعيشوا في الجحيم قبل أن يموتوا، كي لا يقاسوا عذابه بعد الموت، لأنّهم لا يؤمنون بالحياة بعد الموت، وأنّ كل ما يؤمن به المرء يصيبه بعد موته.

كرِهت تلك الزّيارات، لأنّني آمنت أنّ جل ما يفعله الزّائرون هو المقارنة بين بدانتي وشعري اللزج، وما كنتُ عليه في السابق، وبين ما يريدونني أن أكون عليه، وكنت أعرف أنّهم يغادرون مرتبكين تماماً.

لو يتركوني لشأني، لنعمت ببعض السكينة.

كانت أمي هي الأسوأ. لم تنهرني أبداً، لكنّها لم تكف عن التوسل إليّ، بوجه حزين، لأخبرها عن الخطأ الذي اقترفته. قالت إنّها متيقّنة أنّ الأطبّاء يظنّون أنّها اقترفت شيئاً خطأً، لأنّهم سألوها أسئلة كثيرة بخصوص تعليمي أصول استخدام الحمام toilet training، وكنتُ قد حظيت بتربية مثاليّة، منذ نعومة أظفاري، ولم أكُن مصدر إزعاج لها أبداً.

في ذلك الأصيل، جاءتني أمي ببعض الزّهور.

«احتفظي بها ليوم جنازتي»، قلتُ.

تغضن وجهها، وبدت على شفير البكاء.

«ولكن— يا إِستِر— أتذكرين أيّ الأيّام اليوم؟»

«كلاّ».

أظنّه يوم القديس ڤالنتاين.

«إنّه يوم ميلادك».

حينها، ألقيتُ الزّهور في سلة المهملات.

«كان تصرّف أمي سخيفاً»، أخبرتُ الدكتورة نُولان.

أطرقت الدكتورة نُولان. وكأنّها تعلم ما أعني.

«إنّي أكرهها»، قلتُ، وانتظرتُ الصّفعةَ.

لكنّ الدكتورة نُولان اكتفت بالتبسُم، كما لو أنّ شيئاً ما قد أدخل السرور عليها، ثم قالت: «أظنُّكِ كذلك».

(17)

«أنتِ فتاة محظوظةٌ اليوم».

أزاحت الممرّضة الشابّة صينيّة الإفطار من أمامي، لتتركني ملتفّة بملاءتي البيضاء، كمسافرة تتنشق نسائم البحر على ظهر سفينة ما.

«لِمَ أنا محظوظة؟»

«حسناً، لستُ أدري إن توجب عليكِ معرفة ذلك الآن، لكنّك ستنتقلين، اليومَ، إلى بِلسَايز Belsize». نظرت الممرّضة إليّ منتظرة ردة فعلي.

«بلسَايز»، قلتُ. «لا يمكنني الذهاب إلى هناك».

«لِمَ؟».

«لستُ مستعدة. لستُ على خير ما يُرام»

«بل على خير ما يرام. لا تقلقي، لو لم تكوني بخير لما نقلوك إلى هناك».

حاولت، بعد مغادرة الممرّضة، أن أتفكر في سرّ هذه الخطوة الجديدة التي قامت بها الدكتورة نولان. ماذا كانت تحاول أن تبرهن؟ لم يتغيّر شيء. لم يتغيّر شيء. وكان بِلسَايز أفضل الأماكن قاطبة. فَمِنهُ عاد النّاس إلى أعمالهم ومدارسهم وبيوتهم.

لن تكون جْوَان في بِلسَايز. جْوَان بكتب الفيزياء ومضارب الغولف وتنس الرّيشة وصوتها الهامِس. جْوَان وهي تُعيِّن الحدَ الذي يفصلني عمن شارفوا على الشفاء. ومنذ أن غادرت [جناح] كَابلان، وأنا أتعقّب أخبار

تطور حالتها عبر المصادر السريّة للمعلومات التي تحتفظ بها المصحة.

حظيت جوان بامتيازات التنزّه مشياً على الأقدام، وامتيازات التسوُق والذهاب إلى البلدة. كانت أخبارها شديدة الوطأة عليّ، رغم أنّني قد استقبلتها بسعادة ظاهريّة. كانت جوَان الصِنو المُشرق لأفضل أحوال ذاتي السابقة، والتي وُجدت لتتعقّبني وتعذبني.

ربّما تكون جوَان قد ذهبت حين أصل إلى بِلسَايز.

على الأقـل، يمكنني أن أنسى، في بِلسَايز، العلاج بالصّعقات الكهربائيّة. تُعالَج الكثير من النّساء، في كَابْلان، بالصّعقات الكهربائيّة. كنتُ أستطيع معرفة التي تتعرّض لذلك حين لا تصلها صينيّة الإفطار كباقي المرضى. كُنّ يتلقّين العلاج أثناء إفطارنا في غرفنا، ومِن ثَم يأتين إلى الرّدهة، هادئات ومنهكات، تقودهنّ الممرّضات، مثل طفلات، لتناول إفطارهنّ هناك.

كل صباح، وحين أسمع صوت الممرّضة، وهي تطرق باب الغرفة حاملة الصّينيّة، أشعر بالارتياح، حيث أدرك أنّني خارج دائرة الخطر. لم أر كيف تستطيع الدكتورة نُولان معرفة متى يخلد المرء إلى النّوم أثناء الصّعقة الكهربائيّة إن لم تكُن قد تعرّضت لذلك فعلاً. كيف لها أن تعرف إن كان المرء يتظاهر بالنّوم، فيما هو يشعر بالشحنات الكهربائيّة والضوضاء، في داخله، طيله الوقت؟

تعالى صوت موسيقى بيانو في أقصى الممرّ.

جلستُ هادئة، أثناء العشاء، مصغية لثرثرة نساء بِلسَايز. كُنّ يرتدين ثيابهنّ وفق الموضة، ويضعن المكياج بعناية بالغة، وكان بعضهنّ متزوجات. كان البعض قد ذهب للتسوق في البلدة، فيما ذهب البعض الآخر لزيارة

الأصدقاء. لم يكففن، طيلة العشاء، عن تكرار تلك الدعابات الخاصّة بهنّ.

«سأتصل بجاك»، قالت امرأة تُدعى دِيدِي DeeDee، «لكنّني أخشى ألاّ يكون في البيت. ورغم ذلك، فإنّني أعرف أين أتصل به. حسناً».

ضحكت المرأة الشقراء القصيرة الرّشيقة التي تجلس على طاولتي. «قابلتُ الدكتور لُورِنغ Loring حيث أردت أن أقابله اليوم». جحظت بعينيها الزّرقاوين المحدقتين كدمية صغيرة. «لا أمانع في استبدال پيرسي Percey العجوز بموديل جديد».

وفي الطرف الآخر من الغرفة، كانت جوَان تلتهم شرائح اللحم المعلب والطماطم المشويّة بشهيّة كبيرة. بدت مرتاحة تماماً بين أولئك النّسوة، فعاملتني بفتور، وبشيء من السخرية، كما لو كنت أقل شأناً منها وبالكاد تعرفني.

ذهبت إلى النّوم بعد العشاء مباشرة، لكنّني سمعت موسيقى بيانو، فتخيّلت جْوَان وَدِيدي وَلُوبِيل Loubelle— المرأة الشقراء— وبقيّة النّسوة، وهنّ يضحكن ويتهامسن من وراء ظهري، في غرفة المعيشة. لا بُد أنّهنّ يعبّرن عن مدى استيائهنّ من وجود أمثالي في بِلسَايز، وأنّ وَاي مَارك هو مكاني الطبيعيّ.

قرّرت أن أضع حداً لحديثهم البذيء.

خطوتُ عبر الممرّ— والملاءة تتهدل حول كتفيّ، كدثارٍ— نحو الأضواء والجلبة المُبتهجة.

أنصتُ إلى دِيدي، بقيّةَ الليل، وهي تعزف بعض أغانيها على البيانو الكبير، فيما كانت الأخرياتُ جالسات يلعبن البرِيدج bridge ويثرثرن، كما لو كُنّ في مهجع الكليّة، غير أنّ أغلبهنّ قد تجاوز سنّ الدراسة في الكليّة بعشر

سنين.

كانت إحداهنّ، وهي امرأة ضخمة، فارعة الطول، ذات شعر رماديّ، وصوتٍ جهوريّ رنّان، تُدعى السيّدة صافيج Savage، قد درست في ڤاسار Vassar. أستطيع القول إنها كانت سيّدة مجتمع، لأنّها لا تتكلم سوى عن الفتيات اللواتي يظهرن لأول مرّة في الحفلات الاجتماعيّة. بدا أنّ لها بنتين، أو ثلاثاً، كُنّ على وشك الظهور– في تلك السنة– في حفلة اجتماعيّة، لكنّها خرّبت الحفل حين التحقت بالمصحة.

كان لِديدي أغنيّة تدعى «بائع الحليب»، وكان الجميع لا يكفّون عن القول بضرورة إذاعتها، لأنّها ستحقّق نجاحاً هائلاً. كانت يداها تعزفان لحناً قصيراً على المفاتيح، يشبه وقع حوافر فرس تمشي الهوينى، ثم لحناً آخر، يشبه صفير بائع الحليب، ثم لحنين معاً.

«هذا رائع»، قلت بنبرة وديّة.

كانت جوَان تتكئ على طرف البيانو، تتصفّح عدداً جديداً من إحدى مجلات الموضة، وَدِيدي تبتسم إليها كما لو تشاطرها سرّاً ما.

«أوه، إِسترِ»، قالت جْوان حينئذ، وهي تحمل المجلة، «أليست هذه أنتِ؟»

توقّفت دِيدي عن العزف. «دعيني أرى». أخذت المجلة، وتفرّست في الصّفحة التي أشارت إليها جوان، ثم نظرت إليّ.

«أوه، كلاّ»، قالت ديدي. «بالتأكيد كلاّ». نظرت إلى المجلة، ومن ثَم إليّ. «أبداً!»

«أوه، لكنّها إِسترِ، أليست كذلك، إِسترِ؟»، قالت جوان.

تدانت لُوبِيل والسيّدة صلفيج. متظاهرةً بمعرفة ما جرى، رافقتهما إلى البيانو.

أظهرت صورة المجلة فتاةً بثوب سهرة، بلا حمالتَي كتف، من قماشٍ زَغِب أبيض، تكاد تنفلق من الضحك، رفقةَ مجموعة كبيرة من شبّانٍ يحفّون بها من كل صوب. كانت الفتاة تمسك كأساً مترعة بشراب شفّاف، وبدا أنّها تحدق، من فوق كتفيّ، في شيءٍ واقف خلفي، إلى يساري قليلاً. فجأة، شعرتُ بأنفاس خافتة تلفح رقبتي، فاستدرتُ.

كانت الممرّضة الليليّة قد دخلت إلى الغرفة— من دون أن يشعر بها أحد— على نعليها المطاطين الخفيفين.

«لا تمزحي»، قالت، «أليست أنت فعلاً؟».

«كلاّ، ليست أنا. جوان مخطئة. إنّها شخص آخر».

«أوه، قولي إنّها أنتِ! صاحت ديدي.

لكنّني تظاهرت أنّني لم أسمعها، فاستدرتُ مبتعدة.

ثم ناشدت لُوبِيل الممرّضةَ لتكون رابعتهم في لعبة البريدج، فقرّبتُ كرسيّاً لأشاهد اللعب، رغم أنّني لم أكُن أفقه شيئاً عن البريدج، إذ لم يكن لديّ وقت كي أتعلمها خلال سنوات الكليّة، كما تفعل كل الفتيات الثريّات.

حدقتُ في الوجوه المسطحة لملوك أوراق لعبة البوكر وملكاتها وأولادها، وأنصت إلى الممرّضة وهي تحكي عن حياتها الصّعبة.

«أنتنّ، أيّتها السيّدات، لا تعرفن كيف تكون الحياة حين يعمل المرء في وظيفتين»، قالت. «في الليل أكون هنا، أراقبكنّ . . . .»

قهقهت لُوبِيل. «أوه، نحن بصحة جيّدة. نحن أفضل من في المجموعة،

وأنت تعلمين ذلك».

«أوه، أنتِّ بخير». مرّرت الممرّضة علبة من لبانٍ بمذاق النّعناع السنبليّ، ثم سحبت قطعة ورديّة من غلافها الفضيّ وتناولتها. «أنتِّ بخير، إنّهم أولئك المغفّلون، في المستشفى العموميّ، من يقضون مضجعي».

«هل تعملين في المكانين معاً؟» سألتُ باهتمام مفاجئ.

«بالطبع». رمقتني الممرّضة بنظرة، فأدركتُ أنها تظنّ أن لا مكان لي في بِلسَايز أبداً. «لن تطيقي لحظةً واحدةً هناك، سيّدة جيين Jane».

استغربت حين نادتني الممرّضة بالسيّدة جيين، وهي التي تعلم اسمي الحقيقيّ جيّداً.

«لماذا؟» أكدت عليها.

«أوه، ليس مكاناً لطيفاً، كهذا المكان الذي هو ناد ريفيّ اعتياديّ. لا شيء هناك. لا علاج بالعمل يمكن الحديث عنه، ولا تنزُّه . . . .»

«لماذا لا يسمحون بالتنزُّه؟»

«ليس هناك ما يكفي من المُوَ . . . ظَفِـ . . . ين». حاولت الممرّضة الغش في اللعب فهمهت لُوبِيل.

«صدقنني، أيّتها السيّدات، حين أجمع ما يكفي من المال لشراء سيّارة، سأترك العمل هناك».

«وهل ستتركين العمل هنا أيضاً؟»، أرادت جوان أن تعرف.

«بالطبع». سأكتفي بالحالات الخاصّة فقط. حين أشعر بالرّغبة في ذلك . . . .»

حينئذ، توقّفت عن الاستماع إليهنّ.

شعرتُ أنّ الممرّضة قد تلقّت تعليمات بإظهار البدائل المتاحة أمامي. إما أن أتعافى، أو أتهاوى، عميقاً، عميقاً، عميقاً، كنجم محترق، من بِلسَايز إلى كابلان إلى وَايمَارك، ومن ثَم، في نهاية المطاف — بعد أن تيأس الدكتورة نُولان والسيّدة غوينيا— إلى مستشفى الدولة المجاور.

ضممت البطانيّة حولي، ودفعت الكرسيّ إلى الوراء.

«أتشعرين بالبرد؟» سألت الممرضة بصلافة.

«نعم»، قلتُ، وأنا أمضي عبر الممرّ. «إنّي أتجمد».

استيقظتُ دافئةً وهادئة في شرنقتي البيضاء. كان شعاع شمس شتويّ شاحب قد التمع في المرآة، وعلى الكؤوس التي فوق الخزانة الخفيضة، وعلى مقابض الأبواب المعدنية. كانت تتناهى، عبر الممر، قرقعة الصباح الباكر التي تحدثها الخادمات في المطبخ، وهُنّ يهيّئن صينيات الإفطار.

سمعتُ الممرضة وهي تطرق الباب المجاور لي، في الطرف القصيّ من الممر. دوى صوت السيّدة صافيج النّاعس، فدخلت الممرضة إلى غرفتها حاملة الصينيّة المُصلصلة. فكرتُ، تعتريني رعشة بهجة ممتعة، بإبريق القهوة الخزفي الأزرق وكوب الإفطار الخزفيّ الأزرق وإبريق القشدة الخزفي الكبير الأزرق بأزهار الأقحوان التي تغطيه.

أخذت مشاعر الاستسلام تجتاحني.

إن كنتُ سأنهار، فإنّني سأتشبّث بمسراتي الصّغيرة، بِقَدر استطاعتي، على الأقل.

طرقت الممرضة بابي، ودون أن تنتظر جواباً، دلفت إلى الغرفة.

كانت ممرضة جديدة (فغالباً ما كانوا يغيّرون طاقم الممرضات) ذات

وجه هزيل، بلون الرمل، وشعر رملي، ونمش كثير يرقّط أنفها النحيل. لسبب ما أصابني منظر هذه الممرّضة بالكآبة، ولم أتبيّن أنّ جزءاً من غرابتها يتأتى من كونها خالية الوفاض، إلاّ حين خطت عبر الغرفة بخطى واسعة.

فتحت فمي لأسأل عن صينية إفطاري، لكنّني أخرست نفسي فوراً. قد تكون الممرضة ظنتني شخصاً آخر. فهذا ديدن الممرضات الجديدات. لا بُد أنّ شخصاً ما في بِلسَايز يخضع للعلاج بالصدمة الكهربائيّة، وإنّها ظنّتني (على نحو مفهوم تماماً) ذلك الشخص.

انتظرتُ حتى أنهت الممرّضة جولتها الصّغيرة في غرفتي، وهي تُربّتُ على جنبيها، وترتب الصّينيّات، آخذةً الصينيّة التالية إلى غرفة لُوبِيل على بُعد باب واحد في الممرّ.

ثم حشرت قدميّ في خُفيّ، أجرجر بطانيتي معي، لأنّ الصباح كان مشرقاً، ولكن في غاية البرودة، وعبرت مباشرة إلى المطبخ. كانت الخادمة ذات الزيّ الوردي تملأ صفّاً من أباريق قهوة، زرقاء خزفيّة، من غلاّية كبيرة بالية على الموقد.

نظرت بمحبّة إلى صفّ الصينيات التي تنتظر: المناديل البيضاء الورقية، مطوية في شكل مثلثات حادة متساوية الأضلاع، تقبع أسفل شوكاتها الفضيّة، وقباب باهتة من بيض بِرِشت في فناجين بيض زرقاء، وأصداف محار زجاجيّة تضم مُربّى برتقال. كل ما توجب عليّ فعله هو أن أمد يدي وأُطالب بصينيتي، فيصبح العالم عاديّاً تماماً.

«لقد وقع خطأ ما»، أخبرتُ الخادمة، وأنا أنحني على المنضدة، متحدثةً بصوت حميميّ خفيض. «لقد نسيت الممرضة الجديدة إحضار صينية

إفطاري اليوم».

تمكنت من افتعال ابتسامة مشرقة لأُبيّن لها أنّني لا أُضمر أيّة مشاعر عدوانيّة.

«ما اسمكِ؟»

«غريينوود. إِستر غريينوود».

«غرينوود، غريينوود، غريينوود». كانت سبّابتها ذات الثآليل تفتش في قائمة أسماء مرضى بِلسَايز المعلقة على جدار المطبخ. «غريينوود، لا فطور اليوم».

قبضت على حافّة المنضدة بكلتا يديّ.

«لا بُد أنّ خطأ ما قد وقع. أمتأكدة أنّ الاسم هو غريينوود؟»

«غريينوود»، قالت الخادمة، بحزم، حين دخلت الممرضة.

نظرت إلينا الممرضة متسائلة.

«آنسة غريينوود تريد صينيتها»، قالت الخادمة، وهي تتحاشى النظر إلى عينيّ.

«أوه»، تبسمت الممرّضة إليّ، «سوف تنالين صينيّتك في وقت لاحق هذا الصّباح، آنسة غريينوود، أنتِ . . .»

بَيدَ أنّني لم أنتظر لأسمع ما قالته الممرّضة. سرت، على غير هُدى، بخطىً واسعة في الممرّ؛ ليس إلى غرفتي— لأنّها ستكون المكان الذي سوف يأتون إليه ليأخذوني— بل إلى المُختلَى المُظلَل، والذي هو اقل شأناً من ذاك الذي في كابلان، ولكنّه، على أيّة حال، في زاوية هادئة من الممر، حيث لن تأتي جوان ولُوبِيل وَدِيدي والسيّدة صافيج.

تكومتُ في زاوية المُختلَى القصيّة والبطانيّة على رأسي. لم تكُن أنباء العلاج بالصّدمة الكهربائيّة هي التي أفزعتني، بل الخيانة السافرة للدكتورة نُولان. لقد أحببت الدكتورة نُولان، لقد أحببتها، منحتها ثقتي المطلقة وأخبرتها بكل شيء، ولقد وعدتني، مخلصةً، أن تُحذرني قبل أن أخضع لجلسة علاج جديدة.

لو أخبرتني في الليلة الماضية، لبقيتُ مستيقظة طيلة الليل— بالطبع— فَزِعةً، أتوجس ريبةً، وما إن يطلع النهار حتى أكون قد هيّأت نفسي واستعدت هدوئي. سأكون قد عبرت الممرّ بين ممرضتين— مارّة بِديدي ولُوبِيل والسيدة صافيج وجوان— بكرامةٍ، كشخص استسلم، بهدوء، للإعدام.

انحنت عليَّ الممرضة ونادت اسمي.

تسحبتُ إلى الوراء وانكفأت أكثر في الزاوية. اختفت الممرضة. كنت أعلم أنّها ستعود، في غضون دقيقة، مع رجلين ضخمين، فيحملاني، وأنا أصرخ ضاربةً بكفيّ وقدميّ، متجاوزة النظارة الباسمة المحتشدة في حجرة الجلوس.

أحاطتني الدكتورة نُولان بذراعها وعانقتني كأم.

«قلتِ إنّكِ ستعلميني بالأمر!» صرختُ عليها عبر البطانيّة المتغضنة.

«لكنّني أخبركِ الآن»، قالتِ الدكتورة نُولان. «لقد جئتُ باكراً، خصّيصاً لأخبرك، وسآخذك بنفسي إلى هناك».

حدقت فيها عبر أجفاني المنتفخة. «لماذا لَم تخبريني ليلةَ البارحة؟».

«ظننتُ أنّ ذلك سيبقيكِ مستيقظةً. لو كنتُ أعلم . . .».

«قلتِ إنّك ستخبريني».

«اسمعي، إستر»، قالت الدكتورة نُولان. «سأرافقك إلى هناك. سأكون هناك طيلة الوقت، سيكون كل شيء على ما يرام، كما وعدتك. سأكون هناك حينما تستيقظين، وسأعيدك إلى غرفتك ثانيةً».

نظرتُ إليها، فبدت متضايقة.

انتظرتُ لحظةً. ثم قلتُ: «عديني أنّك ستكونين هناك».

«أعدكِ».

أخـذت الدكتورة منديلاً ومسحت وجهي. ثم شبكت ذراعها بذراعي، كصديقة قديمة، وساعدتني على النّهوض، فشرعنا نمشي في الممرّ. تشابكت البطانيّة حول قدميّ، فتركتها تسقط، لكنّ الدكتورة نُولان لم تنتبه إلى ذلك. مررنا بجوان، وهي تغادر غرفتها، فرمقتها بابتسامة إزدراء، ذات مغزى، فتراجعت إلى الوراء حتى عبرنا.

ثم فتحت الدكتورة نُولان باباً في نهاية الممرّ، وقادتني أسفل سلالم متواصلة تفضي إلى ممرّات قبو سريّ يربط، عبر شبكةِ أنفاقٍ وأخاديد متقنة الصُّنع، كلَ بنيات المستشفى المختلفة.

كانت الجدران برّاقة، وثمة آجُرُّ مغسلةٍ أبيض ومصابيح كهربائيّة بسيطة معلقة في فُرَجٍ في السقف الأسود. كانت نقّالات مرضى وكراس متحرّكة تتناثر، هنا وهناك، قُبالة الأنانيب التي تُهسهِس وتُقرقع، والتي تتمدد وتتفرّع في نظام عصبيّ معقّد على طول الجدران اللامعة. تشبثتُ بذراع الدكتورة نُولان كالموت، فكانت تعتصر ذراعي، مُشجعةً، بين الحين والآخر.

أخيراً، توقّفنا عند باب أخضر، كُتِب عليه بحروف سوداء: المعالجة الكهربائيّة. تراجعت إلى الوراء، فيما انتظرت الدكتورة نُولان. ثم قالت:

«لننتهِ من الأمر»، ثم دخلنا.

لم يكُن في غرفة الانتظار، فيما عداي والدكتورة نُولان، سوى رجل شاحب ببرنس حمام أحمر داكنٍ، رثٍ، وممرّضته المرافقة.

«أترغبين في الجلوس؟» أشارت الدكتورة نُولان إلى مقعد خشبيّ، لكنّي شعرت بالثِقَل في قدميّ، ففكرت بصعوبة أن أحمل نفسي على الجلوس حين يأتي الأشخاص المكلفون بالعلاج.

«من الأفضل أن أبقى واقفة».

أخيراً، دخلت الغرفة امرأة طويلة، شديدة الشحوب، ترتدي سُترة بيضاء، من الباب الداخليّ. حسبتها ستأخذ الرجل الذي يرتدي بُرنس الحمام الأحمر الداكن، لأنّه كان هناك قبلي، لكنّني استغربت حين اتجهت نحوي.

«صباح الخير، دكتورة نُولان»، قالتِ المرأة، وهي تضع ذراعها حول كتفيّ. «أَهذهِ إِسترِ؟».

«نعم، آنسة هيوي Huey. إِسترِ، هذه الآنسة هيوي، سوف تعتني بكِ. لقد أخبرتها عنكِ».

ظننت المرأة بطول سبعة أقدام. انحنت عليَّ بطريقة وديّة، فرأيت أنّ وجهها ــ بأسنانه الناتئة في الوسط ــ لا يزال يحمل آثار حبّ الشباب. بدا كمثل خرائط فوهات البراكين على القمر.

«أظنّ أنّنا سنبدأ بكِ، إِسترِ»، قالت الآنسة هيوي. «لن يبالي السيّد آندرسن Anderson إنِ انتظر قليلاً، أليس كذلك سيّد آندرسن؟».

لم ينبس السيّد آندرسن ببنت شفةٍ. هكذا، وذراع الآنسة هيوي حول كتفيّ، والدكتورة نُولان تتبعنا، دخلت إلى الغرفة التالية.

عبر شَقَيِّ عينيَّ، اللذين لم أجرؤ على فتحهما كثيراً، مخافةَ ألاّ يصعقني المنظر برمته، رأيتُ السرير العالي بملاءته البيضاء المشدودة عليه تماماً، والآلَةَ التي خلفه، والشخص المُقنَّع (لم أستطع معرفة إن كان رجلاً أم امرأة) خلف الآلة، والأشخاصَ المقنّعين الآخرين الذين يحفّون بجانبيّ السرير.

ساعدتني الآنسة هيوي بالصّعود والتمدد على ظهري.

«حدثيني»، قلتُ.

أخذت الآنسة هيوي تتحدث بصوت خفيض مُهدئ، وتضع المرهم على صدغيّ، وتثبّت الأزرار الكهربائيّة الصّغيرة على جانبيّ رأسي. «ستكونين على ما يرام، لن تشعري بشيء، عُضي فقط . . . .» ثم وضعت شيئاً ما فوق لساني، فعضضت مذعورةً، ومسحتني عتمة كطباشير على سبّورة.

(18)

«إستِر».

صحوتُ من نوم عميق، مُبلَلة بالعرق، وكان أول ما وقعت عليه عيناي وجه الدكتورة نُولان وهو يتماوج أمامي قائلاً: «إستِر، إستِر».

فركتُ عينيّ بِيَد خرقاء.

أستطيع أن أرى، خلف الدكتورة نُولان، جسد امرأة بثوب ذي ترابيع بيضاء وسوداء، مُلقىً على سرير خفيف نقّال، كما لو سقط من عُلوٍ شاهق. وقبل أن أرى المزيد، قادتني الدكتورة نُولان عبر باب إلى هواء منعش تعلوه سماء زرقاء.

تلاشت الحرارة، وتلاشى الخوف أيضاً. شعرت بالطمأنينة فجأة. كان الناقوس الزجاجي معلقاً، يتدلى، على بُعد خمسة أقدام، فوق رأسي. كنت عُرضة للهواء الذي يهفو.

«لقد كان كما أخبرتكِ، أليس كذلك؟» قالت الدكتورة نُولان، ونحن نسير عائدتين إلى بِلسَايز معاً عبر خشخشة أوراق أشجار بنيّة.

«بلى».

«حسناً، سيكون الأمر كذلك دوماً»، قالت بحزم. «ستخضعين للعلاج بالصّعقة الكهربائيّة ثلاث مـرّات في الأسبوع: الثلاثاء والخميس والسبت».

عببتُ نَشقة هواء مديدة.

«كم سيدوم ذلك؟»

«يعتمدُ الأمر»— قالت الدكتورة نُولان— «عليكِ وعليّ».

أخذت السكين الفضيّة وكسرت طرف بيضتي. ثم وضعت السكينة وحدقت فيها. حاولت أن أفكر في سبب حُبّي للسكاكين، لكنّ عقلي قد نَد عن خيط الفكرة، وراح يتأرجح، كطائر، وسط الهواء الفارغ.

كانت جوان وَدِيدي جالستين جانب بعضهما على مقعد البيانو، وكانت ديدي تعلم جْوان عزف قرار [معزوفة] «العودان Chopsticks»[52]، فيما تعزف هي الجواب.

فكرت كم من المحزن أن تبدو جوَان مثل فرس، بتلك الأسنان الضخمة والعينين الجاحظتين كحصاتين رماديّتين. يا إلهي! فهي لم تستطع حتى الاحتفاظ بشخص مثل بَدِي ويلارد. وكان من الواضح أنّ زوج دِيدِي يعيش مع عشيقة ما، جاعلاً منها امرأة نَكِدة، مثل قطة عجوز، كريهة الرّائحة.

«وصلتني رِسَا . . . لَةٌ»، دندنت جوَان، وهي تُطل برأسها الأشعث من باب غرفتي.

«هنيئاً لكِ». أبقيت عينيّ على كتابي. منذ أن انتهت جلسات العلاج بالصّعة الكهربائيّة— بعد سلسلة قصيرة من خمس جلسات— وبعد أن حظيتُ بامتيازات الذهاب إلى البلدة، وجوان تلازمني كذبابة فاكهة ضخة، لاهثة — كما لو أنّ حلاوة العافية شيء يمكنها امتصاصه بمجرّد الاقتراب منّي.

52– معزوفة ڤالتس، ألفتها في العام 1877 الإنجليزيّة أوفيميا ألِن، وهي في السادسة عشرة من عمرها. الاسم الحقيقي للمعزوفة: The Celebrated Chop Waltz، وجاء العنوان من كون الأصابع تنقر مفاتيح البيانو بحركة خاطفة. (المراجع).

لقد جرّدوها من كتب الفيزياء وأكوامٍ من دفاتر لولبيّة مغبرّة مليئة بملاحظات محاضرات فاضت بها غرفتها، وقد أُجبرت على ملازمة المكان من جديد.

«ألا تُريدين أن تعلمي مصدرها؟»

دلفت جوان إلى الغرفة وجلست على طرف سريري. أردت إخبارها أن تغادر المكان فوراً، فهي تصيبني بالذعر، لكنّني لم أستطع.

«حسناً». وضعت إصبعي بين دفتيّ الكتاب وأغلقته. «من أرسلها؟»

سحبت جوان مظروفاً أزرق باهتاً من جيب تنّورتها ولوحت به لتغيظني.

«حسناً، أليست هذه مصادفة!» قلتُ:

«ماذا تعنين بِـ «مصادفة»؟»

ذهبت إلى مكتبي والتقطت مظروفاً أزرق باهتاً ولوحت به إلى جوان كمنديل وداع. «لقد وصلتني رسالةٌ أيضاً. أتساءل إن كانت نفس الرّسالة».

«هو أفضل حالاً الآن»، قالت جوان. «لقد غادر المستشفى».

ران صمت قصير.

«هل ستتزوجينه؟»

«كلاّ»، قلتُ. «هل أنتِ؟»

ابتسمت جوان ابتسامة عريضة كما لو كانت تتحاشى الإجابة. «لم أكُن أحبّه كثيراً، على أيّة حال».

«أوه؟»

«كلاّ، لقد أحببت عائلته».

«أتقصدين السيّد والسيّدة ويلارد؟».

«نعم». دبّ صوت جوان في عمودي الفقريّ كتيّار هوائيّ. «لقد أحببتهما. كانا رائعين، في غاية السعادة، بخلاف والديّ. غالباً ما كنت أذهب لزيارتهم»— صمتت قليلاً— «حتى جئتِ».

«آسفة». ثم أضفت: «لِمَ كففت عن زيارتهم، إن كنت قد أحببتهما إلى ذلك الحد؟»

«أوه، لم أستطع»، قالت جوان. «ليس وأنتِ تواعدين بَدِي. كنتُ سأبدو . . . . لا أعرف . . . [كنت سأبدو] مضحكة».

فكرت للحظة. «ستبدين كذلك فعلاً».

«هل»— ترددت جوان— «ستسمحين له بالمجيء؟»

«لا أعرف».

اعتقدت، بادئ الأمر، أنّ مجيء بَدِي لزيارتي في المصحة سيكون أمراً فظيعاً: ربّما سيأتي للشماتة بي، ومخادنة الأطباء الآخرين. ثم بدا لي الأمر خطوة لمعرفة منزلته منّي، للتخلي عنه، رغم حقيقة أن لا أحد في حياتي: لا مترجماً فوريّاً، ولا أحد، لكنّه كان الشخص الخطأ، فلم أتمسك به. «هل ستسمحين له بالمجيء؟»

«نعم»، همست جوان. «لعله يصطحب أمه. سأسأله أن يحضرها . . . .»

«أُمه؟»

قطبت جوان جبينها. «أحبّ السيدة ويلارد. السيدة ويلارد رائعة، امرأة رائعة. كانت لي أُماً حقيقيّة.

أحتفظ بصورة للسيدة ويلارد، بثيابها التويد المرقطة بألوان مختلفة،

وحذائها بلا كعبين، وحِكَمها الموروثة. كان السيد ويلارد طفلها المدلل، وكان صوته عالياً وواضحاً كصوت صبيّ صغير. جوان والسيدة ويلارد. جوَان . . . . والسيدة ويلارد . . . .

طرقتُ باب دِيدِي في ذلك الصّباح، راغبة في استعارة صفحة موسيقى من جزءين. انتظرت بضع دقائق، فلم أسمع جواباً. قلتُ لا بُد أنّها في الخارج، لذا يمكنني أن أحصل على صفحة الموسيقى من مكتبها، دفعت الباب وخطوت إلى الغرفة.

في بِلسَايز— حتى في بِلسَايز— للأبواب أقفالها، لكن لا مفاتيح لدى المرضى. بابٌ موصد يعني خصوصيّة، وكان يُحتَرم ذلك، مثل باب مُقفَل. كان المرء يطرق ويطرق ثم ينصرف. تذكرت هذا وأنا واقفة، عيناي بلا جدوى— إثر تعرّضهما لأنوار الممرّ الباهرة— في ظلام الغرفة الحالك الذي تفوح منه رائحة المسك.

أبصرت، حين اتضحت الرّؤية، جسداً ينهض من السرير. ثم قهقة شخص ما على نحو خافت. عدل الجسد شعره، وحدقت فيّ، عبر الظُلمة، عينان شاحبتان بلون الحصى. استلقت دِيدي على الوسائد، حافيةً، تحت ثوبها الليلي الصوفي الأخضر، ونظرت إليّ بابتسامة قصيرة ساخرة. لمعت سيجارة بين أصابع يدها اليمنى.

«أردتُ فقط . . .»، قلتُ.

«أعرف»، قالت دِيدي. «الموسيقى».

«أهلاً، إستِر»، قالت جوان حينئذ، فجعلني صوتها الأجش أشعر بالغثيان. «انتظريني، إستِر، سأرافقك لأعزف القرار معكِ».

قالت جوان بشجاعة: «لم أُحبّ بَدِي ويلارد أبداً. ظنّ أنّه يعرف كل شيء. ظنّ أنّه يعرف كل شيء عن النّساء . . . .»

نظرت إلى جوان. ورغم الشعور المُروِع، وكراهيتي القديمة المتجذرة، إلاّ أنّها فتنتني. كنت كمن يراقب أحد سكان المرّيخ، أو عجلوماً ذا ثآليل على وجه الخصوص. لم تكُن أفكارها أفكاري، ولا مشاعرها مشاعري، لكنّنا كنّا قريبتين من بعضنا حتى بدت أفكارها ومشاعرها صورةً ساخرة قاتمة لمشاعري وأفكاري.

وكنت أتساءل، في بعض الأحيان، إن كانت جوان بنت مخيّلتي؛ وإن كانت ستواصل الظهور، في كل أزمات حياتي، لتذكرني بما كُنتُه، وبما قاسيته، لتواصل أزمتها الخاصّة، المشابهة لأزمتي، أمام ناظريّ.

«لا أفهم ما الذي تراه المرأة في امرأة أخرى»، قلتُ للدكتورة نُولان أثناء مقابلتي معها في تلك الظهيرة. «ما الذي تراه المرأة في امرأة أخرى ولا تراه في الرجل؟»

أطرقت الدكتورة نُولان. ثم قالت: «الحنان». فَانخَرَستُ.

«أحبّكِ»، كانت جوان تقول. «أحبّكِ أكثر مِن بَدِي».

وحين تمددت فوق سريري، تعلو محيّاها ابتسامة ساذجة، تذكرتُ فضيحة صغيرة حدثت في مهجع الكليّة، حين بدأت طالبة بدينة— في سنتها الدراسية الأخيرة، لها ثديان ضخمان مترهّلان، عطوفة كجدَة، ومتخصّصة ورعة في اللاهوت— تلتقي كثيراً بطالبة طويلة خرقاء، في سنتها الدراسية الأولى، ذات تاريخ حافل بقصص إخفاق علاقتها مع الشبّان الذين يهجرونها، بشتى السُبل البارعة، فور التعرُّف عليها. كانتا على الدوام معاً، وذات مرّة

ضبطتهما إحداهنّ وهما تتعانقان— مثلما تقول الحكاية— في غرفة الطالبة البدينة.

«ولكن، ماذا كانتا تفعلان؟» سألتها. فكلما فكرت بتواجد الرّجال مع الرّجال، والنّساء مع النّساء، أعجز عن تصور الأشياء التي يقومون بها فعلاً.

«أوه»، قالت التي كانت تراقبهما، «كانت مِلِي Milly تجلس على الكرسيّ وثيودورا Theodora مستلقية في السرير، وكانت مِلِي تمسد شعر ثيودورا».

خاب ظنّي. كنت أتوقّع الكشف عن شرّ بعينه. تساءلت إن كانت كل ما تفعله النّساء رفقة النّساء الأخريات هو التمدُد والعناق.

بالطبع، لقد أقامت شاعرة كليّتي المشهورة مع امرأة أخرى— وهي عالمة كلاسيكيّة عجوز، قصيرة القامة، بتسريحة هولنديّة قصيرة. وحين أخبرت الشاعرة أنّني قد أتزوج، وأنجب زمرة من الأولاد ذات يوم، حدقت فيّ برعب، ثم صرخت: «وماذا عن عملكِ؟.

أوجعني رأسي. لماذا كنت دائماً محط اهتمام العجائز الغريبات الأطوار؟ كانت هناك الشاعرة المشهورة وفيلومينا غوينا وجاي سِي وسيّدة الجمعية العلمية المسيحيّة، والله يعلم مَن أيضاً. كُنّ راغبات في رعايتي بطريقة أو بأخرى، وكان عليّ— لقاء رعايتهنّ وتأثيرهنّ— أن أكون صورة عنهنّ.

«أحبّكِ».

«هذا صعبٌ»، قلتُ لها، وأنا ألتقط كتابي. «لأنّي لا أُحبّكِ. إنّك تجعلينني أرغبُ في التقيّؤ، إن شئتِ أن تعرفي».

ثم غادرت الغرفة، تاركةً جْوان مستلقيةً— ثقيلة كفرس عجوز—

فوق سريري.

انتظرتُ الطبيب، متساءلةً إن يتوجب عليّ أن أهرب. كنت أعلم أنّ ما أقوم به مخالف للقانون— في ماساتشوستس، على أيّة حالٍ، لأنّ الولاية كانت تعج بالكاثوليك— لكنّ الدكتورة نُولان قالت إنّ هذا الطبيب صديق قديم لها، وشخص حكيم.

«ما سبب الزّيارة؟» أرادت موظفة الاستقبال النّشطية، ذات الزي الأبيض، أن تعرف، وهي تضع علامة على اسمي في القائمة.

«ماذا تقصدين بِـ «سبب الزّيارة»؟» لم يخطر ببالي أن يسألني أحدٌ— غير الطبيب— هذا السؤال، وكانت غرفة الانتظار العموميّة مكتظة بمرضى آخرين ينتظرون أطبّاء آخرين، أغلبهنّ حوامل أو رفقة أطفال، فشعرت بعيونهم وهي تحدق في بطني المستوي الذي بلا حبَل ظاهر.

نظرت إليّ موظفة الاستقبال، فاحمرّت وجنتاي.

«زيارة للفحص، أليس كذلك؟» قالت بلطف. «أردت أن أعرف حتى أُحدد الأجرة. أطالبةٌ أنتِ؟».

«نَعَـ . . . م»

«ستدفعين نصف الأجرة إذن. خمسة دولارات، بدلاً من عشرة. هل أرسل الفاتورة إلى عنوانك؟»

كنت على وشك أن أعطيها عنوانَ منزلي، المكان الذي قد أتواجد فيه حين تصل الفاتورة، لكنّني فكرت بأمي وهي تفتحها وتطلع على محتواها. كان العنوان الآخر الذي لديّ هو الصّندوق البريديّ الذي يستخدمه الأشخاص الذين لا يرغبون في أن يعرف الآخرون أنّهم يقيمون في مصحة عقليّة. خطر

ببالي أن تتعرّف موظفة الاستقبال على الرّقم، فقلت لها: «من الأفضل أن أدفع الآن»، وسحبت خمسة دولارات من الرّزمة التي في حقيبة يدي.

كانت الخمسة دولارات جزءاً مما أرسلته لي فيلومينا غوينا كنوع من هديّة تُعبّر عن تمنيّاتها لي بالشفاء. تساءلتُ عما يمكن أن تفكر به حين تعرف الغرض الذي استخدمت نقودها من أجله.

وسواء عرفت بذلك أم لم تعرف، فإنّها كانت تشتري حرّيتي.

«ما أبغضه حقّاً هو أن أكون طوع بنان رجل ما»، أخبرت الدكتورة نُولان.

«لا يكترث الرجل بما يجري في العالم إطلاقاً، فيما تخيّم فوق رأسي صورة وليد ما مثل عصا كبيرة، كي لا أحيد عن الطريق».

«هل ستتصرّفين على نحو مختلف لو لم تنشغلي بفكرة إنجاب طفل ما؟»

«نعم»— قلتُ— «لكن . . .» وأخبرت الدكتورة نُولان عن المحامية المتزوجة ومقالها «دفاعاً عن العفّة».

انتظرت الدكتورة نُولان حتى أنهيت كلامي. ثم ضجت بالضحك.

«مجرّد دعاية!»، قالت، وخطت اسم هذا الطبيب وعنوانه على ورقة وصفة طبيّة.

تصفّحت، بعصبيّة، عدداً من مجلة حديث الأطفال Baby Talk. كانت وجوه الأطفال الممتلئة، المُشرقة، تتبسم في وجهي، صفحة إثر صفحة— أطفال صُلع، أطفال بلون الشوكولاته، أطفال بوجوه تشبه وجه أيزنهاور Eisenhower، أطفال يتدحرجون لأول مرّة، أطفال يمدون أياديهم لالتقاط لُعب مُخشخة، أطفال يتناولون أول ملعقة من طعام غير مهروس، أطفال

يقومون بكل تلك الخدع الصّغيرة اللازمة لكي يكبروا، خطوة خطوة، في عالم قَلِق ومضطرب.

شممت [رائحة] مزيج من الـ «پَابْلَم»[53] والحليب الحامض والحفاظات النّتنة التي تشبه رائحة الفَسيخ، فانتابتني مشاعر الحزن والحنان. كم يبدو سهلاً إنجاب الأطفال لأولئك النّسوة اللواتي يحطن بي! لَمَ كنتُ بعيدة عن مشاعر الأمومة؟ لَمَ لم أستطع أن أتخيّل نفسي منذورةً لرعاية طفل بدين ينشج مثل [أطفال] دُودُو كَنواي؟

سأُجنّ إن اعتنيت بطفل طيلة اليوم.

نظرتُ إلى الطفل الذي في حضن المرأة الجالسة قبالتي. لم تكُن لديّ أدنى فكرة عن عمره، فأنا جاهلة بهذه الأمور— كل ما عرفته هو أنّه يستطيع التكلم كثيراً وبسرعة ولديه عشرون سنّاً خلف شفتيه الورديّتين المزمومتين. كان يضع رأسه المتراخي على كتفيه— لَم يَبْدُ أنّ له رقبة— ويرقبني بسيماء أفلاطونيّة حكيمة.

تبسمت أم الطفل وتبسمت، حاملةً ذلك الطفل كما لو كان أولى عجائب العالم. راقبت الأُم والطفل باحثةً عن إشارة تدل على رضاهما المتبادل، ولكن قبل أن أكتشف أيّ شيء، نادى الطبيب عليّ.

«ترغبين في إجراء فحص»— قال مبتهجاً— ففكرت، بارتياح، أنّه ليس من نوع الأطبّاء الذين يطرحون أسئلة حرجة. داعبتني فكرة إخباره أنّني خططت للزّواج ببحار ما إن ترسو سفينته في [مَسفَن] الترسانة البحريّة

53- Pablum: اسم تجاريّ لطعام أطفال يتكون من الحبوب المُعالجَة، أنتجته شركة ميد جونسون في العام 1931. الاسم مأخوذ من الكلمة اللاتينيّة Pabulum، ويعني: طعام أو مواد غذائيّة. (المراجع).

بِتشارلز تاون Charlestwon، وأنّ سبب عدم ارتدائي خاتم خطوبة يعود لكوننا مُعدمَين، لكنّني عدلت عن تلك القصّة المثيرة في اللحظة الأخيرة، فقلت بكل بساطة: «نعم».

صعدت على طاولة الفحص، وأنا أفكر: «إنّني أصعد إلى حرّيتي؛ تحرُّري من الخوف، تحرُّري من الزّواج بالشخص الخطأ— مثل بَدِي ويلارد— لأجل الجنس فقط، تحرُّري من بيوتات [جمعيّة] فْلورنس كرِتِندِن Florence Crittenden، حيث تذهب كل الفتيات المعدمات— من أمثالي— لأجل فحص كهذا، لأنّه يتوجب عليهنّ ذلك لا محالة، بصرف النّظر عن . . . .»

ويمكنني— حين أعود إلى المصحة بالصندوق المُغلف بورق بنيّ في حضني— أن أكون أيّة سيّدة تعود، بعد قضاء يوم في البلدة، وهي تحمل كعكة من [محلاّت] شرَافْت Schrafft، أو قبّعة من [متجر] فيلين Filene، إلى خالتها العانس. ثم، شيئاً فشيئاً، تبددت شكوكي حول أنّ للكاثوليك عيونُ أشعّةٍ سِينيّة، فشعرت بالرّاحة. وأظنُّني قد استفدت من امتيازات التسوُق على أكمل وجه.

كنتُ امرأة نفسي.

وكانت الخطوة التالية أن أجد الرجل المناسب.

(19)

«سأصبح طبيبة نفسيّة».

تحدثت جوان بحماسها الهادر كالعادة. كنّا نحتسي عصير التفاح في ردهة بِلسَايز.

«أوه»— قلتُ وأنا أبلع ريقي— «هذا رائع».

«لقد تحدثت طويلاً مع الدكتورة كوِنّ Quinn، وهي تعتقد أنّ ذلك ممكن جداً». كانت الدكتورة كوِنّ الطبيبة النّفسانيّة التي تشرف على علاج جوان— وهي داهية عزباء— وغالباً ما كنتُ أفكر: لو أشرفت على علاجي لبقيت في كَابْلان، أو في وَايمَارك، على الأرجح. تتوفّر الدكتورة كوِنّ على خُصلة مثاليّة تثير اهتمام جوان، لكنّها تصيبني بالقشعريرة.

تحدثت جوان عن الأَنَا Ego والهَذَا Id[54]، فحولتُ اهتمامي إلى شيء آخر، إلى الصّندوق البنيّ غير المُغلَف الذي في دُرجي السُفليّ. لم أتحدث عن الأَنَا والهَذَا مع الدكتورة نُولان من قَبْل. في الواقع، لم أدرِ الأشياء التي كنت أتحدث عنها.

«. . . . سأعيش في الخارج، الآن».

حينئذ، استدرتُ نحو جوان. «أين؟» سألتها بإلحاح، محاولة أن أداري غيرتي.

54- الجانب اللاشعوريّ من النّفس- وفقاً لفرويد- والذي هو مصدر الدوافع الغريزيّة والبهيميّة. (المراجع).

قالت الدكتورة نُولان إن كليّتي ستستقبلني مرّة أخرى خلال الفصل الثاني، بتوصية منها وبفضل منحة فيلومينا غوينا، لكنّ الأطبّاء اعترضوا على إقامتي مع أُمي خلال الفترة الفاصلة، لذا فإنّني سأبقى في المصحة حتى يبدأ الفصل الدراسيّ الشتويّ.

ورغم ذلك، فقد شعرت بالظُلم: أن تحظى جوان بهذا الامتياز.

«أين؟» سألتها، بإلحاح، ثانيةً. «لن يسمحوا لك أن تعيشي على هواكِ، أليس كذلك؟» لم تحظَ جوان بامتيازات الذهاب إلى البلدة، ثانيةً، إلاّ في ذلك الاسبوع.

«أوه، كلاّ، بالطبع، كلاّ. سأعيش في كيمبريدج مع الممرضة كينيدي Kennedy. لقد تزوجت رفيقتها، وهي بحاجة إلى من يشاركها الشقة.

«نخبك!» رفعتُ كأس عصير التفاح، وتبادلنا الأنخاب. ورغم تحفظاتي العميقة، إلاّ أنّه قد خطر ببالِيّ أنّني سوف أُقدر جوان دوماً. كان الأمر كما لو جمعنا ظرف قاهر، كحرب أو طاعون، فتقاسمنا عالمنا الخاصّ.

«متى ستغادرين؟».

«في بداية الشهر».

«رائع».

بدت جوان حزينة. «ستأتين لزيارتي، أليس كذلك، إِستِر؟»

«بالطبع».

لكنّي فكرتُ باستحالة ذلك.

«هذا مؤلم»، قلتُ. «هل من المفترض أن يؤلمني؟»

لم ينبس إيرِون Erwin ببنت شفة. ثم قال: «يؤلمُ أحياناً».

قابلت إيرِون على سلالم مكتبة وايدنَر Widener. كنت واقفة في أعلى سلالم طويلة، أُطل على البنايات، ذات القرميد الأحمر، التي تُسوِرُ الساحة المليئة بالثلج، متهيّئةً لأستقل عربة التُرولي، عائدةً إلى المصحة، حين جاء شابٌّ طويل، ذميم إلى حد ما، يضع نظارات طبيّة، وقال: «كم الساعة من فضلك؟»

ألقيت نظرة على ساعتي. «الرّابعة وخمس دقائق».

ثم نقل الرجل الكتب، التي كان يحملها على بطنه— كصينيّة غداء— إلى ذراع آخر، كاشفاً عن معصم نحيل.

«ولكنّك تمتلك ساعة أيضاً!»

نظر الرجل إلى ساعته متحسراً. رفعها وهزّها قرب أذنه. «إنّها لا تعمل». ثم تبسم على نحو جذاب. «إلى أين تذهبين؟»

كنت على وشك أن أقول: «عائدة إلى المصحة»، لكنّ الرجل بدا كمن يُرتجَى منه، فعدلت عن الفكرة، قائلةً: «إلى البيت».

«أترغبين ببعض القهوة؟»

ترددتُ. من المفترض أن أكون في المصحة لتناول العشاء، ولم أشأ أن أتأخر فأطرد من هناك إلى الأبد.

«فنجان صغير جداً من القهوة؟»

قرّرت أن أمارس شخصيّتي الطبيعيّة الجديدة على هذا الرجل الذي أخبرني، خلال ترددي، أنّ اسمه إيرِون، وأنّه أستاذ رياضيّات يتقاضى أجراً عالياً، فقلتُ: «لا بأس». وأنا أوازن خطواتي على إيقاع خطواته، مشيت، إلى

جانبه، على طول السلالم الطويلة المغطاة بالجليد.

لم أقرّر إغواء إِيرونِ إلاّ بعد أن شاهدت مكتبه الذي يخلو للدراسة فيه.

كان إِيرونِ يقيم في شقّة سفليّة مريحة ومعتمة، في شارع متهدم بضاحية كيمبريدج، فقادني إلى هناك— لاحتساء كأس من البيرة— بعد أن تناولنا ثلاثة أكواب من القهوة المرّة في مقهى للطلبة. جلسنا في المكتب على مقاعد جلديّة بُنيّة محشوة، تحيط بنا أكوام من كتب غامضة مغبرّة؛ كتب تحتوى على معادلات هائلة مُدرجَة في الصّفحة، بشكل فنيّ، مثل قصائد.

وفيما كنت أرتشف كأس البيرة الأولى— لم أرغب قط باحتساء البيرة الباردة في منتصف الشتاء، لكنّني رضيت أن توضع الكأس على شيء صلب يمكنني أن أمسكها بواسطته— رنّ جرس الباب.

بدا إِيرونِ مُحرجَاً. «أظنّ الطارق سيّدة ما».

كانت لدى إِيرونِ عادة قديمة غريبة في مناداة النساء بالسيّدات. «حسناً، حسناً»، أومأتُ إليه. «دعها تدخل».

هزّ إِيرونِ رأسه. «ستزعجينها».

انعكست ابتسامتي في الأسطوانة الكهرمانيّة لكأس البيرة الباردة.

رنّ جرس الباب ثانية على نحو حاسم. تنهّد إِيرونِ ثم نهض ليفتح الباب. وما إن اختفى، حتى دخلت إلى الحمام واختبأت خلف الستارة الڤِينِيسِيّة Venetian المتسخة التي بلون الألمنيوم، ناظرة إلى وجه إِيرونِ الرّهبانيّ، وهو يتراءى في شقّ الباب.

كانت سيّدة سلاڤِيّة ضخمة، ناهدة الثديين، ترتدي سُترة واسعة من صوف الخراف الطبيعيّ، وبنطالاً أرجوانياً فضفاضاً، وجزمة سوداء عالية

الكعبين بثنيتين من صوف الحَمَل الفارسيّ وَتُوكَةٍ[55] تتماشى معها، تنفث كلمات بيضاء غير مسموعة في الهواء الشتويّ. كان صوت إِيرونِ يَنداح نحوي عبر الممرّ البارد.

«آسف يا أولغا Olga . . . أنا أعمل، أولغا . . . لا، لا أعتقد ذلك، أولغا»، كان فم السيّدة الأحمر يتحرّك طيلة الوقت، وكانت الكلمات تستحيل دخاناً أبيض، يطفو بين أغصان شجرة الليلك العارية عند الباب. ثم قال أخيراً: «ربّما أولغا . . . إلى اللقاء يا أولغا».

نظرتُ بإعجاب إلى الامتداد الواسع لصدر السيّدة المغطى بالصّوف، والذي كأنّه امتداد سهل، حين ابتعدت بضع بوصات عن عينيّ، نحو السُلم الخشبيّ الذي يَصِرّ، وشيء من المرارة السَيبيرِيّة Siberian على شفتيها الزّاهيتين.

«أظنّ أنّ لديك علاقات غراميّة كثيرة، كثيرة، في كيمبريدج»، أخبرت إِيرونِ- مبتهجةً- وأنا أنقر، بِدبّوس، على قوقعة [حلزون] في أحد المطاعم الفرنسيّة بكيمبريدج.

«عليّ»- اعترف إِيرونِ بابتسامة صغيرة متواضعة- «أن أجاري السيّدات».

التقطت صدفة الحلزون الفارغة وشربت عصير الأعشاب الأخضر. لم أدرِ إن كان ذلك لائقاً، لكنّني- بعد شهور من الحِمية الصحيّه المملة في المصحة- كنتُ تواقة لتناول بعض الزُّبدة.

هاتفت الدكتورة نُولان من هاتف عموميّ في المطعم، وطلبت الإذن لقضاء الليلة في كيمبريدج رفقة جوان. لم تكن لديّ أدنى فكرة إن كان

55- التوكة toque: قبّعة نسويّة ضيّقة بلا حافّة. (المراجع).

إيرون سيدعوني للعودة إلى شقّته بعد الغداء أم لا، غير أنّ تخلصّه من السيّدة السلافِيّة— والتي قد تكون زوجة أستاذ آخر— بدا مبشراً.

أرخيت رأسي إلى الوراء وسكبت كأساً من [نبيذ] نوِي سَان جورج .Nuits-St.-Georges

«أتحبّين النّبيذ»، لاحظ إيرون. «[نبيذ] نوِي سَان جورج فقط. أتخيّله . . . مع التنّين[56] . . . .»

مد إيرون يده ليلمس يدي.

شعرت أنّ أول رجل سأطارحه الغرام لا بُد أن يكون ذكيّاً، كي أحترمه. كان إيرون أستاذاً جامعيّاً متفرّغاً، في السادسة والعشرين من عمره، ولَهُ جلد شاحب أملس، كجِلد شابّ عبقريّ. وكنت في حاجة إلى شخص مُجرّب لتعويض افتقاري للتجربة، وقد أكدت لي سيّدات إيرون ذلك. ثم رغبت— كي أكون في أمان— في شخص لم أعرفه من قبْل، ولن أواصل علاقتي به مستقبلاً— شخص على شاكلة الأشخاص المجهولين الذين يشبهون الرّهبان، كما في حكايات الطقوس القَبَليّة.

وقبيل نهاية المساء، لم تعُد تخامرني أيّة شكوك تجاه إيرون.

فمنذ أن علمت بالفساد الأخلاقيّ لِبَدي ويلارد، وعذريّتي تثقل كاهلي كحجر رحى حول عنقي. لقد كانت ذات أهميّة بالغة، بالنّسبة إليّ، لفترة طويلة، حتى صرت أدافع عنها مهما كلف الأمر. دافعت عنها لخمس سنين، ولقد ضقت ذرعاً بذلك.

ولما ألقى بي إيرون بين ذراعيه، حين عدنا إلى الشقّة، ثم حملني، ثملةً

56– إشارة إلى القديس جورج قاتل التنّين. (المراجع).

من النّبيذ، إلى غرفة النّوم المعتمة، هممتُ: «أتعلم، إِيرون، ينبغي عليّ أن أخبرك أنّي عذراء».

ضحك إِيرون وألقاني على السرير.

بعد بضع دقائق، كشفت دهشة المفاجأة عن أنّه لم يأخذ كلامي على محمل الجد. كم كنتُ محظوظة حين قمت بإجراءات منع الحمل خلال النّهار، وإلاّ لما كنت اكترثت بالقيام بتلك العمليّة المُرهفة والضروريّة وأنا ثملة في تلك الليلة. استلقيت، منتشية وعارية، على بطانيّة إِيرون الخشنة، في انتظار أن أشعر بذلك التحوُل الرّائع.

غير أنّ كل ما شعرت به كان ألماً حاداً ومريعاً.

«إنّه يؤلم»، قلتُ. «هل من المفترض أن أشعر بالألم؟»

لم ينبس إِيرون ببنت شفة. ثم قال: «يؤلمُ أحياناً».

وبعد هنيهة، نهض إِيرون وذهب إلى الحمام، ثم سمعت صوت تدفّق ماء الدُش. لم أكُن متأكدة أنّه قد فعل ما كان يعتزم القيام به، أم أنّ عذريّتي قد حالت دون ذلك على نحو ما. أردت أن أسأله إن كنت لا أزال عذراء، لكنّني شعرت باضطراب شديد.

كان سائل دافئ ينساب من بين ساقيّ. مددت يدي، بتردد، ولمسته.

وحين رفعت يدي إلى الضوء المنسرب من الحمام، بدت أطراف أصابعي سوداء.

«إِيرون، قلتُ بعصبيّة، «أحضر لي منشفة».

عاد إِيرون، وهو يعقد منشفة حول خصره، ثم ألقى عليّ منشفة أخرى أصغر حجماً. دفعت المنشفة بين ساقيّ وسحبتها على الفور. بدت نصف

سوداء جرّاء الدم.

«إنّني أنزف!» أعلنتُ، وأنا أثب مرتعبة.

«أوه، غالباً ما يحدث ذلك»، أكد إِيروِن مطمئناً. «ستكونين على ما يرام».

ثم أخذت تطفو في ذهني صور ملاءات الزّفاف الملطخة بالدم وكبسولات الحبر الأحمر التي تُمنح للعرائس اللواتي فُضت بكارتهنّ قبل الزّواج. تساءلت كم سأنزف دماً، ثم تمددت، أعتني بالمنشفة. خطر ببالي أنّ الدم كان جوابي. لا يمكن أن أكون عذراء ثانيةً. ابتسمت في الظلام. ثم شعرت أنّني جزء من تقليد عظيم.

خلسةً، وضعت قطعة نظيفة من منشفة بيضاء على جرحي، وأنا أفكر بركوب عربة الترولي المتأخرة إلى المصحة حين ينقطع النّزيف. أردت أن أتأمل وضعي الجديد في سكينة تامة. لكنّ المنشفة عادت سوداء وتقطر دماً.

«مِن الأفضل لي أن . . . أعود إلى البيت»، قلتُ بصوت خافت.

«بالتأكيد، ولكن ليس الآن»

«بلى، من الأفضل أن أذهب».

سألت إِيروِن إن كان بإمكاني أن أستعير منشفته لأضعها بين ساقيّ كضماد. ثم ارتديت ملابسي التي تفوح منها رائحة العرق. عرض عليّ إِيروِن أن يُقلني إلى البيت— ولكن، كيف لي أن أجعله يقلني إلى المصحة؟— ففتشت في حقيبتي بحثاً عن عنوان جْوان. كان إِيروِن يعرف الشارع، فخرج ليدير محرّك السيّارة. كنت في غاية القلق لأخبره أنّني ما زلت أنزف. كنت آمل أن يتوقّف النّزيف في أيّة لحظة.

ولكنّني — وهو يقود السيّارة عبر الشوارع المقفرة التي تغطي جنباتها الثلوج — شعرت بالنَّزِّ الدافئ يتسرّب عبر المنشفة وتنّورتي إلى مقعد السيّارة.

وحين سرنا على مهل، نتجاوز منزلاً مضاء إثر آخر، فكرت كم كنتُ محظوظة إذ لم أفقد عذريّتي وأنا في الكليّة، أو حين كنت لا أزال أعيش في البيت، حيث سيكون من المستحيل مداراة ذلك.

فتحت جْوان الباب مندهشةً، فَرِحة. قبّل إِيرونِ يدي، وأخبر جوان أن تعتني بي.

أغلقتُ الباب ثم استندتُ عليه، شاعرةً أنّ الدم سينخطف من وجهي في دفقة مثيرة.

«إِسترِ، ما الخطب؟» قالت جْوان.

تساءلت متى ستلاحظ الدم المنساب عبر ساقيّ، والذي ينزّ، لزجاً، في فردتيّ حذائي الجلديّ الأسود الفاخر. خطر ببالي أنّني قد أموت وأنا أنزف من طلقة أصابتني ولا تزال جوان تحدق فيّ بعينيها الفارغتين، متوقّعة أن أطلب منها شطيرة وفنجاناً من القهوة.

«هل تلك الممرّضة هنا؟»

«كلاّ، إنّها في ورديّتها الليليّة في كَاپْلان . . . .»

«جيّد». كشرتُ حين نزّت دفقة أخرى من الدم عبر المنشفة المُبتلة، وشرعت في رحلتها المُملة إلى حذائي. «أقصد . . . إنّه لأمر سيئ [ألاّ تكون هنا]»

«تبدين غريبة» قالت جوان.

«من الأفضل أن تحضري طبيباً».

«لماذا؟»

«سريعاً».

«ولكن . . .»

لم تكُن قد لاحظت شيئاً بعد.

انحنيتُ، وأنا أنخُر قليلاً، ثم خلعت إحدى فردتيّ حذائي الأسود الذي تشقّق جرّاء الشتاء، والذي كنت قد اشتريته من محلات بلُومِنغدِيل Bloomingdale. رفعت فردة الحذاء، أمام عينيّ جوان الجاحظتين، اللتين بلون الحصى، ثم أحنيتها، وشاهدتها وهي تبحلق في سيل الدم المتقاطر على السجادة التي بلون البيج.

«يا إلهي! ما هذا؟»

«إنّني أنزف».

كانت جوان تقودني تارة، وتجرّني تارة أخرى، إلى الأريكة، حتى جعلتني أستلقي عليها. ثم وضعت بعض الوسائد تحت قدميّ الملطختين بالدم. ثم تراجعت إلى الوراء وسألت: «من الرجل الذي فعل هذا؟»

ظننت، خلال لحظة جنون عابرة، أنّ جوان سترفض استدعاء الطبيب حتى أعترف لها بكامل قصّة المساء الذي قضيته مع إيرِون، وأنّها ستظل ترفض— حتى بعد اعترافي— كنوع من العقاب. لكنّني أدركت، حينئذ، أنّها قد سلمت بتفسيري، وأنّه لم يخطر ببالها أنّني ذهبت إلى السرير مع إيرِون، وأنّ ظهوره كان مجرّد محفّز لفرحتها بقدومي.

«أوه، إنّه شخص ما»، قلتُ، بإيماءة تفيد الرّغبة في إنهاء النّقاش. كانت دفقةُ دم أخرى قد اندفعت، فاختلجت عضلات بطني، فذُعرت: «أحضري

منشفة».

ذهبت جوان وعادت على الفور بكومة من المناشف والملاءات. نزعت عنّي ثيابي المبللة بالدم— كممرّضة متأهّبة— ثم سحبت نفساً سريعاً حين بلغت المنشفة الحمراء الأصليّة، ووضعت ضمادة جديدة. استلقيت، محاولة تهدئة وجيب قلبي، حيث كان الدم يتدفق من جديد مع كل خفقة.

تذكرت فصلاً مزعجاً من الرّواية الڤيكتوريّة، حيث ماتت امرأة تلو أخرى، بِوَهَن ونُبْل، في سيول من الدم، إثر ولادات عسيرة. ربما جرحني إيرِون بطريقة مريعة غامضة، وطيلة الوقت الذي استلقيت فيه على أريكة جْوان، كنتُ أحتضر فعلاً.

سحبت جوان وسادة هنديّة سميكة تستخدم كمسند للقدم، وراحت تتصل بقائمة طويلة من أطباء كيمبريدج. لم يُجِب الرّقم الأول. راحت جوان تشرح حالتي للرّقم الثاني، والذي أجاب بدوره، لكنّه قاطعها قائلاً: «هكذا إذن»، ثم أغلق الخط.

«ما الأمر؟»

«قال إنّه لا يعالج إلاّ مرضاه الدائمين والحالات المستعجلة. إنّه يوم الأحد».

حاولت رفع يدي والنّظر إلى ساعتي، غير أنّ يدي كانت كصخرة إلى جانبي فلم تتزحزح. يوم الأحد— فردوس الأطبّاء! الأطبّاء في النّوادي الرّيفيّة، الأطباء على الشواطئ، الأطبّاء مع عشيقاتهم، الأطبّاء مع زوجاتهم، الأطبّاء في الكنيسة، الأطباء في اليخوت، الأطبّاء في كل مكان— إنّهم عازمون على أن يكونوا بشراً عاديّين . . وليس أطبّاء.

«كُرمى لله»، قلتُ، «أخبريهم أنّني حالة طارئة».

لم يُجب الرّقم الثالث، وأغلق الرّقم الرّابع الخط حين أخبرته جوان أنّ الأمر يتعلق بالعادة الشهريّة. شرعت جْوان بالبكاء.

«انظري، جوان»، قلتُ جاهدةً، «اتصلي بالمستشفى المحليّ. أخبريهم أنّها حالة طارئة. عليهم أن يأتوا ليأخذوني».

أشرق وجه جوان، فاتصلت برقم خامس. وعدتها خدمة الطوارئ أنّ أحد أطبّاء المستشفى سيعتني بي إن استطعت الذهاب إليهم. حينئذ، طلبت جْوان سيّارة أجرة.

أصرّت جوان على أن تركب معي. قبضتُ على المناشف الجديدة بشيء من اليأس، فيما قطع السائق— الذي تأثر بالعنوان الذي أعطته له جوان— زاوية إثر زواية، في الشوارع التي يغشاها غبش الفجر، ثم توقّف، وعجلات سيّارته تصرّ عالياً، أمام مدخل قسم الطوارئ.

تركتُ جوان تدفع للسائق الأجرة، وهرعت إلى الغرفة الفارغة المشعّة. أسرعت ممرّضة من وراء حاجز أبيض. تمكنت، بكلمات سريعة قليلة، من إخبارها بحقيقة وضعي، قبل أن تأتي جوان عبر الباب، وهي ترمش بعينيها الواسعتين مثل بومة حَسيرة.

ثم جاء طبيب قسم الطوارئ، فصعدتُ، بمساعدة الممرّضة، إلى طاولة الفحص. همست الممرّضة في أُذن الطبيب، أومأ الطبيب وأخذ ينزع المناشف الغارفة في الدم. شعرت بأصابعه وهي تجس، فوقفت جوان— صارمة مثل جنديّ— إلى جواري، ماسكةً بيدي، لأجلي أو لأجلها، لم أستطع أن أعرف.

«أخ!» جفلتُ، حين شعرت بوخز شديد.

صفر الطبيب.

«أنت واحدة في المليون».

«ماذا تعني؟»

«أعني أنّ هذه الحالة تحدث مرّةً في المليون».

تحدث الطبيب إلى الممرّضة بصوت جافّ خفيض، فهرعت إلى طاولة جانبيّة، وأحضرت لفائف من شاش وأدوات فضيّة. ثم قال الطبيب وهو ينحني: «أستطيع أن أُحدد مصدر المشكلة».

«وهل تستطيع علاجه؟»

ضحك الطبيب. «أوه، يمكنني علاجه، سيكون كل شيء على ما يرام».

انتشلني من النّوم طرق خفيف على الباب. كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل، وكانت المصحة هادئة كالموت. لم أستطع أن أتخيّل من سيكون مستيقظاً حتى هذه الساعة.

«أدخل!» ثم أشعلت ضوءاً جانب السرير.

انفرج الباب قليلاً، فأطل رأس الدكتورة كوِنّ الحاد، المعتم، من الفُرجة. نظرت إليها مندهشةً، لأنّي أعرف من تكون، فغالباً ما مررت بها، بإيماءة قصيرة، في ممرّ المصحة، ولم أكلمها قط.

ثم قالت: «آنسة غرينوود، هل يمكنني الدخول لبعض الوقت؟»

أومأتُ لها.

دلفت الدكتورة كوِن إلى الغرفة، مغلقةً الباب بهدوء وراءها. كانت ترتدي إحدى بزّاتها الكُحليّة النّاصعة وبلوزة عاديّة بيضاء كالثلج تَبِينُ شكل

حرف في V عند العنق.

«متأسفة لإزعاجك، آنسة غرينوود، خاصّة في هذا الوقت من الليل، لكنّني فكرت أنّك قد تكوني قادرة على مساعدتنا بشأن جوان».

تساءلتُ، للحظة، إن كانت ستلومني الدكتورة كوِنّ بشأن عودة جوان إلى المصحة. ما زلت غير متأكدة مما عرفته جْوان، بعد رحلتنا إلى قسم الطوارئ، لكنّها عادت، بعد بضعة أيّام، لتقيم في بِلسَايز، محافظة، رغم ذلك، على امتيازات الذهاب إلى البلدة.

«سأفعل كل ما في وسعي»، أخبرت الدكتورة كوِنّ.

جلست الدكتورة كوِنّ على طرف سريري بوقار. «نود أن نعرف أين جْوان. ظننا أنّك قد تعرفين مكانها».

أردت، فجأة، أن أفصل نفسي عن جوان تماماً. «لا أدري»، قلتُ ببرودة. «أليست في غرفتها؟»

كان الوقت قد جاوز ساعة ناقوس الغروب.

«كلاّ، لقد سُمِح لها بالذهاب لمشاهدة فيلم في البلدة هذا المساء، ولم تَعُد بعد».

«من كان معها؟»

«كانت لوحدها». أطرقت الدكتورة كوِن. «ألديك فكرة أين يمكنها أن تقضي الليل؟»

«من المؤكد أنها ستعود. لا بُد أنّ شيئاً ما قد أعاقها». لكنّني لم أجد ما يمكن أن يعيقها في ليل بوسطن المُدجن.

هزّت الدكتورة كوِنّ رأسها. «مرّت آخر عربة ترولي منذ ساعة».

«ربّما ستعود في سيارة أُجرة»

تنهّدت الدكتورة كوِنّ.

«هل سألتم الآنسة كينيدي؟» واصلت كلامي. «أين كانت جوان تقيم عادة؟»

أومأت الدكتورة كوِنّ.

«وعائلتها؟»

«أوه، لم تذهب إلى هناك قط . . . لكنّنا اتصلنا بهم أيضاً».

تلكأت الدكتورة كوِن للحظة، كما لو تحاول أن تجد دليلاً ما في الغرفة الهادئة. ثم قالت: «حسناً، سنفعل كل ما في وسعنا»، وغادرت.

أطفأتُ الضوء، وحاولت الخلود إلى النّوم من جديد، غير أنّ وجه جوان لاح أمامي، متبسماً بلا جسد، مثل وجه القط تشَشِر[57]. حتى إنّني قد سمعت صوتها، يَحِفّ ويَحِفّ في العتمة، ثم أدركت أنّها ريح الليل في أشجار المصحة . . . .

أيقظني طرق خفيف آخر في الفجر الصّقيعيّ الكئيب.

فتحت الباب بنفسي هذه المرّة.

كانت الدكتورة كوِنّ تواجهني. وقفت بانتباه، كرقيب خَفَرٍ واهنٍ، لكنّ قسماتها بدت باهتة على نحو غريب.

«لا بُد أن تعرفي، على ما اعتقد» قالت الدكتورة كوِن. «لقد تم العثور على جوان».

جمد استخدام الدكتورة كوِنّ لصيغة المجهول الدمَ في عروقي.

57– Cheshire Cat: القط الشهير في رواية «أليس في بلاد العجائب» للويس كارول. (المراجع).

«أين؟»

«في الغابة، قرب البحيرات المتجمدة . . . .»

فتحت فمي، غير أنّي لم أَقْوَ على الكلام.

«وجدتها إحدى الممرّضات»، واصلت الدكتورة كونّ حديثها، «الآن فقط، وهي في طريقها إلى العمل . . . .»

«ليست . . .»

«ميّتة»، قالت الدكتورة كونّ. «أخشى أنّها قد شنقت نفسها».

(20)

وكان ثلج جديد قد انهمر فغطى أراضي المصحة— ليست نُدَفَ أعياد الميلاد، بل ثلج كانون الثاني الغامر بارتفاع قامة رجل، من ذلك النّوع الذي يتسبّب في تعطيل المدارس والمكاتب والكنائس، ويترك— ليوم أو أكثر— صفحة بيضاء فارغة في المُخاطَبات الرّسميّة ودفاتر المواعيد والتقاويم.

إن اجتزت مقابلتي مع مجلس المدراء خلال أسبوع، فإنّ السيّارة السوداء الكبيرة لفيلومينا غوينا ستقلني، غرباً، إلى أبواب كليّتي التي من حديد مطاوع.

قلبُ الشتاء!

ستغرق ماساتشوستس في هدوء ثقيل بارد. تخيّلت لوحات القرى المغطاة بالثلوج التي رسمتها غرَاندمَا مُوزِز[58]، وأراضي المستنقعات تخشخش فيها الأعشاب، والبِرك حيث كان الضفدع والسلور يحلمان في طبقة من الجليد، والغابات المُرتعشة.

ولكن، أسفل اللوح الصّخريّ المستوي والنّظيف على نحو مخادع، كانت الطوبوغرافيا هي ذاتها، وبدلاً من سان فرانسيسكو أو أوروبّا أو المرّيخ، فإنّني سأكتشف المنظر الطبيعيّ القديم ذاته، بجداوله وتلاله وأشجاره. بدا الأمر تافهاً على نحو ما: أن أبدأ بعد ستة أشهر، حين غادرت بعنف.

سيعرف الكل عنّي، بطبيعة الحال.

58- Grandma Moses: الاسم الذي اشتهرت به الرّسامة الشعبيّة الأميركيّة آنّا ماري روبرتسن مُوزِز (1860-1961)، والتي اشتهرت بلوحاتها التي تصور القرى والحياة القرويّة. (المراجع).

قالت الدكتورة نُولان— بصراحة تامة— أنّ أشخاصاً عديدين سيعاملونني بحذر شديد، أو قد يتجنّبونني، مثل مجذوم يحمل جرساً محذراً. لاح وجه أمي، قمراً مُؤنّباً شاحباً، خلال زيارتها الأخيرة والأولى للمصحة منذ عيد ميلادي العشرين. ابنةٌ في مصحة للأمراض العقليّة! أنا مَن تسبّب لها بذلك. ورغم ذلك، فقد قرّرت بوضوح أن تغفر لي.

«سنبدأ من حيث انتهينا، إِستِر»، قالت، بابتسامة عذبة تشبه ابتسامة الشهداء. «سنتصرّف كما لو كان كل ذلك حلماً فظيعاً».

حلم فظيع.

بالنّسبة إلى الشخص الذي في الناقوس الزجاجي، منهكاً وشاحباً كطفل ميّت، فإنّ العالم هو حلم فظيع.

حلم فظيع.

تذكرت كل شيء.

تذكرت الجثث، ودوريين، وحكاية شجرة التين، وماسة مَاركُو، والبحار الذي في متنزّة كُمن Common، وممرّضة الدكتور غوردن ذات العين البيضاء، وموازين الحرارة المكسورة، والزّنجيّ صاحب الفاصوليا واللوبياء، والعشرين جنيهاً التي ربحتها من الإنسولين، والصّخرة التي تظهر بين السماء والبحر كجمجمة رماديّة.

رُبّما يتوجب على النّسيان أن يخدرها— مثل ثلج طيّب— ويغطيها.

لكنّها كانت جزءاً منّي. كانت منظري الطبيعيّ.

«هناك رجل يود رؤيتك!»

حشرت الممرّضة المبتسمة، ذات القبّعة التي ببياض الثلج، رأسها

عبر الباب، فظننتُ- لبرهةٍ- أنّني عائدة إلى الكليّة، وأنّ هذا الأثاث الأبيض الأنيق، وهذا المنظر الأبيض الذي فوق الأشجار والتلال، أفضل بكثير من مكتب غرفتي القديمة وكراسيّها المكسورة ومنظرها الذي يُطل على ساحة الكليّة الجرداء. «ثمة رجل يود رؤيتك!» قالت الفتاة، التي تقوم بالحراسة، في هاتف المهجع.

بماذا نختلف، نحن اللواتي في بِلسَايز، عمن يلعبن البريدج ويثرثرن ويدرسن في الكليّة التي سوف أعود إليها؟ لقد كُنّ يجلسن، أيضاً، تحت نواقيس زجاجيّة من نوع ما.

«تفضل!»ناديتُ، فدخل بَدِي ويلارد إلى الغرفة، حاملاً طاقيّة خاكيّة في يده.

«حسناً، بَدِي»، قلتُ.

«حسناً، إسترِ».

وقفنا، ننظرُ إلى بعضنا. انتظرتُ كي تتحرّك مشاعري نحوه، ولو حتى قليلاً. لا شيء. لا شيء سوى ضجر أَنِيس عظيم. بدت قامة بَدِي، في السُترة الخاكيّة، صغيرةً، ولا تمت لي بأيّة صلة، مثل الأعمدة البنيّة التي وقف أمامها في ذلك اليوم، منذ سنة، أسفل مدرج التزلُج.

«كيف وصلت إلى هنا؟» سألته أخيراً.

«بسيّارة أُمي»

«في كل هذا الثلج؟»

«حسناً»، تبسم بَدِي، «لقد علقت في جَرف ثلجيّ في الخارج. كان التل صعباً عليّ. هل يوجد مكان هنا أستطيع استئجار رَفْش منه»؟

«يمكننا الحصول على رَفْش من أحد البُستانيّين».

«جيّد». استدار بَدِي ليذهب.

«انتظِر، سآتي لأساعدك».

حينئذ، نظر بَدِي إليّ، فرأيت في عينيه وميض غرابةٍ: ذات الفضول المشوب بالحَذَر الذي لمحته في عيون العالمة المسيحيّة، وأستاذي القديم الذي يُدرّس الإنجليزيّة، والقِس المُوحد، الذين كانوا يزورونني.

«أوه، بَدِي»، ضحكتُ. «إنّني بخير».

«أوه، أعلم، أعلم، إستر»، قال بسرعةٍ.

«أنتَ من لا يتوجب عليه القيام بذلك. وليسَ أنا».

وتركني أُنجز معظم العمل.

كانت السيّارة قد انزلقت على التل المتجمد إلى المصحة، ثم تراجعت، بعجلة على حافّة الطريق، إلى الجَرف الثلجيّ المرتفع.

أشرقت الشمس، التي انبثقت من حُجُب غيومها الرّماديّة، بأشعّة الصّيف على المنحدرات التي لم يطأها أحد. توقّفت عن العمل لأرى تلك الرّحابة البدائيّة، فاعترتني ذات الرّعدة لرؤية الأشجار والعشب الذي يتطاول حد الخصر أسفل مياه المَد— كما لو كان النّظامُ الطبيعيّ للعالم قد انحرف قليلاً، ودخل في مرحلة جديدة.

كنت ممتنّة للسيّارة والجَرف الثلجيّ لأنهما حالا دون أسئلة بَدِي المرتقبة. لكنّه سألني، في آخر الأمر، بصوت متوتر خفيض، ونحن نحتسي شاي ما بعد الظهيرة في بِلسَايز. كانت دِيدِي ترقبنا، مثل قطة حسودة، من فوق حافّة فنجان شايها. كانت دِيدِي قد انتقلت، بعد وفاة جوان، إلى وَايمَارك

لفترة وجيزة، ولكنّها الآن بيننا من جديد.

«كنتُ أتساءل . . .» وضع بَدِي فنجانه في صحنه بقعقعة غريبة.

«عَمَ كنت تتساءل؟»

«كنتُ أتساءل . . . أعني، فكرتُ أنّك قد تكونين قادرة على إخباري بشيء ما». تلاقت نظراتنا، فرأيتُ— لأول مرّة— كم تغيّر. فبدلاً من الابتسامة الواثقة القديمة التي كانت تلمع بسهولة غالباً، كمصباح مُصور فوتوغرافيّ، كان وجهه قاتماً، وحتى متردداً— مثل وجه رجل لا يحصل على ما يريده غالباً.

«سأخبرك إن استطعت ذلك، بَدِي».

«هل تعتقدين أنّ شيئاً ما فيَّ يجعل النّساء يصبن بالجنون؟»

لم أتمالك نفسي، انفجرت ضاحكةً— لعلها جِديّة وجه بَدِي والمعنى المتداول لكلمة «جنون» في جملته تلك.

«أعني»، واصل بَدِي كلامه، «كنت أُواعد جوان، ثم أنتِ، ولكنّكِ . . . رحلتِ، ثم جوان . . .»

برفق— وبإصبع واحد— ألقيتُ كسرة كعك في قطرة شاي أسود رطبة.

«بالطبع، لا دخل لك في ذلك!» سمعتُ الدكتورة نُولان تقول. كنت قد ذهبت إليها بشأن جوان، وكانت تلك هي المرّة الوحيدة التي أذكر أنّها بَدَت غاضبة: «لا دخل لأحد في ذلك. هي، وحدها، المسؤولة». ثم أخبرتني كيف أنّ هنالك حالات انتحار بين مرضى أفضل الأطبّاء النّفسانيّين، فكيف يمكن أن يُلاموا على ذلك— إن كان ثمة مَن يُلام— لكنّهم لا يعتبرون أنفسهم

مسؤولين . . . .

«لا علاقة لك بما حدث، بَدِي».

«هل أنت متأكدة؟»

«طبعاً».

«حسناً»، تنفّس بَدِي الصّعداء. «أنا سعيد لسماع ذلك».

وتجرّع شايه مثل دواء مُنشِط.

«سمعتُ أنّك ستتركينا».

دخلت إلى جانب ڤاليري ضمن المجموعة الصّغيرة التي تشرف عليها الممرّضة. «إن وافق الأطبّاء فقط. سيقابلونني غداً».

صَرّ الثلج المُكدس تحت الأقدام، فسمعت موسيقى ذوبان الماء وتقاطره، حين أذابت شمس الظهيرة كتل الجليد وطبقات الثلج التي ستصبح صقيلة، ثانيةً، قبل هبوط الليل.

كانت ظلال أشجار الصّنوبر السوداء المحتشدة خُزاميّةً في ذلك الضيّاء الوهّاج، فمشيت، رفقة ڤاليري، لبرهة، على طول المتاهة الحميمة لمسالك المصحة التي فُتِحت بالرّفوش. كان الأطبّاء والممرّضات والمرضى يعبرون مسالك متجاورة تبدو كأنّها تتحرّك على عجلات، فيما يشطرهم الثلج المكدس عند الخصر.

«مقابلات!» أطلقت ڤاليري صوتاً يشبه الشخير. «إنّها بدون طائل! إن كانوا سيطلقون سراحك، فإنّهم سيطلقون سراحك».

«آمل ذلك».

أمام كَاپْلان، قلتُ وداعاً لوجه ڤاليري الهادئ الذي ببياض الثلج—

والذي لا يمكن أن يُظهر أيّ شيء، شرّاً كان أم خيراً— وسرت وحيدةً، أزفر أنفاساً بيضاء حتى في الجو الطافح بالشمس. كانت آخرُ صيحةِ ابتهاجٍ قالتها ڤاليري: «وداعاً! إلى اللقاء».

«لا أعرف»، فكرت.

لم أكُن متأكدة. لم أكُن متأكدة أبداً. كيف سأعرف أنّ الناقوس الزجاجي سيهبط، ذات يوم— في الكليّة، في أوروبّا، في مكانٍ ما، في أيّ مكان— بتشوهاته الخانقة ثانيةً؟

ألم يقُل بَدِي، كما لو كان ينتقم لنفسه حين حفرت لأخرج السيّارة من الثلج وهو يتفرّج: «أتساءل من ستتزوجين الآن، إِستِر».

«ماذا؟» قلتُ، وأنا أكوم الثلج الذي أجرفة، ناظرةً بعينين طارفتين لحجب النُدَف التي تلسعهما حين تذروها الرّياح.

«أتساءل من ستتزوجين الآن، إِستِر. الآن وقد كنتِ . . .»— وأحاطت إيماءةٌ بالتل وأشجار الصّنوبر والبنايات المتجهّمة المغطاة بالثلج وهي تشقّ المنظر الطبيعيّ المترامي— «هُنَا»

ولم أكن أعلم من سيتزوجني الآن، بعد أن كنت حيث كنت. لم أعرف أبداً.

«لديّ فاتورة هنا، إيرون».

تحدثت، بهدوء، في سماعة هاتف المصحة العموميّ الذي في الممرّ الرّئيس لبناية الإدارة. شككت، بادئ الأمر، أن تكون عاملة المقسم تتنّصت، لكنّها واصلت وضع الصِمَامات الصّغيرة ونزعها من دون أن يطرف لها جفن.

«نعم»، قال إيرون.

«إنّها فاتورة بعشرين دولاراً مقابل عناية في قسم الطوارئ ذات يوم من كانون الأول والفحص الذي تلا ذلك بأسبوع».

«نعم»، قال إيرون.

«يقول المستشفى إنّهم يرسلون الفاتورة لأنّهم لم يتلقوا جواباً على الفاتورة التي أرسلوها إليك».

«حسناً، حسناً، إنّني أكتب شيكاً الآن. إنّني أكتب لهم شيكاً على بياض». ثم تغيّر صوت إيرون على نحو مهذب. «متى سأراك؟»

«أتريدُ أن تعرف حقّاً؟»

«كثيراً جداً».

«أبداً»، قلتُ، وأغلقت السماعة بقرقعة حازمة.

تساءلت لحظةً إن كان إيرون سيرسل الشيك إلى المستشفى بعد هذه الحادثة، ثم فكرت: «سيرسله بالطبع، إنّه أستاذ في الرّياضيّات— لن يرغب في ترك أيّة أمور عالقة».

شعرت، على نحو لا يمكن تفسيره، بالرّاحة وضعف الإرادة.

لم يَعنِ صوت إيرون أيّ شيء إليّ.

كانت هذه هي المرّة الأولى— منذ لقائنا الأول والأخير— التي تحدثت فيها إليه، وكنت على يقين أنّها ستكون الأخيرة. لم يكُن لدى إيرون أيّ سبيل للوصول إليّ، إلاّ بالذهاب إلى شقّة الممرّضة كينيدي التي انتقلت، بعد وفاة جوان، إلى مكان آخر، من دون أن تخلف أثراً وراءها.

كنتُ حُرّة تماماً.

دعاني والدا جوان إلى الجنازة.

لقد كنتُ — قالتِ السيّدة غِلِنغ — واحدة من أعزّ صديقات جْوان.

«لست ملزمة بالذهاب، كما تعلمين» قالت لي الدكتورة نُولان. «يمكنك الكتابة دائماً، قائلةً إنّني قد أخبرتك أنّه من الأفضل ألاّ تذهبي».

«سأذهب»، قلتُ، وقد ذهبت فعلاً. تساءلت، طيلة القُداس البسيط، ما الذي أظنّ إنّني أُواريه الثرى.

وعلى المذبح، لاح الكفن في أزهاره التي بشحوب الثلج — ظلاًّ أسود لشيء لم يكُن هناك. كانت الوجوه، في المقاعد الخشبيّة الطويلة التي حولي، شاحبةً في ضوء الشموع، وأغصان الصّنوبر، التي تبقّت من أعياد الميلاد، وتبعث في الهواء البارد عبق بخور جنائزيّ.

تورّدت وجنتا جوان — قُربِي — كتفّاحتين كاملتين. تعرّفت، هنا وهناك، في جَمع المُعزّين المحتشدين للصّلاة في الكنيسة، على وجوه فتيات أُخريات من الكليّة، ومن بلدتي، مِمن عرفن جوان. أحنت دِيدِي والممرّضة كينيدي رأسيهما المُغطين بمنديلين في المقعد الخشبيّ الأماميّ.

ثم رأيت — خلف الكفن والأزهار ووجه القِس ووجوه المُعزّين — المروج المترامية لمقبرة بلدتنا، وهي غارقة في الثلج حتى الرُّكَب، وشواهد القبور تتطاول منها كمداخن بدون دخان.

ستكون حفرة سوداء، بعمق ستة أقدام، تشقّ هذه الأرض الصّلبة. سيتحد ذلك الظل في هذا الظل، وترتق تُربتنا الصّفراء الفريدة الجرح الذي في البياض، ويمحو هطول ثلج آخر آثار حداثة قبر جوان.

أخذت نفساً عميقاً وأنصت إلى التبجُج القديم لقلبي.

أنا، أنا، أنا.

كان الأطبّاء في اجتماع المجلس الأسبوعيّ— الحالات القديمة، الحالات الجديدة، الحالات التي سيسمح لها بالدخول، الحالات التي ستخرج، والمقابلات. وأنا أتصفّح— عبثاً— عدداً مهترئاً من مجلة ناشونال جيوغرافيك في مكتبة المصحة، انتظرتُ دوري.

دار المرضى— رفقة الممرّضات— على الرفوف المكدسة، يتحدثون، بأصوات خفيضة، مع قيّمة مكتبة المصحة، والتي كانت إحدى نزيلات المصحة في السابق. تساءلت، وأنا أنظر إليها— عانساً، كليلة البصر، متواريةً عن الأنظار— كيف علمت أنها قد غادرت المصحة نهائيّاً، وإنّها، بخلاف الذين يرتادون المكتبة، قد شفيت تماماً.

«لا تجزعي»، قالت لي الدكتورة نُولان. «سأكون هناك، وباقي الأطبّاء الذين تعرفينهم، وبعض الزوار. سيسألك الدكتور ڤِنِنغ Vining، رئيس الأطبّاء، بعض الأسئلة، ثم يمكنك الانصراف».

إلاّ إنّني، ورغم تطمينات الدكتورة نُولان، كنت خائفة حتى الموت.

أَملتُ، عند مغادرتي، أن أشعر بالثقة، وأن أعرف كل شيء عن الأشياء التي تنتظرني—على أيّة حالٍ، فقد تم عمل بعض «التحاليل» لي. ورغم ذلك، فإنّ كل ما استطعت رؤيته كان مجرّد علامات استفهام.

واصلت إلقاء نظرات نافدة الصّبر على باب غرفة مجلس الإدارة المغلق. كانت درزات جواربي مستقيمة، وحذائي الأسود مشقّقاً، ولكنّه مُلمع، وسُترتي الصّوفيّة الحمراء متوهّجة مثل مخططاتي. شيء قديم، شيء جديد . . .

ولكنّني لم أكُن أخطط للزّواج. لا بُدَ أن ثمة طقساً للولادة من جديد، بعد أن شُفيت وسُمح لي بالخروج، كنتُ أحاول التفكير في شخص مناسب،

حين ظهرت الدكتورة نُولان من حيث لا أعلم، وربّتت على كتفي.

«حسناً، إستِر»

نهضتُ وتبعتها إلى الباب المفتوح.

وحين ترددتُ، لالتقاط نفس قصير، عند العتبة، رأيت الطبيب ذا الشعر الفضيّ، الذي حدثني، في يومي الأول، عن الأنهار والمهاجرين الإنجليز. ثم رأيت وجه الآنسة هيوي الشاحب ذا البثور، وبعض العيون التي ظننت أنّي أعرفها، وهي فوق أقنعة بيضاء.

استدارت كل العيون والوجوه نحوي، وهي ترشدني إلى الطريق، كما لو كانت شعاعاً سحريّاً، ثم دلفتُ إلى الغرفة.

الناقوس الزجاجي وحياة سيلڤيا پلاث:
نبذة حياة

بقلم: لويس إِيمس

نُشرت [رواية] الناقوس الزجاجي، لأول مرّة، بلندن، في كانون الثاني لسنة 1963، من قبَل [منشورات] وليام هاينمان المحدودة، تحت الاسم المستعار: ڤيكتوريا لوكاس. لقد اتخذت سيلڤيا پلاث [هذا] الاسم المستعار لنشر روايتها الأولى، ذاك إنّها شكت في قيمتها الأدبيّة، ولم تؤمن أنّها كانت «عملاً جاداً؛ كما خشيت أن يتسبّب النّشر بالألم لعدة أشخاص قريبين منها، والذين قامت بتحريف شخصيّاتهم، وإخفائها— على نحو يسهل التعرُّف عليها— في الكتاب.

شكلت الثيمات المركزيّة لحياة سيلڤيا پلاث المبكرة أساس ***الناقوس الزجاجي***. كانت [پلاث] قد وُلدت سنةَ 1932، في ماساتشوستس، وقضت سنين طفولتها المبكرة في وِنثرَب Winthrop، وهي بلدة ساحليّة قريبة من بوسطن. كان والدا أُمها نمساويّين، وكان أبوها— الأستاذ البارز في علم الأحياء بجامعة بوسطن (والحُجة العالميّة المعروفة في ميدان النحل)— قد هاجر إلى الولايات المتحدة، قادماً إليها من پولندا، في سنّ المراهقة. كما كان لديها أخ وحيد يصغرها بعامين ونصف. تعرّضت حياة سيلڤيا لتغيُّر جذريّ حين كانت في الثامنة: ففي تشرين الثاني لسنة 1940، مات أبوها بعد معاناة طويلة وشاقّة مع

المرض، فنقلت الأُم والجدان العائلة إلى الداخل، إلى بلدة وِلزلِي Wellesley، وهي ضاحية محافظة للطبقة المتوسطة العليا في بوسطن. وفيما تولت الجدة شؤون البيت، انصرفت السيّدة پلاث إلى التدريس ضمن البرنامج التدريبيّ للسكرتاريا الطبيّة بجامعة بوسطن، متنقّلة كل يوم، جيئة وذهاباً، بين المنزل والعمل، أما الجد فقد اشتغل كرئيس للنّدلاء في النّادي الرّيفيّ بِبْروكلاين Brookline، حيث كان يقيم خلال الأسبوع. ارتادت سيلڤيا وشقيقها المدارس العموميّة المحليّة. «ذهبتُ إلى مدارس حكوميّة»— كتبت لاحقاً— «مدارس عموميّة حقيقيّة. لقد تردد الجميع على تلك المدارس». بدأت تكتب القصائد وترسم بالقلم والحبر، في سنّ مبكرة، فحصدت الجوائز في كلا النّشاطين. وحين بلغت السابعة عشرة، بات اهتمامها بالكتابة منتظماً ومنضبطاً. غير أنّ النّشر لم يتحقّق بسهولة؛ أرسلت خمساً وأربعين قصّة لـمجلة سَڤَنتيين Seventeen، قبل أن تُنشَر قصّتها القصيرة الأولى، «ولن يحل الصّيف ثانيةً»، في عدد آب لسنة 1950. كما قُبِلت قصيدتها، «فراولة مُرّة»— وهي تعليق ساخر عن الحرب— ونشرتها، في ذات الشهر، [صحيفة] كرِستيَان صَايَنص مونيتور Christian Science Monitor. وفي الكتاب السنويّ التذكاريّ— الوِلزلِيّ The Wellesleyan— الذي أصدرته مدرستها الثانويّة، فإنّ الفتاة التي وصفت نفسها، لاحقاً، بالـ «المراهقة البراغماتيّة المتطرّفة»، كانت مصورةً على النّحو التالي:

إبتسامة دافئة . . . عاملة نشيطة . . . استثنائيّة في عزف بَمبِل بُوغِي Bumble Boogie على البيانو . . . حذقة في استعمال

الطباشير والألـوان . . . عطل نهايات الأسبوع بِـ [كليّة] وليامز . . . تلك الشطائر المُوضبة بعناية . . . كاتبة مستقبليّة . . . قصاصات الرّفض التي أرسلتها مجلة سِفِنتيين . . . أوه، للحصول على إذِن.

في أيلول لسنة 1950، التحقت سيلڤيا بكليّة سميث بِنُورثامبتِن Northampton، في ماساتشوستس، وهي أكبر كليّة للنّساء في العالم. ذهبت بفضل منحتين دراسيّتين— واحدة من نادي وِلزلِي- سميث، وأخرى وهبتها أوليف هيغنز پراوتي Olive Higgins Prouty، الرّوائيّة ومؤلفة [رواية] ستيلا دالاس، والتي ستغدو لاحقاً صديقتها وراعيتها. كانت تلك هي السنوات التي كتبت فيها پلاث الشعر، وفقاً لمواعيد محددة، واضعة دوائر على كلمات في القاموس المجلد بالأحمر الذي كان لأبيها، محافظة على كتابة يوميّات مفصّلة، محتفظة بسجل قصاصات مُرتب بعناية فائقة، ومنكبّة على دروسها بتركيز. وحيث إنّها كانت طالبة متفوقة جداً، فقد أختيرت للقيام بمهام في الصفّ والكليّة؛ أصبحت عضوة في هيئة تحرير [مجلة] سميث ريڤيو، ذهبت لقضاء عطل نهايات الأسبوع في كليّات الرّجال، ونشرت قصصاً وقصائد في [مجلة] سِفِنتيين. ولكنّها كتبت، في ذلك الوقت، في إحدى الرّسائل، قائلةً: «ورغم النّجاحات الماديّة الصّغيرة القليلة التي يبدو أنّني حقّقتها، إلاّ أنّ هواجس وشكوكاً ذاتيّةً كثيرة تعتمل فيّ». وعن هذه الفترة قالت إحدى صديقاتها: «بدت سيلڤيا كما لو أنّها لم تكن قادرة على انتظار أن تأتي الحياة إليها . . . فهرعت لترحب بها، لتجعل الأشياء تحدث».

وما إن تزايد وعيها بذاتها كامرأة حتى بات الصّراع بين أسلوب حياة شاعرة/مثقّفة، وذاك الذي لزوجة وأُم، شاغلها الرّئيس، فكتبت: «إنّه لأمر مدهش حقّاً، كيف أمضيت جُل حياتي كما لو أنّني أحيا في الجو النّقيّ تحت ناقوس زجاجيّ». وفي آب لسنة 1951، فازت بجائزة القصة التي نظمتها مجلة مادموزيل Mademoiselle عن قصّتها القصيرة «يوم الأحد عند آل منتون Mintons»، وفي السنة التالية، سنتها الأولى في الكليّة، حصلت سيلفْيا على جائزتين في الشعر من كليّة سميث، فانتخبت عضوة في جمعيّة فَاي بِيتَا كَابّا Phi Beta Kapppa[59] وفي جمعيّة ألفا Alpha، جمعيّة الفنون الشرفيّة في كليّة سميث. ثم أختيرت، في صيف 1952، لتكون محرّرة زائرةً في لجنة مسابقة مجلة مادموزيل بالكليّة. وصفت، في دفتر قصاصاتها، بداية ذلك الشهر في نيو يورك بأسلوب المجلة ذي النّبرة العالية:

> بعد أن كنتُ إحدى الفائزتين بمسابقة القصّة (500 دولار) التي نظمتها مجلة مادموزيل، على الصّعيد القوميّ، في آب الماضي، شعرت أنّني كنت عائدة إلى البيت ثانية، حين اختاروني لتمثيل كليّة سميث كمحرّرة زائرة، فركبت القطار إلى مدينة نيو يورك لقاء شهر مدفوع الأجر، أعمل— وأنا أعتمر قبّعات وأرتدي أحذية بكعوب عالية— في مكاتب مجلة مادموزيل المكيّفة بجادة ماديسن. مكاتب . . . . مذهلة، خرافيّة، وكل الصّفات الأخرى غير الكافية لوصف الأسابيع الأربعة الهَيُوليّة، التي تخللتها

59- جمعيّة شرفيّة مهمتها الاحتفاء بالتفوق في الفنون والعلوم والدفاع عنها. (المراجع).

حفلات عشاء فخمة؛ تلك [الأسابيع] التي عملت فيها سكرتيرة تحرير زائرة . . . أعيش ببذخ في فندق بَاربِيزون Barbizon. حرّرت المقالات، قابلت المشاهير، وتم الاحتفاء بي من طرف مجموعة من مندوبي الأُمم المتحدة والمترجمين الفوريّين والفنّانين . . . كان شهراً من المرح لا يصدق— لقد التقت سندريلا [كليّة] سميث، هذه، معبودي الجماهير: ڤَانس بُورجِيلِي Vance Bourjaily، پُول إِنغِل Paul Engle، إليزابيت بُووِن Elizabeth Bowen . كما كتبت مقالات، بالمراسلة، عن خمسة شعراء شبّان وسيمين، يدرّسون في الجامعات.

وقد كان هؤلاء الشعراء هم: أليستير رييد Alistair Reid، أنتوني هِشت Anthony Hecht، ريتشارد وِلبَر Richard Wilbur، جورج ستاينر Grorge Steiner، ووليام بورفورد William Burford، والذين ظهرت صورهم إلى جانب نبذات عن حيواتهم وتعقيبات على شعرهم.

بعد 230 صفحة من الإعلانات، قدمت سيلڤيا العدد الضخم من مجلة الكليّة، والذي صدر في آب 1953، باعتبارها سكرتيرة التحرير الزّائرة، بمقالة بعنوان «كلمات أخيرة لـ [مجلة] مادموزيل حول العام الدراسيّ، 1953». أسفل صورة مبتذلة للمحرّرات الزّائرات، وهُنّ يُشابكن أياديهنّ في شكل نجمة، ويرتدين تنانير متشابهة من الطَرطَان مع قبّعاتِ [كليّة] إيتون Eton التي تتناسب معها،

ويتسمن صاخباتٍ، كتبت:

نحنُ المُحدقات إلى النّجوم، في هذا الفصل، يفتننا جو الأزرق المسائيّ. قبل كل شيء، في كوكبة الأزياء، تلوح تنانيرُ طَرطانِ مجلةِ مادموزيل، تنوُع السُتَر الهائل، والرّجال، الرّجال، الرّجال-- لقد نزعنا القمصان عن ظهورهم! ونحن نركز تِلسكُوبنا telescope على أخبار الكليّات حول العالم، فإنّنا نَنقاش [تلك الأخبار] ونتداولها. ومن بين المواضيع التي أسقطنا الضوء عليها: الحريّة الأكاديميّة، جدل النّوادي النّسويّة، جيلنا الموصوف كثيراً والمُشهَّر به. ومن المجالات الأثيرة لدينا، ألقت نجوم عظيمة تأثيراً وهّاجاً على مشاريعنا العمليّة ومستقبلنا. ورغم أن لا بُروجَ في أفلاكنا النّهائيّة بعد، فإنّنا- نحن المحرّرات الزّائرات- نعول على بشارة واعدة لأمنيات النّجاح التي تمنّتها لنا مجلة مادموزيل، نجمة الحياة الجامعيّة.

ولا شك أنّها كانت أكثر سعادة بالصّفحة 358، حين نشرت المجلة قصيدتها ذات التَقفية الثنائيّة، والمفضلة لديها: «أنشودة حُبّ فتاة مجنونة».

أنشودة حُبّ فتاة مجنونة

قصيدة ثنائيّة التقفية

سيلڤيا پلاث

كليّة سميث، 1954

أغمضتُ عينيّ، فانهار العالم كله؛
فتحتُ جفوني، فَوُلِدَ كل شيء من جديد.
(أظنُّنِي أوجدتكَ في عقلي)

ترقصُ النّجوم القالس بالأزرق والأحمر،
فتقفز عتمةٌ عبثيّة:
أُغمض عينيّ، فينهار العالم كله.

حلمتُ إنّك قُدتني، مفتونةً، إلى سريك
غنيّت لي مأخوذاً، وقبّلتني بجنون.
(أظنّني أوجدتك في عقلي)

يهوي الرّبُّ من السماء وتخبو نار الجحيم:
يخرج السَارُوفِيمُ وأتباعُ الشيطان:

أغمض عينيّ، فينهار العالمُ كله.

أتخيّل إنّك ستعود مثلما أخبرتني،
لكنّني أشيخُ، فأنسى اسمك.
(أظنّني أوجدتك في عقلي)

كان عليَّ أن أُحبَّ طائر الرّعد؛
فحين يحل الرّبيع يصدحُ ثانيةً.
أغمضُ عينيّ، فينهارُ العالمُ كله.
(أظنّني أوجدتكَ في عقلي)

في ذلك الصّيف، أيضاً، دفعت مجلة هَارپَرز مئة دولار لقاء ثلاث قصائد، وقد اعتبرتها سيلڤيا «أُولى مكاسبها الاحترافيّة». لاحقاً، وهي تُقيّم هذه الإنجازات الخادعة، كتبت: «على العموم، شعرت إنّني محمولة على موجةِ نجاحٍ إبداعيّ واجتماعيّ وماديّ — ورغم ذلك، فإنّ ستة شهور من الإفلاس كانتْ على وشك أن تأتي».

كانت هذه هي الأحداث التي وقعت في حياتها في صيف سنة 1953 وخريفها— في زمن إعدام آل روزنبيرغ بالصّعقة الكهربائيّة، وفي الزّمن الذي كان يوطد فيه السيناتور جوزيف مكارثي سلطته، إبّان بداية رئاسة آيزنهاور— هذه هي الأحداث التي أعادت سيلڤيا پلاث بناءها في *الناقوس الزجاجي*. وبعد

سنوات، وصفت الكتاب الذي أرادت أن تكتبه، قائلةً:

ضغوطات عالم مجلة الموضة التي قد تبدو سطحيّة وزائفة على نحو متزايد، العودة إلى المنزل، إلى عالم الصّيف الذي يفتقد البهجة بإحدى ضواحي بوسطن. هنا، تتسع الشقوق في طبيعتها [طبيعة البطلة، إسِتر غرينوود] التي كانت متماسكة مع بعضها، كما لو كانت بفعل ضغوطات نيو يورك المحيطة بها، وتنشقّ على نحو ينذر بالخطر. ثم، شيئاً فشيئاً، تبدو وجهة نظرها المنحرفة عن العالم المحيط بها— حياتها المنزليّة الفارغة، وحياة جيرانها— الطريقة الوحيدة التي تنظر بها إلى الأشياء.

ثم يأتي— بالنّسبة إلى سيلڤيا— العلاج بالصّعقة الكهربائيّة، ومن ثَم اختفاؤها الذي حظي بتغطية إعلاميّة واسعة، ثم العثور عليها، لاحقاً، وإيداعها المستشفى للمعاجلة النّفسيّة والمزيد من الصّعقات الكهربائيّة. كتبت: «وقتٌ من العتمة واليأس وخيبة الأمل— شديد السواد كما جحيم العقل الإنسانيّ فحسب— موت رمزيّ، وهِزّة تشل— ثم الكَرب الأليم للولادة البطيئة من جديد، وإعادة الانبعاث الرّوحيّ».

ومِن ثَم عادت سيلڤيا إلى كليّة سميث، وتغلبت، ثانيةً، على «الحصان العجوز الجامح الذي ألقى بها على الأرض، في السنة الماضية، لأنّه بلا رسَن». وكتبت، في بداية الصّيف التالي: «فصل من إعادة البناء ينتهي بنجاح مثير أشد صلابة، وإن كان أقل بهجة من العام الماضي». وكانت قد باعت، قرب نهاية

السنة الدراسيّة التالية، قصائد أكثر، ونالت جوائز إضافيّة، وكتبت أطروحتها الطويلة، للحصول على الإجازة في الأدب الإنجليزيّ، حول ازدواجيّة الشخصيّة في روايات دوستويفسكي. تخرّجت، في حزيران لسنة 1955، من كليّة سميث، بتفوق مع مرتبة الشرف، مع احتمال حصولها على منحة فولبرايت Fulbright لدراسة الإنجليزيّة، لمدة عام، في كليّة نيوهام بجامعة كيمبريدج. هناك، التقت سيلڤيا بالشاعر البريطانيّ تيد هيوز Ted Hughes، الذي تزوجته، في لندن، في 16 حزيران 1956: يوم بلووم [60]. جُددت منحة فولبرايت، وبعد عطلة في إسبانيا، عاش تيد وسيلڤيا في كيمبريدج لسنة أخرى. ثم انتقلا، في ربيع 1957، إلى الولايات المتحدة، حيث اعتبرت سيلڤيا، من طرف زملائها، «واحدة من أفضل مُدرِّسين، أو ثلاثة، في شعبة اللغة الإنجليزيّة بكليّة سميث أبداً».

من المحتمل أن تكون سيلڤيا قد احتفظت بنسخة من *الناقوس الزجاجي* بين أمتعتها، حين عادت إلى الولايات المتحدة، لكنّها كانت تُركز كل جهودها على الشعر والتدريس. تقدمت، في حزيران 1958، بطلب للحصول على منحة أُوجين إف. ساكستن لتنهي كتاب قصائدها. كانت منحة ساكستن قد أُنشئت لـ «تكريم محرّر متميّز بدار هارپر آند بْرَذَرز للنّشر»؛ وكان مجلس الأمناء يقدم، بناء على تحفّظ أعضائه، منحاً كاملة لإعالة الكتاب ماديّاً. وكانت موافقة ثلاثة أعضاء ضروريّة للحصول على المنحة، وقد لاحظ أحد الأعضاء— والذي اعتبر عيّنة القصائد المقدمة «فوق النّقد»— قائلاً: « بالنّظر في تاريخ السيدة

60- Bloomsday: يوم الاحتفاء، في دبلين، بالرّوائيّ الإيرلنديّ جيمس جويس وروايته عوليس التي جرت أحداثها في نفس اليوم: السادس عشر من حزيران لسنة 1904. (المترجم). [والاسم مشتقّ من ليوبولد بلووم، بطل الرّاوية (المراجع)].

هيوز، فإنني أرى أنها قد حصلت على جوائز قيمة خلال معظم سِنِي رشدها. ربما لن يضيرها الاستمرار في عملها، لبعض الوقت، كمدرسة في كلية رائعة. موقفي هو الرفض، رغم أنني أعتقد أن نوعية عملها تؤهلها لأن تعامَل معاملة جدية». رُفض الطلب، في العام 1958، مرفقاً برسالة خاصّة من سكرتير مجلس الأمناء، الذي أراد إعلام السيدة هيوز أن «طلبها قد أثار اهتماماً أكثر من عاديّ. فالموهبة— التي لمسناها— لم تكن موضع تساؤل، بل طبيعة المشروع ذاتها».

خلال هذه الأثناء، انتقل آل هيوز إلى شقّة صغيرة على تل بيكون Beacon، «نحيا في ظروف صعبة لمدة عام في بوسطن، ونكتب لنرى ما يمكننا فعله». كانت سيلڤيا قد اتخذت القرار الصّعب بالتخلي عن التدريس، ورفض مخطط أكاديميّ كانت تتهيّأ له منذ طفولتها، مقابل نمط حياة أقل يقيناً، لكنه سيمنحها المزيد من الوقت لكي تكتب. ولكنها، مع مرور السنة، وإرسالها المتواصل لكتاب قصائدها، ورفضه المتكرر تحت ذرائع متغيّرة، كتبت:

> لا شيء كريه الرّائحة مثل كومة من كتابات لم تنشر بعد، والذي أعتقد أنّه دليل على إنّني لا أمتلك دافعاً خالصاً نحو الكتابة (آه—إنّه—لأمر—رائع—إنّني—لا—أستطيع— التوقّف—مَن— يكترث—إن—نُشِرَ[الكتاب]—أو—قُرِئ) . . . ما زلت راغبة في أن أراه وقد حظي بطقوس النّشر.

وفي كانون الأول 1959، عاد تيد وسيلڤيا للإقامة في إنجلترا. وفي نيسان 1960، وُلدت فْريدا Frieda، ابنتهم الأولى. كما تمت الموافقة، أخيراً،

على نشر كتابها الشعريّ، *التمثال الضخم*، من طرف دار وليام هاينمان المحدود للنّشر. ثم تعرّضت سيلڤيا، في وقت لاحق، إلى الإجهاض، كما أجريت لها عمليّة لاستئصال الزّائدة الدوديّة، ثم صارت حاملاً مرّة أخرى. وفي أيّار 1961، تقدمت بطلب جديد إلى مجلس أمناء منحة ساكستن؛ هذه المرّة لإنجاز رواية قالت إنّها أنهت سدسها— نحو خمسين صفحة. سألت سيلڤيا في طلبها منحة ماليّة لتغطية نفقات «جليسة أطفال أو مربيّة تتقاضى نحو خمسة دولارات في اليوم، ستة أيّام في الأسبوع طيلة عام كامل، أيّ ما يعادل 1560$. إضافة إلى استئجار غرفة للدراسة بنحو عشرة دولارات في الأسبوع: 520$ في السنة. المجموع: 2080$ . . . . (أعيش، حاليّاً، في شقّة من غرفتين مع زوجي وطفلة تبلغ من العمر عاماً واحداً، وعليّ أن أعمل جزئيّاً لتحمل نفقات المعيشة)». كما كتبت لإحدى صديقاتها إنّها «أنجزت ثلث رواية حول فتاة جامعيّة مضطربة تتعرّض لانهيار عصبيّ». كتبت تقول:

> لقد رغبت في إنجاز ذلك طيلة عشر سنين، لكن عائقاً رهيباً قد حال دون الكتابة الروائيّة. ثم، فجأة، وفي بداية المفاوضات مع ناشر نيويوركيّ، لإصدار طبعة أميركيّة من قصائدي، انهارت الحواجز، فبقيت مستيقظة، طيلة الليل، تتملكني إثارة مرعبة، ثم أدركت كيف يتوجب عليّ أن أكتبها، فشرعت في اليوم التالي بكتابتها، ورحت أذهب في كل صباح إلى غرفتي المستأجرة، كما لو كنت أذهب إلى مكتب، فأنجزت المزيد منها.

وفي الصّيف، انتقل آل هيوز إلى ديڤون Devon، للعيش في منزل ريفيّ

مسقوف بالقش، وفي السادس من تشرين الثاني لسنة 1961، كتب سكرتير مجلس أمناء منحة ساكستن أنّهم وافقوا على منحها منحة بقيمة 2080$، «المبلغ الذي اقترحته». أجابت سيلڤيا: «لقد كنت في غاية السرور حين تسلمت رسالتك الطيّبة اليوم، والتي تتحدث فيها عن منحة ساكستن. لا شك إنّني عازمة على المضيّ قدماً في كتابة الرّواية، وقد جاءت المنحة في وقت مناسب جداً، لتحرّرني من الأعباء التي تثقل كاهلي».

وفي 17 كانون الثاني لسنة 1962، وُلد ابنها نيكولاس. كان وقتها موزّعاً بين رعاية ابنيها والعمل المنزليّ والكتابة، لكنّها— في العاشر من شباط لسنة 1962— أرسلت، في الوقت المحدد، تقريرها الرّبعيّ الأول حول تقدُم روايتها إلى مجلس أمناء منحة ساكستن. «تقدمت الرّواية، خلال الأشهر الثلاثة الماضية، بخطى مرضية جداً، وفقاً لبرنامجي التمهيديّ. لقد راجعت الكثير من المسودات إلى أن وصلت إلى صيغة نهائيّة للفصل التاسع حتى الفصل الثامن، منجزة 105 صفحات من مجموع الرواية، كما وضعت خطة تمهيديّة مفصّلة للفصل التاسع حتى الثاني عشر». ثم قدمت خططاً مفصّلة لرواية الناقوس الزجاجي. ورغم أنّ الرواية كانت تسير على نحو جيّد، إلاّ أنها اشتكت إلى إحدى صديقاتها من شعورها أنّها لا تشتغل بما يكفي: «لا شك أنّ بضع قصائد أحبّها، في كل سنة، تبدو شيئاً كثيراً حين تنشر، لكنّها في الحقيقة علامات رضا تفصلها عطالات هائلة». وفي بداية أيّار لسنة 1962، في التقرير الرّبعيّ الثاني المقدم إلى مجلس أمناء المنحة، كتبت: «تسير الرّواية بخطى جيّدة، وفقاً للبرنامج. لقد أكملت الفصل التاسع حتى الثاني عشر (من الصفحة 106—166) ووضعت خطة تمهيديّة مفصّلة للخطوة المقبلة». وبحلول

حزيران لسنة 1962، أخبرت إحدى صديقاتها: «إنّني أكتب ثانيةً. أكتبُ حقّاً. أرغب في رؤية بعض قصائدي الجديدة». كانت قد شرعت في كتابة قصائد «إرييل»، وكانت واثقة تماماً من رغبتها في إطلاع الآخرين عليها، في أن تُقرأ، في أن تُقرأ عالياً. كانت هذه القصائد مختلفة: كتب زوجها إنّ [قصيدة] «الخُزامى» كانت أول علامة لما كان سيلي لاحقاً. كتبت هذه القصيدة من دون مطالعاتها المعتادة في القاموس، وفي سرعة فائقة، مثلما يكتب المرء رسالة عاجلة. لقد كتبت قصائدها، منذ ذلك الحين، بهذه الطريقة».

في الأول من آب لسنة 1962، أرسلت سيلڤيا تقريرها الأخير إلى مجلس أمناء منحة ساكستن:

> تكتمل الرواية الآن، وتتخذ شكلها النهائي، مثلما كان مقرراً على نحو ما، لقد أنجزت الفصل الثالث عشر حتى السادس عشر (الصّفحات 167—221) وأتمنى أن تنتهي الخطوة الأخيرة كما ينبغي هي أيضاً.

بعد عطلة في أيرلندا، قرّرت سيلڤيا وتيد أن ينفصلا لبعض الوقت. كان الصيف شاقاً بالنسبة إليهما. لقد عانت من زكام متكرر مصحوباً بحمى شديدة. بدا شتاء آخر في ديڤون مستحيلاً. بدأت تقوم برحلات يومية إلى لندن، حيث كانت «تشتغل لدى البي بي سي» وتبحث عن شقة للإيجار. أُرسل مخطوط الناقوس الزجاجي إلى مجلس أمناء منحة ساكستن في الولايات المتحدة، وقبلت دار هاينمان نشر الرّواية في إنجلترا، والتي كانت قيد الطباعة.

وقبل أيّام من أعياد الميلاد، انتقلت سيلڤيا وولداها إلى لندن، حيث كانت قد وقّعت عقد إيجار شقّة لمدة خمس سنين:

. . . وقعت معجزة صغيرة— زرت برج[61] ييتس Yeats ببَاليلي Ballylea، والذي اعتقدت، وأنا في أيرلندا، أنّه أكثر أماكن العالم جمالاً وأكثرها هدوءاً؛ ثم، وأنا أتمشى، متوحدةً، حول پْرِم رُوز هِل Primrose Hill[62]، المكان الذي أعشقه في لندن، متأملة استحالةَ العثور على شقّة للإيجار . . . مررت بمنزل ييتس بلافتته الزّرقاء، «هنا عاش ييتس»، والذي كثيراً ما مررت به واشتهيت أن أعيش فيه. كانت لافتة في الأعلى كُتب عليها «شقق للإيجار»، فهرعت إلى الوكيل العقاريّ. سيبدو الأمر معجزة فقد سبق لي أن حاولت العثور على شقّة للإيجار في لندن، كنت أول من تقدم . . . . إنّني هنا، بعقد إيجار لخمس سنين، وإنّه النّعيم المطلق . . . وإنّه منزل ييتس، الذي يعني لي الآن كثيراً.

اعتبرت سيلڤيا العثور على منزل ييتس علامة ما. لقد أخبرت إحدى صديقاتها أنّها كانت «تعلم»— حين خرجت للبحث عن شقّة للإيجار في ذلك اليوم— إنّها سوف تجدها، فأخذت تضع الخطط، بكل ذلك التأكيد، وبكل ثقة حيويّة بالنّفس. كانت تشتغل على رواية جديدة، وكانت قصائد إرييل تواصل

61– وهو البرج Tower (ويعرف باسم القلعة Castle أيضاً) الذي أقام به ييتس وزوجته وابنته من 1919 وحتى 1929، يتكون من أربعة طوابق— يربطها ببعضها سلم حجريّ— في كل طابق غرفة، وفي كل غرفة نافذة تطل على النّهر الذي يجري قربه. وثمة قصيدة شهيرة لييتس تحمل اسم «البرج». (المراجع).

62– حرفيّاً: تل أزهار الرّبيع، وهو تل بارتفاع 256 قدماً، يقع في شمال لندن. (المراجع).

تدفّقها. كما أخبرت صديقة أخرى أنّها ترى *الناقوس الزجاجي* «عملَ سيرةٍ ذاتيّة أوليّاً كان عليّ أن أكتبه لأحرّر نفسي من الماضي». لكنّها اعتبرت الرّواية الجديدة، التي تتناول المزيد من الأحداث الأخيرة المتعلقة بحياتها، مهمة وقويّة ومُلحة.

وحين نُشرت *الناقوس الزجاجي*، في كانون الثاني 1963، كانت سيلڤيا متضايقة من المراجعات النّقديّة، رغم أنّ قارئاً آخر (ليس هو المؤلفة، ولا يرزح تحت وطأة ذات الضغوط) قد يفسر وجهات نظر النقاد حول الرّواية على نحو مختلف تماماً. كتب لورنس ليرنر Lerner، في [مجلة] ذَا لِسنَر Listener: «يرى نقّاد في أميركا أنّ العُصابيّ يستطيع العمل مثل أيّ واحد— وربّما أفضل— ولقد صورت الآنسة لوكاس كلا الشخصيّتين على نحو رائع». كما لاحظ ملحق التايمز الأدبي أنّ المؤلفة «تستطيع الكتابة دون ريب»، ثم واصل القول: «إن استطاعت أن تتعلم كيف تصوغ الأشياء كما تتخيّلها، فربّما تؤلف كتاباً في غاية الجودة». ووصف روبرت توبمن Taubman، في [مجلة] ذا نيو ستِييتسمَن The New Statesman، *الناقوس الزجاجي* أنّها «أول رواية نسويّة كُتبت بمزاج سَالِنغَريّ Salinger» .

وفي 1970، أرسلت والدتها أوريليا Aurelia پلاث رسالةً إلى محرّر [أعمال] سيلڤيا بدار هارپر آند رُوو، في نيو يورك، حول النشر المرتقب للطبعة الأميركية الأولى من *الناقوس الزجاجي*:

> أدرك أن لا تفسير للمعاناة الشخصيّة التي سيتسبّب فيها نشر *الناقوس الزجاجي* هنا، في الولايات المتحدة، لحيوات عدة أشخاص، ولن تنفع أيّة مناشدة، مهما كان منطلقها، في

منع نشرها، لذا لن أضيّع وقتي، ولا وقتك، في الإشارة إلى التبعات الحتميّة . . . أريد إخبارك عن آخر حديث دار بيني وبين ابنتي، في أوائل تموز 1962، قبيل انهيار عالمها الشخصيّ. أخبرتني سيلڤيا عن الضغوط التي كانت تثقل كاهلها لموافاة التزاماتها تجاه صندوق يوجين ساكستن. فكما تعلم، لقد حصلت على منحة من الصّندوق لتمكينها من كتابة رواية. تعرّضت، خلال الوقت المخصّص لذلك، إلى عمليّة إجهاض، كما خضعت لعمليّة استئصال للزّائدة الدوديّة، وأنجبت طفلها الثاني، نيكولاس. «ما فعلته»— أذكرها تقول— «هو إسقاط أحداث من حياتي الخاصّة وإضافة شيء من التخيُّل: إنّه مِرجل حقيقيّ، لكنّني أعتقد أنّه سيظهر كيف يشعر المرء بالعزلة حين يعاني من انهيار عصبيّ . . . . حاولت تصوير عالمي، والنّاس الذين يوجدون فيه، مثلما رأيته في العدسة المشوِهة لناقوس زجاجيّ». ثم استطردت: «سيظهر كتابي الثاني ذات العالم مثلما رأيته بعيون العافية». تمثل كل شخصيّة في *الناقوس الزجاجي*، على نحو عمليّ، شخصاً ما— مصوراً، في الغالب، بطريقة كاريكاتوريّة— أحبّته سيلڤيا؛ لقد منحوها بسخاء من وقتهم وفكرهم وعاطفتهم، كما قدموا لها العون المعاديّ خلال تلك الشهور الستة المؤلمة التي تعرّضت فيها لانهيار عصبيّ في 1953 . . . . يمثل الكتاب، في صيغته الحاليّة، العقوق الأكثر خِسة. لم يكُن ذلك من سمات شخصية سيلڤيا؛ وكان ذلك هو ما جعلها

تشعر بالخوف حين قُرئ الكتاب، إبّان نشره، على نطاق واسع، وظهور علامات على نجاحه التجاريّ. كتبت لأخيها «يجب ألاّ ينشر الكتاب في الولايات المتحدة». . . . من المفترض أن يشير عنوان *الناقوس الزجاجي* إلى ما أخبرتني به سيلڤيا، وهذا ما يتوجب على القارئ الحاذق أن يستخلصه . . .

كان الشتاء الأكثر برودة في لندن منذ 1813–1814. كانت الإنارة والتدفئة تنقطعان من دون سابق إنذار. كما تجمد الماء في المواسير. تقدمت بطلب للحصول على هاتف— وكان اسمها مدرجاً في اللائحة— غير أنّ الهاتف لم يُركب بعد. كانت تشتغل في كل صباح، وقبل استيقاظ الأطفال في الساعة الثامنة، على قصائد إرييل. هنا غدت التجربة الإنسانيّة— كشيء مرعب خارج عن السيطرة— والعلاقات الإنسانيّة— بوصفها زائفة ومُتلاعَب بها— مسيطرة على مخيّلتها. ومع ذلك، فقد كتبت بقوة، مقتنعة أنّ كل ما تكتبه الآن لا يمكن لأيّ شخص آخر أن يقوله. كانت دائماً ثمة حاجة إلى أن تكون عمليّةً، أن تجد وقتاً للتعبير المُتعمد عن المعاناة. كتبت سيلڤيا: «أشعر كأنّني أداة، أو سلاح، شديد الفعالية، استخدم عند الطلب، من حين لآخر . . .». كانت قد زارت طبيباً وصف لها بعض الأدوية المهدئة، ورتب لها لقاء لاستشارة معالج نفسانيّ. كتبت رسالة لتحدد موعداً، كما كتبت رسالة إلى طبيبها النّفسانيّ السابق في بوسطن. كانت مشكلة احتقان الجيوب الأنفيّة المتكرّر قد تفاقمت. كانت قد طردت جليسة أطفالها في انتظار من

يحل مكانها «لتساعدني على رعاية الأطفال في الصّباح لأستطيع الكتابة. . . فلا نفع في الليالي، حيث أكون منهكة ولا أستطيع فعل شيء سوى الاستماع إلى الموسيقى واحتساء البراندي والماء».

ورغم مساعدة أصدقائها، وترقُّب حلول الرّبيع (كان عليها العودة إلى المنزل في ديفون بحلول عطلة أول أيّار)، فإنّها كانت يائسة ومريضة. غير أنّ القصائد واصلت التدفُّق، حتى في آخر أسبوع من حياتها— بضع قصائد مذهلة. بدت، بالنّسبة إلى الذين من حولها، أنّها لم تستسلم. فغالباً ما كانت تبدو مشرقة، مبتهجة، ومليئة بالأمل.

غير أنّها، في صبيحة 11 شباط 1963، وضعت حداً لحياتها. مَن عساه يجد مبرّراً لذلك؟ ومثلما كتبت سيلفيا، سابقاً، في الصّفحات المتفائلة الأخيرة من *الناقوس الزجاجي*:

> كيف سأعرف أنّ النّاقوس الزّجاجيّ سيهبط، ذات يومٍ— في الكليّة، في أوروبّا، في مكانٍ ما، في أيّ مكان— بتشوهاته الخانقة ثانيةً؟

ذاك هو الناقوس الزجاجي الذي قاومته— ذات مرة— بنجاح ظاهر، وعلى نحو بارع، والذي استطاعت أن تكتب عنه بوضوحٍ التي عانت من جرائه: «بالنسبة إلى الشخص الذي في الناقوس الزجاجي، منهكاً وشاحباً كطفل ميت، فإن العالم حلم فظيع».

نبذة عن المؤلفة:

سيلفيا بلاث شاعرة وروائية أمريكية. ولدت سنة 1932. وأنهت حياتها على نحو مأساوي سنة 1963.
تميزت بأعمالها الشعرية مثل: «العملاق»و«آريل».وتمثل هذه الرواية الصادرة سنة 1963عنواناً لمرحلة كاملة ومصدراً ملهماً للحركة النسائية في أوروبا.

نبذة عن المترجم:

من مواليد 1970. مراكش . المغرب.
حاصل على الدكتوراه في الأدب الإنجليزي.
وأستاذ باحث بكلية الآداب والعلوم الإنسانية.

الناقوس الزجاجي

ترصد رواية الناقوس الزجاجي حياة فتاة أمريكية في ريعان الشباب و هي على شفا انهيار عصبي. تبدو الصورة مغرقة في المأساة والمفارقة إذ لا شيء في حياة إيستر غرينوود. بطلة الرواية. يشير إلى هذا المصير المأساوي. فبعد فوزها في مباراة لمجلة موضة. تذهب إيستر إلى نيويورك لتتعرف على مظاهر الحياة الأمريكية. لكنها حينما تعود إلى بلدتها تعود و قد تهشم شيء ما بداخلها.

المعارف العامة
الفلسفة وعلم النفس
الديانات
العلوم الاجتماعية
اللغات
العلوم الطبيعية والدقيقة / التطبيقية
الفنون والألعاب الرياضية
الأدب
التاريخ والجغرافيا وكتب السيرة

كلمة
KALIMA

أبوظبي للثقافة والتراث
ABU DHABI CULTURE & HERITAGE

9 789948 018254